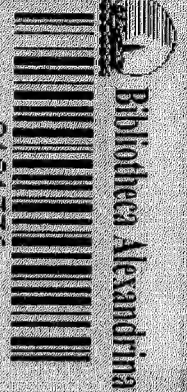


أحمد على الملا

أثر العلماء المسلمين
في
الحضارة الأفريقية



دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أثر العلماء المسلمين
في الحضارة الأوربية

أحمد على المدا
مستشار في الحقوق
مساعد قضائي في وزارة العدل

أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية

دار الفكر

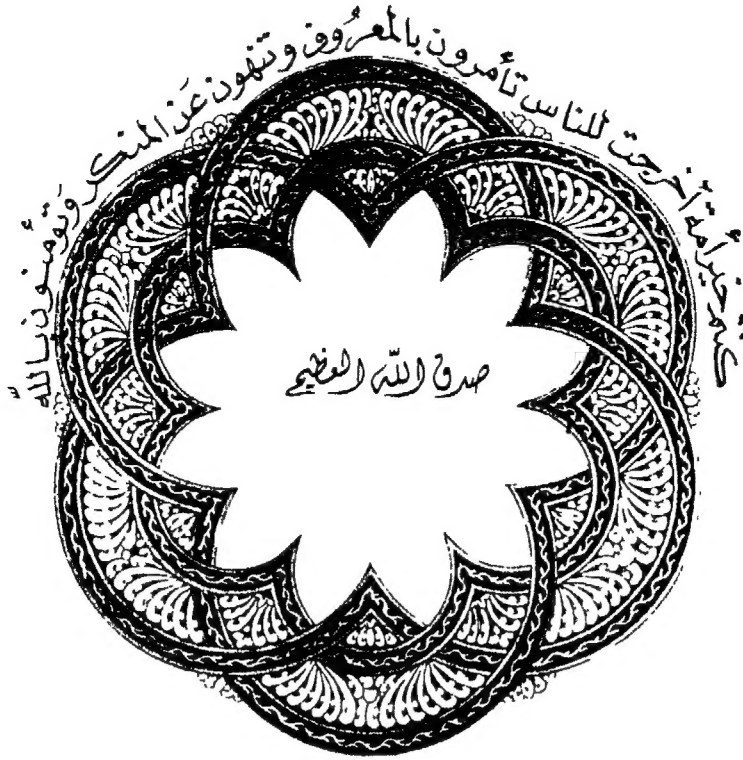
تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
ط ١ - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع
الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (١٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً - فكر - تلكس Sy 411745 FKR Tx



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة

الاسلام رسالة (علمية - تربوية) تهدف الى سعادة الانسان والانسانية .
لقد ربّى الاسلام (الانسان الفاضل) وأقام (الدولة الراشدة) لحراسة
العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي ، وإنعاش القوة المحركة للحضارة الانسانية ،
لتكون كلمة الله (رحمته ، حكمته ، عدالته) هي العليا ، رائدة موجهة ، ضابطة
للسلوك الفردي والاجتماعي ، ترقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل .
لقد صاغ الاسلام الأمة العربية صياغة جديدة ، فغيّر كثيرا من مفاهيمها ،
وطبائعها ، ومثلها ، وقيمها وعاداتها وتطلعاتها ، فإذا بها خير أمة أخرجت للناس
تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . انطلقت تحت راية العقيدة الجديدة
التي آمنت بها تخترق الحدود وتحطم الحواجز ، التي تفصل بينها وبين دولتي
فارس والروم وقد تهاوت الدّول أمام الدفع العربي الإسلامي ، وتدرجت
التيجان عن رؤوس الملوك ، وانجلى غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ولا أوسع ،
وعن حضارة ولا أسطع ، وعن مدنية ولا أروع ، عوّل عليها الغرب ، في تطوّره
الصاعد ورقية البناء .

لقد كان تأثير الحضارة الاسلامية في العالم الغربيّ المسيحيّ كبيرا (خلال
العصور الوسطى) إذ انتقلت كثير من المؤلفات العلمية ، في مختلف العلوم
والفنون ، الى أوروبا ، وترجمت الى اللغات اللاتينية مرات متعددة وكانت تدرّس
في المؤسسات والمعاهد والجامعات ، ويعتمد عليها كمراجع أساسية ، ولذلك
يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الاسلامية ، في
إثراء الفكر الأوروبي ، لفترة طويلة من الزمن ، استمرت لقرون عديدة .

ومن المعروف والثابت تاريخياً ، أنه في الوقت الذي كانت البلاد الاسلامية ،
تشكل المشعل الفكري الوضاء الذي ينشر النور فيما حوله ، ويملا الدنيا علماً
ومعرفة ، كانت أوروبا تعيش في حالة من الجهل والتخلف والضياع والتمزق ،
ولما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهيّن ، التفتت الى الحضارة
الاسلامية تنهل من رحيق المعرفة والفكر ، ما أمكنها ذلك ، ولذلك عكف علماءها ،
ورجال الدين فيها ، على دراسة - الآثار العلمية التي كتبها العلماء المسلمون من
أمثال : ابن سينا والرازي والبتاني وابن الهيثم والبيروني والخوارزمي والكندي
والفارابي وغيرهم ، فكانت هذه المؤلفات ، تمثل المنهل العذب ، الذي كان
طلاب المعرفة ينهلون منه .

وبينما وقعت أوروبا فريسة الفوضى والاضطراب ، وكانت الحضارة فيها
تحتضر (بعد القرن الخامس الميلادي) نهض الشرق نهضة مباركة ، وعلا شأن
الحضارة فيه ، إذ ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، في القرن السابع الميلادي
وامتد فيها الى الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر (التركستان) والسند
في آسيا ، والى مصر والمغرب والسودان في أفريقيا ، والى الأندلس وصقلية
وكريت في أوروبا ، وقامت في هذه الرقعة الواسعة دولة عربية كبيرة ، كان لها شأن
كبير في العصور الوسطى . وتفوقت الحضارة العربية في العصور الوسطى على
ما جاورها من الحضارات في الشرق (الهند والصين) وفي الغرب (الدولة
البيزنطية ، ودولة شارلمان وخلفائه) إذ أن البلاد العربية - استطاعت في ظل
التسامح الاسلامي ، وبفضل موقعها الجغرافي وسط العالم القديم ، ونشاط
أهلها ، أن تكون بمثابة البوتقة التي جمعت أحسن العناصر للحضارات المجاورة ،
وأضافت إليها ما أتى به الاسلام ، وما حفظه المصريون والسوريون والعراقيون
والفرس ، وما ابتكره العقل والفكر الاسلامي ، وأنشأت من كل هذا حضارة
يعلوها المؤرخون أقوى وأعظم حضارة في القرون الوسطى ، سواء في ذلك في
العلوم أو الآداب أو الفنون .

وليعلم كل عاقل مفكر أن الاسلام دين حضارة ، لم تقم لغيره حضارة خاصة

به ، وقد أضفى على كل البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الديني ،
والعلاقات الانسانية والاجتماعية ، كما أن المسلمين أخذوا من الحضارات السابقة ،
وتفاعلت حضارة الاسلام مع الحضارات العالمية الأخرى ... وهذا هو ناموس
الحياة (في الأخذ والعطاء) فكانت حضارة متكاملة وستبقى من أجل الانسانية
مدى الحياة •

وقد قال الدكتور (كويلر بونج) أستاذ العلاقات الأجنبية في جامعة
برنستون (في واشنطن) :

كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي ، مدين بوجوده الى الثقافة العربية
الاسلامية ، كما وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة ،
والذي أخذ به علماء أوروبا ، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوربيين بالعالم
الاسلامي عن طريق دولة العرب في الأندلس •

وقد قال الاستاذ (كويلر بونج) أيضا : في محاضراته التي ألقاها في مؤتمر
الثقافة الاسلامية الذي عقد برعاية (جامعة برنستون) و (مكتبة الكونغرس)
في واشنطن عام ١٩٥٣ تحت عنوان :

أثر الاسلام الثقافي في المسيحية

وبعد فهذا عرض تاريخي قصص به التذكير بالدين الثقافي (بفتح الـ)
المشددة) الذي ندين به للاسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه
الألف السنة - نسافر الى العواصم الاسلامية ، والى المعلمين المسلمين ندرس
عليهم العلوم والفنون ، وفلسفة الحياة الانسانية ... ولن نتجاوز حدود
العدالة ، إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيين حقاً ، إذا نحن
تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا في حبّ واعتراف بالجميل (١) •

لقد بوأنا الاسلام مركز القيادة ، في الحضارة الانسانية (علماً وعملاً

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٢٥٧ ، مجموعة محاضرات القيت في مؤتمر الثقافة الاسلامية
(في واشنطن) عام ١٩٥٣ •

وأخلاقاً (فجعل من الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس ، حيث أعطانا تصوّراً شاملاً ، عن الحياة وطبيعتها ، والوجود ومكانة الانسان فيه ، ونوعيّة النظام الذي يجب أن يحكم المجتمع البشري ، وكان هدف الاسلام من إعطاء هذا التصور الشامل هو :

إيجاد أمة ذات طابع خاص تتميز به عن جميع الأمم ، بحقق المنهاج الإلهي ، الذي أراده الله للانسان ، لينقذ به المجتمع البشري ، من حافة الضياع والتّيه ، وليقوده الى حيث النور والهدى ، قال تعالى :

● قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم^(١) •

ولما كان القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، يمثلان القوة الدافعة للحركة الحضارية في الاسلام اقتضت الحكمة أن نستهل بحثنا الأساسي « أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية » بعرض تمهيدي موجز ، يهدف الى التعريف (بكتاب الله وسنة رسول الله) وينتهي بنا المطاف لوضع الإطار التربوي لشخصية الرسول الكريم ﷺ مع مقتطفات من أقوال المنصفين من الغرب في عظمة الرسول الكريم ﷺ ونختتم بحثنا الأساسي المشار اليه ، بخاتمة ممتعة تصور المقابلة بين الدين والعلم والفلسفة ، توضح لنا عظمة الاسلام بمقوماته (العلمية - التربوية) التي تربط بين الدين والحياة ، بين واقع الانسان ومثله الأعلى ، وأن الوحي الإلهي موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، يضمن تألف القلوب ، ووحدة الرأي والهدف ، وحراسة العدالة وشمول الرحمة والسعادة •

ان الإسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكاً) كان (ولا يزال) قوة دافعة للحركة الحضارية ، سعادة للانسان والانسانية ، يرقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل •

(١) سورة المائدة : الآية ١٥ - ١٦ •

الباب الأول

الثقافة الإسلامية

تمثل الثقافة التراث الفكري الذي تتميز به الأمم عن بعضها ، وتختلف طبيعة هذه الثقافة وخصائصها بين مجتمع وآخر ، نظرا للارتباط الوثيق الذي يربط بين واقع الأمة وتراثها الفكري والحضاري ، وهذه الثقافة تنمو مع النمو الحضاري للأمة ، وتراجع مع التخلّف الذي تصاب به تلك الأمة ، ولذا فإن ثقافة الأمة تعبر عن مكائنها الحضارية التي وصلت إليها .

وإذا كانت الثقافة تعبر عن الخصائص الحضارية والفكرية التي تمتاز بها أمة ما ، فإننا نلاحظ أن الثقافات المختلفة تلتقي مع بعضها في كثير من الوجوه ، كما أن هذه الثقافات المختلفة تتلاقح فيما بينها عن طريق الامتزاج واللقاء بين الشعوب فتتفاعل مع بعضها ، فيؤدي هذا التفاعل الى تأثيرات جزئية أو كلية ، في طبيعة هذه الثقافات وفي خصائصها .

الفصل الأول

تعريف الثقافة وخصائصها

معنى الثقافة (١) :

تطلق كلمة الثقافة في اللغة على معان متعددة ، وهذه المعاني تفيد : الحذق والفتنة والذكاء ، يقال : ثقف الشيء إذا أدركه وحذقه ومهر فيه ، والثقيف هو الفطين ، وثقف الكلام فهمه بسرعة ، ويوصف الرجل الذكي بأنه « ثقف » •

وتستعمل كلمة « ثقف » في الحسيات ، يقال : تثقيف الرماح بمعنى تسويتها وتقويم اعوجاجها كما تستعمل في المعنويات ، كتثقيف العقل •

وقد اتسع مفهوم هذه الكلمة في العصر الحديث ، فأصبحت تستعمل في معان مختلفة ، لا تخرج عن المعنى الأصلي وإن كان مدلولها يتسع لما لا يتسع له المعنى اللغوي •

ولذلك نلاحظ أن الثقافة تطلق الآن ويراد بها ، التراث الحضاري والفكري ، في جميع جوانبه النظرية والعملية ، التي تمتاز بها الأمة •

وكل ما نستطيع الوصول إليه هو أن كلمة « الحضارة والثقافة » تدل على مجموع ما خلّقه الأمة من آثار حضارية وفكرية وفنية وأدبية ، في جميع المجالات المادية والمعنوية •

خصائص الثقافة الإسلامية :

تطلق الثقافة الإسلامية على التراث الفكري الذي خلفته الحضارة الإسلامية من جميع جوانبه : الديني والفلسفي والتشريعي واللغوي والأدبي ، والفني ،

(١) محاضرات في الثقافة الإسلامية : للاسناذ أحمد محمد جمال •

وهذا التراث انبثق من التصور الشامل الذي كوّنّه الاسلام في المجتمع الاسلامي، والذي يستمد حقيقته من القرآن الكريم الذي يمثل المصدر الأساسي والرئيسي لجميع أوجه التراث الحضاري للأمة الاسلامية •

وعندما جاء الاسلام أراد أن يعطي المسلم تصوراً شاملاً عن الحياة وطبيعتها ، والوجود ومكانة الانسان فيه ، ونوعية النظام الذي يجب أن يحكم المجتمع البشري ، وكانت غاية الاسلام من إعطاء هذا التصور الشامل هي ايجاد أمة ذات طابع خاص تتميز به عن جميع أمم الأرض ، تحقق المنهاج الإلهي الذي أراده الله للانسان ، لينقذ به المجتمع البشري من حافة الضياع والته ، وليقوده الى حيث النور والهدى • ولهذا شعرنا أن الجماعة الاسلامية الأولى قد تكيفت تكيفاً صحيحاً وكاملاً مع التصور الشامل الذي قادها إليه الاسلام ، وأصبحت تتحرك في حياتها طبقاً لذلك الهدف الواضح الشامل ، فقدمت بذلك للمجتمعات البشرية الأخرى نموذجاً فريداً ، لم يعهده التاريخ الانساني إذ انطلقت في مسيرتها نحو أهدافها التي حددها القرآن لها ، لتحقيق للمجتمعات الصورة المثلى التي أرادها الاسلام وحرص عليها •

الثقافة الاسلامية والثقافات الأخرى :

تمتاز الثقافة الاسلامية بشخصية متميزة من حيث مصادرها ومقوماتها ، وخصائصها وأهدافها ، ويدرك كل متتبع لجوانب هذه الثقافة هذا التميز الذي أعطى لثقافتنا عمقاً حضارياً أصيلاً ، وطابعاً إنسانياً معتدلاً ، ونظرة للوجود شاملة وكاملة •

وقد استطاعت هذه الثقافة أن تستفيد من التراث الحضاري الذي خلفته الأمم الأخرى في المجالات العلمية ، حيث ترجمت كتب التراث الإغريقي والفارسي الى اللغة العربية في عصر العباسيين ، ثم أضاف العلماء المسلمون الجديد من فكرهم وإنتاجهم الى هذا التراث الحضاري ، فصحّحوا كثيراً من النظريات ، وعدلوا كثيراً من الآراء ، حتى استطاعوا أن ينتزعوا من مؤرخي الغرب اعترافاً بعظمة التراث الاسلامي ، وبتميّز الحضارة الاسلامية ، وبدورها الكبير في

الحضارة المعاصرة *

ومن أهم مظاهر الحضارة الاسلامية أنها استطاعت أن تؤثر تأثيراً كبيراً في جميع الشعوب التي خضعت للدولة الاسلامية ، بل ان الثقافة الإسلامية قد طغت على الثقافة الأصلية للشعوب التي انتشرت فوق ربوعها راية الاسلام ، ومن أعجب العجائب أن يتم هذا التحول الفكري العظيم بدون إكراه أو إجبار ، ولهذا نجد كثيراً من المستشرقين يأخذهم العجب وتعقد ألسنتهم الدهشة حين يجدون أن ما عجز عنه الأغارقة والفرس والرومان عندما خضع الشرق لهم ، قد قدر عليه المسلمون ، فتلك الحضارات التي أخضعت الشرق لها ، لم تستطع أن تؤثر في عقائد الشعوب ولا في لغاتها ، ولا في ثقافتها ، في الوقت ذاته استطاع المسلمون أن ينشروا حضارتهم وثقافتهم ودينهم ولغتهم في البلاد التي فتحوها ، وأصبحت هذه الشعوب فيما بعد ، تنشر رسالة الاسلام ، وتدعو بدعوة القرآن ، وتتكلم بلغة العرب والاسلام *

وقد أشار العلامة الفرنسي - الدكتور غوستاف لوبون - الى هذه الظاهرة بقوله :

« ومن ذلك أن مصر الذي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعانا للمؤثرات الأجنبية ، نسيت في أقل من قرن واحد مرّ على افتتاح « عمرو بن العاص » لها ، ماضي حضارتها ، الذي دام نحو سبعة آلاف سنة ، معتنقة ديناً جديداً ولغة جديدة ، وفتناً جديداً ، اعتناقاً متيناً دام بعد تواري الأمة التي حملتها عليه » *

من ذلك يتبين لنا أن الحضارة الاسلامية بفضل مصدرها الإلهي ، ومقوماتها الفكرية ، ونزعتها الانسانية ، وشمولها الثقافي ، وحيويتها النابضة ، ومنهجها العلمي ، قد استطاعت أن تمثل الأمل الذي كانت الشعوب تتطلع إليه ، ولذلك ارتضت الشعوب المختلفة ، ذات الحضارات المتباينة أن تتخلى عن ثقافتها الأصلية ، وعقائدها السابقة ، وتدخل في الاسلام فتكون عقيدته ديناً لها ، وتكون تعاليمه لها شريعة وتكون لغة القرآن هي لغتها الأصلية *

وإذا كان المسلمون قد نقلوا وترجموا كثيراً من التراث العلمي للأمم

الأخرى ، كاليونان والفرس ، فانهم لم يلبثوا أن اعتمدوا على أنفسهم ، وعلى المناهج العلمية التي ابتكروها ، فافتتحو المدارس والمعاهد والجامعات ، وألفوا الكتب والمراجع والأبحاث ، وأقاموا المراصد والمشافي والمختبرات ، يدفعهم الى ذلك نشاط وثاب ، وهمّة عليّة ، لفتت الأنظار إليهم ، وانتزعت الإعجاب بهم ، حتى لهج أعداؤهم بالاعتراف لهم بالفضل والسبق •

الحضارة الاسلامية :

تشير كلمة الحضارة الاسلامية الى المبادئ الاصلاحية التي تضمنها الدين الاسلامي الحنيف ، وهي تلك المبادئ التي أرسل الله بها رسوله الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم ، لتنظيم هذا العالم وإصلاحه ، وقيادته الى الطريق السليم الذي يوجهه الى الخير والسعادة ، وينأى به عن الشر والشقاء ، ثم تركها الرسول الكريم الى الخلفاء الذين جاءوا من بعده ، لينشروها ما وسعتهم الطاقة في أرجاء العالم •

ولا شك أن مبادئ الاسلام تتعاون كلها لمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في وقت واحد ، وتكاد تنتظمها جميعا كلمة واحدة هي « الايمان بالله » لأن الايمان بالله هو إخلاص المخلوق لخالقه ، ولن يتم ذلك إلا إذا أدّى واجبه نحو نفسه ، وواجهه نحو الناس ، فاتّجه في تصرفاته الخاصة الى طريق سليم ، واتجه في علاقته بالناس ومعاملته لهم ، الى نفس هذا الطريق السليم — طريق الرحمة والحكمة والعدالة — الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ، ليصفو لهم العيش ، وتزدهر بهم الحياة • وفي ظل هذا الاتجاه ، تزدهر الشورى ، وتعم الأخوة والمساواة ، ويسود العدل والإنصاف بين الناس ، وتلكم هي أسس الحضارة الحقيقية ، التي يهنأ الفرد في جنباتها ، وتسعد الجماعة تحت ظلها الوارفة •

ولما كان القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، يمثلان القوة الدافعة للحركة الحضارية في الاسلام اقتضت الحكمة أن تقدم عرضاً (تمهيدياً) موجزاً يهدف الى التعريف بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، وينتهي بنا المطاف لوضع الإطار الشخصي لعظمة الرسول الكريم ﷺ •

الباب الثاني

القرآن والسنة

لقيت الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة عناية فائقة من العلماء المسلمين خلال التاريخ الاسلامي لأنهما يمثلان المصدرين الرئيسيين اللذين يعتمد عليهما كل الاعتماد في مجال التوجيه والتشريع ، فمنهما يستمد المسلم المبادئ الأساسية والقواعد الرئيسية التي ترسم له طريق حياته ، وتحدد له ملامح فكره ، وهما المصدران النقليان من مصادر التشريع الاسلامي •

وإذا كان القرآن والسنة يتبوآن هذه المكانة العظيمة في المجتمع الاسلامي ، فلا عجب - بعد ذلك - إذا وجدنا أن الحركة العلمية في صدر الاسلام قد ابتدأت بالدراسات المتعلقة بهما ، خدمة لهما ، وتفسيراً لأحكامهما ، ليكون الرجوع إليهما ميسراً ، وفهم نصوصهما ميسراً وواضحاً •

الفصل الأول

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتابنا الخالد الذي أنزله الله على رسوله ، ليكون مشعل النور والضياء لكل مسلم في أرجاء الأرض ، يستمد منه عقيدته التي يؤمن بها ، وتشريعه الذي ينظم حياته ، ويرسم له ملامح الطريق الذي يجب أن يسير عليه ، وهو الكتاب العربي الأول ، والمعجزة البيانية الخالدة ، الذي سحر العقول بديع نظمه ، وروعة بيانه ، ودقة تصويره ، وجمال ألفاظه وتعايره .

وقد استطاع القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تعاليم وأحكام ، أن يوقظ النفوس البشرية من رقادها وأن يجعل منها طاقة هائلة ، متماسكة متحدة ، تنشر رسالة الاسلام خفاقة في ربوع الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب .

والقرآن اليوم هو الكتاب الذي تلتقي عليه شعوبنا في مختلف أقطارها ، فيقرب ما تباعد من لغاتهم ولهجاتهم ، ويقوّم ما انحرف من سلوكهم وعاداتهم ، ويوحّد ما تمزق من شملهم وتشتت من اتجاهاتهم ويوقظ منهم شعلة الحياة كلما خفت بريقها ، فيعيد لها قوة فتية .

المبحث الأول

التعريف بالقرآن وتاريخه

كلمة « القرآن » مشتقة من « قرأ » بمعنى (تلا) ، والقراءة تعني التلاوة ،
لقوله تعالى :

● « إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » سورة القيامة: ١٦-١٨

ثم أصبحت كلمة « القرآن » علماً على كتاب الله ، المنزل على الرسول
الكريم ، المكتوب في المصاحف ، والمنقول إلينا بالتواتر ، عن طريق الكتابة
والحفظ في الصدور .

وللقرآن أسماء أخرى تطلق عليه ، منها : « الكتاب ، الفرقان ، الذكر ،
التنزيل ، وغيرها ... » وهذه الأسماء والأوصاف قد استعملها القرآن في كثير
من المواطن .

وقد نزل القرآن (منجّماً) أي مفرقاً ، بحسب الحوادث المتجددة ، فأحيانا
كانت تنزل بضع آيات ، وأحيانا آية واحدة ، أو بعض آية ، وذلك ليكون في هذا
التنزيل المستمر ، تلبية لما يتجدد من الأحداث والمشاكل ، وتقوية للرسول
وصحابه ، وتثبيتاً لقلوبهم ، وتسهيلاً لحفظ آياته ، وفهم أحكامه ، ولو رجعنا
إلى آيات القرآن الكريم لوجدناها تقصّ على رسول الله قصص الأنبياء السابقين ،
وما لاقوه من قومهم من مشقة وعنت ، وتدعوه إلى الصبر والاحتمال ، لئلا
يتطرق اليأس إلى قلبه ، والحزن إلى نفسه ، وهذا التدرّج يساعد على حفظ
الآيات واستذكارها ، وتلقيها لصحابته الذين يعكفون على حفظها ، والعمل
بمقتضاها ، وبالإضافة إلى هذا ، فإن نزول القرآن بشكل متدرّج ، كان يهدف

الى التدرج في الأحكام لثلاث تنزل دفعة واحدة ، فيكون فيها الحرج والمشقة على الناس ، ولذلك وجدنا أن الأحكام التي كانت تنزل كانت تتناسب مع الأحداث الجارية ، فتعرض لها ، مبيّنة حكمها ، وموضحة ما غمض منها ، ومرشدة للطريق السويّ وقد ابتداءً نزول القرآن — على أصح الروايات — ليلة السابع عشر من رمضان ، للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول الكريم ، في غار حراء ، حيث كان يتعبّد ربّه ، وأول آية نزلت قوله تعالى :

● اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم •

واستمر نزول القرآن فترة تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ، حيث نزلت الآية الأخيرة في يوم عرفة ، من السنة العاشرة للهجرة ، وهي قوله تعالى :

● « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » المائدة : ٣ •

المكي والمدني من آيات القرآن

تنقسم فترة نزول القرآن الى مرحلتين تاريخيتين : أولاها المرحلة المكية ، وهي مرحلة ما قبل الهجرة ، وثانيهما المرحلة المدنية ، وهي مرحلة ما بعد الهجرة ، فما نزل من القرآن قبل الهجرة ، يقال له الآيات المكية ، وما نزل بعد الهجرة يسمى بالآيات المدنية •

ولم يرتّب القرآن بحسب نزوله الزمني ، ولذلك نجد أن السور المكية والمدنية متداخلة مع بعضها ، وأحياناً نجد بعض الآيات المدنية ضمن سورة مكية أو العكس ، ويعود ذلك إلى أمر الرسول الكريم الذي كان يأمر كتبة الوحي بأن يضعوا كل آية من الآيات في مكانها الذي نراه عليه اليوم ، وبالتالي لا يملك الصحابة ، تغييراً فيما أمر به الرسول الكريم أو تبديلاً ، وكل ذلك لحكمة لا يدركها الانسان •

رلو رجعنا الى آيات القرآن لوجدنا اختلافا بين هذه الآيات من ناحية الاسلوب ، ومن ناحية الموضوع ، وهذا الاختلاف في الاسلوب يؤكد لنا الإعجاز القرآني ويبرزه ، أما الاختلاف في الموضوع ، فيعود الى طبيعة التطور المرحلي الذي مرت به الدعوة الاسلامية ، فالموضوع الذي تعالجه الآيات التي نزلت في بداية العصر المكّي حيث كانت الدعوة في بدايتها ، يختلف على وجه التأكيد عن الموضوع الذي تتناوله الآيات في القسم الأخير من المرحلة المدنية ، وذلك لاختلاف الظروف وتباين الواقع بين هاتين المرحلتين •

— فمن الخصائص الاسلوبية للآيات المكيّة ، أنها ذات نبرة خاصة ، وإيقاع مؤثر يتمثل في ألفاظ قوية وجمل مختصرة ، وصور معبرة ، وأمثال موضحة ، ومشاهد حيّة •

— وأما خصائصها الموضوعية ، فقد كانت هذه الآيات تتناول قضايا الخلق والخلق ، والجنة والنار ، والدنيا والآخرة ، والموت والبعث ، وعالم الغيب والشهادة ، ولهذا نلاحظ أن هذه الآيات تستخدم أسلوب المناقشة — والإقناع ، والقسَم ، للوصول الى مبادئ الايمان بالله واليوم الآخر ، ومناقشة المشركين ، ودحض معتقداتهم وتسفيه عقولهم ، والدعوة إلى الأخلاق القويمة ، والاستقامة في السلوك ، والصدق في المعاملة •

— أما الخصائص الاسلوبية والموضوعية للآيات المدنية ، فتختلف عن الخصائص الأسلوبية والموضوعية التي تمتاز بها الآيات المكيّة ، فالآيات المدنية ذات أسلوب تشريعي هادئ ، السور طويلة والآيات طويلة ، والموضوعات تتناول قضايا جديدة ، يعيش في ظلها المسلمون في المدنية ، ويحتاجون اليها ، كالقتال والحرب والسلم والغنائم ، والمعاملات ، والبيوع ، والزواج والطلاق ، والنفقات والإرث والوصية ، والعقوبات ، ومسائل الحكم والمال والزكاة ، والحج •••• ومن الطبيعي أن يتغير الأسلوب الذي يعالج هذه الموضوعات ، عن الاسلوب المكّي كما يختلف الاسلوب الذي يخاطب المؤمنين ، عن الاسلوب الذي يخاطب المنكرين والمشركين •

جمع القرآن وكتابته (١) :

يراد بجمع القرآن حفظه في الصدور ، لقوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » سورة القيامة : (١٧) ومنها جماع القرآن أي حفظه ، ويراد به أيضاً كتابته وترتيب آيات سورة •

فأما حفظه في الصدور ، فقد تمّ في عصر الرسول الكريم ، حيث كان الرسول ﷺ يحفظه ويعلمه لأصحابه ، الذين كانوا يجلسون في المسجد ، يتدارسون القرآن ويحفظونه • وقد اشتهر عدد من الصحابة بحفظ القرآن أو إقراءه ، منهم : أبيّ بن كعب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري ، وزيد بن ثابت •

وأما كتابة القرآن فقد كان الرسول الكريم يكلف كتاب الوحي أن يكتبوا له ما ينزل عليه ، فكانوا يكتبون هذه الآيات ، في الرّقاع ، واللّخاف ، والعصب ، والأكتاف ، والأقتاب ، وقطع الأديم (٢) •

وكانت هذه الأدوات هي الوسائل الميسّرة للكتابة في ذلك العصر ، وقد اشتهر عدد من الصحابة بكتابة الوحي فكانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله ﷺ الذي كان يرشدهم الى مكان الآيات النازلة ، وبعدها تحفظ الآيات المكتوبة في بيت رسول الله ، في الوقت الذي يتبدىء الصحابة بقراءتها وتدارسها وحفظها •

وبعد وفاة الرسول الكريم ، وعقب موقعة اليمامة بين المسلمين والمرتدين التي استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن اقترح الخليفة عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر الصديق ، أن يجمع القرآن ، وقد روى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

(١) ينظر - مباحث في علوم القرآن : للدكتور صبحي الصالح ص ٦٥ وما بعدها •

(٢) تمثل هذه الأصناف المختلفة أدوات الكتابة التي كانت معروفة وميسرة في عصر الرسول الكريم- وتشمل الجلد ، وصفائح الحجارة وجريد النخل ، وعظام البعير أو الشاة •

أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر .

كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير . . . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتبتع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال هو والله خير . . . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

وكان زيد بن ثابت يتشدد في قبول الآيات ، ويشترط لذلك أن تكون الآية محفوظة في الصدور ، ومكتوبة في الصحف بين يدي رسول الله ﷺ لئلا يتطرق الشك الى آية من آيات القرآن ، وبعد اكتمال الجمع والكتابة الذي استغرق جهداً كبيراً ، وضعت هذه الصحف عند أبي بكر ، وبعد وفاته انتقلت الى عمر بن الخطاب ، وبعد وفاته حفظت لدى ابنته « حفصة » لأنها زوج الرسول الكريم ، وبخاصة وأنه لم يعين بنفسه خليفة له ، يوصي بأن تنتقل تلك الصحف إليه .

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان جاء اليه حذيفة بن اليمان - وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزعته اختلاف المسلمين في قراءة القرآن - فقال له : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب ، اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى « حفصة » أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، وعندها كلف جماعة ممن اقتصوا بالقرآن ، وعرفوا بحفظه أن ينسخوا

هذه الصحف بالمصاحف، ثم ردّ الصحف الى السيدة « حفصة » وأرسل بمصحف من المصاحف التي نسخت إلى كل مصر من الأمصار ، وأمر بأن تحرق جميع الصحف والمصاحف الأخرى لئلا يكون في وجودها ما يدعو الى اختلاف جديد ، يؤدي الى بلبلة الرأي ، وضياح النص القرآني الصحيح •

ونلاحظ أن الخليفة عثمان بن عفان ، قد اعتمد في جمعه للقرآن على النسخة التي جمعت في عهد أبي بكر ، وقد اشترك جامع مصحف أبي بكر - وهو زيد بن ثابت - مع اللجنة الرباعية التي شكلها عثمان ، وكانت هذه اللجنة مكونة من كبار الصحابة الذين اشتهروا بحفظ القرآن وهم : عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، بالإضافة الى زيد بن ثابت ، وقد احتفظ عثمان بمصحف أبي بكر ، حيث أعاده للسيدة « حفصة » ولم يغيّر عثمان من مصحف أبي بكر شيئاً ، وإنما أراد من وراء جمعه للقرآن ، أن يجمع الناس على القراءات الثابتة المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، لئلا يؤدي عدم ذلك إلى قراءة القرآن بلغات العرب ولهجاتهم المتعددة ، فيقود ذلك الى الاختلاف في قراءة القرآن ويؤكد هذا ما ذكره الخليفة عثمان ، لأعضاء اللجنة المكلفة بجمع القرآن ، أن يكتبوه بلسان قريش لأنه إنما أنزل بلسانهم •



المبحث الثاني

الجوانب التي اشتمل عليها القرآن

لقد أنزل الله القرآن الكريم على رسوله المصطفى ، ليكون للناس دستوراً يسرون عليه ، وهادياً يهديهم الى سواء السبيل ، ومرشداً يقودهم الى الحق والصواب ... قال تعالى :

- إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .. الإسراء : ٩ وقال أيضا :
- ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ... النحل : ٨٩

وقد اشتمل هذا القرآن على جوانب كثيرة ، منها ما يتعلق بال عقيدة ، ومنها ما يتناول التشريع ، ومنها ما يدعو الى الأخلاق الفاضلة ، ومنها ما يتكلم فيها عن قضايا الخلق والكون والوجود ، ومنها ما يعرض فيها للأمم السابقة ، والأنبياء السابقين ، ومنها ما يذكر فيها قضايا الغيب ، من البعث والحساب والجنة والنار ... ولعله من العسير علينا أن نتناول في هذا البحث تلك الجوانب بشكل مفصل ، ولذلك سنكتفي بعرض الملامح العامة ، وأهم الجوانب التي تناولها القرآن ما يلي :

أولا : العقيدة الدينية :

لقد أعطى القرآن الكريم عناية كبيرة لبناء العقيدة الدينية في نفس الانسان ، واستخدم لذلك أسلوب الإقناع المنطقي ، الذي يجد صده في نفس الانسان ، منطلقاً في ذلك من الكون والانسان والمخلوقات فلفت النظر إليها ، ثم يستثير عقل الانسان وحواسه للتفكير في خالق هذه المخلوقات وموجدها ، قال تعالى :

● « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء
موزون » سورة الحجر

● « الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من
السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم
إن في ذلك لآيات لأولي النّهى » سورة طه •

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك الى الخالق وهو الله ، فيعرض لعقائد الشرك
ويناقشها بالحجة والدليل المنطقي ، ويؤكد على الوحدة الدينية بين الأديان
السماوية ، وأن الأنبياء جميعاً جاءوا لغاية واحدة ، كل واحد منهم يعزّز ويؤكد
فكرة الخالق ، ويدعو إلى التوحيد ، الذي يمثل أصل العقيدة الدينية ، وبمقتضى
هذه العقيدة النقيّة الصافية ، يؤمن الإنسان بأن الله هو الخالق الذي خلق
الخلق ويهيمن عليه بقدرته ، يستحق العبادة والخضوع دون غيره من المخلوقات
التي لا تستطيع الخروج عن ارادة الله ، قال تعالى :

● وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون •
الأنبياء : ٢٥

● قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب • الرعد : ٣٥

● فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق
الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين إليه واتقوه
وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين • الروم : ٣٠ - ٣١

● شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله
إلا هو العزيز الحكيم • آل عمران : ١٨

● أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون •
يوسف : ٣٩

● فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشّر المخبتين^(١) ، الذين إذا ذكر الله

(١) المخبتين : المتواضعين ، المنعنين لله بأنهم عبيده •

وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم

ينفقون • سورة الحج : ٣٥

فهذه الآيات الكريمة تشير بوضوح إلى أن :

• عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله) أصل العقيدة الدينية لدى الأنبياء جميعاً •
إن محاور الدين (التوحيد الإلهي) هو (توحيد الله) و (الخضوع
لعدالته سبحانه) •

وهذا المعنى مغروس في (فطرة الانسان) (أصل الخلق والتكوين) بل هو
الأساس الذي قامت به السموات والأرض ، وكما قال تعالى :

• « وخلق الله السموات والأرض بالحق (أي على أساس العدالة) ولتجزى
كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » • الجاثية : ٢٢

• « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم
يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » • فصلت : ٥٣

• يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلك •
الانقطار : ٦ - ٧

أجل - ان نبضات القلب ، وخلجات الفكر ، وعمل أجهزة الجسم بانتظام
وانسجام ، آيات واضحة على (توحيد الله) و (وعدالته سبحانه) ، قال تعالى :

• إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد • سورة ق : ٣٧
فإذا آمن الانسان بالله ، وأنه يستحق العبادة ، دون أي مخلوق من مخلوقاته ،
وجب عليه أن يؤمن بما جاء من عند الله ، عن طريق الايمان بالرسل الكرام ، وبما
جاءوا من تعاليم ، حول العقيدة الدينية ، التي تتضمن الايمان بالبعث والحساب
والجنة والنار •••••

ثانيا : القصص الهادفة :

اعتمد القرآن على القصة ، وجعلها وسيلة من وسائل الإقناع ، لتثبيت

العقيدة ، وتقريبها إلى النفوس ، ولو رجعنا الى القصص الموجودة في القرآن ، لوجدنا أن القرآن قد عرض كثيراً منها ، في مواطن شتى ، لا لمجرد القصة ، ولكن ليصل الى التوجيه الديني الذي يريده ، سواء لتأكيد فكرة الخالق ، أو لاثبات الوجدانية ، أو لإقرار عقيدة البعث والحساب ، أو لبيان مظاهر القدرة الإلهية ، أو لبيان عاقبة الصبر والشكر ، أو البغي والشر . وتهدف القصة القرآنية الى ما يلي :

١ - إثبات الوحي والرسالة : قال تعالى

● « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص

بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » سورة يوسف

٢ - تأكيد الدعوة الواحدة التي يدعو إليها جميع الأنبياء ، وهي عبادة الله ،

الواحد الأحد . قال تعالى :

● لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .

● وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .

● وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .

سورة الأعراف

٣ - بيان أن النصر في النهاية سيكتبه الله لأنبيائه ، ويظهر لنا هذا من خلال

القصص الكثيرة التي ذكرها القرآن ، عن أصحاب نوح ، الذين أخذهم الطوفان ،

وأصحاب لوط الذين أهلكوا ، وأصحاب شعيب الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا

في ديارهم جاثمين . . . قال تعالى :

● فكلأ أخذنا بذنبة ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته

الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله

ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

والقرآن - غالباً - لا يذكر القصة من بدايتها الى نهايتها ، وإنما يشير

إشارة عابرة الى مواضع العبرة التي يريدها .

ثالثاً : الفضائل الخلقية :

أعطى القرآن أهمية كبيرة للجانب الأخلاقي والسلوكي في حياة الانسان ، نظراً لأن الله خلق الانسان وأودع فيه حباً فطرياً للفضائل ، وكرهاً غريزياً للمفاسد ، وبالرغم من مؤثرات بيئية ، قد تبعد الإنسان عن هذه الطبيعة ، إلا أنها تبقى كامنة في النفس ، تنبجس في لحظات الصفاء النفسي والروحي التي يحس بها الانسان عندما يخلو - ولو للحظات - صادقاً مخلصاً مع نفسه . وقد جاء القرآن حاضماً على الالتزام والتمسك بهذا الجانب المشرق من سلوكنا ، بل ان التعاليم الدينية من واجبات ومحرمات ، قد جاءت لتؤكد هذه المعاني في النفوس البشرية ، التي تبعد في كثير من الأحيان عن المنهج الأخلاقي ، ولهذا نجد أن القرآن يستعمل كثيراً من العبارات التي تدل على الغاية من التشريع والتوجيه ، وتتمثل هذه الغاية في تعميق المبادئ الخلقية في نفس الانسان .

قال تعالى : - مؤكداً هذه المعاني -

● قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق الأعراف : ٣٢

● إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي النحل : ٩٠

● لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط الحديد : ٢٥

ولقد لخص القرآن مهمة الرسول الكريم، بأنه يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، ويقيم فيهم حكم الله ، فيأمرهم بعبادته وتوحيده ، وينهاهم عن عبادة الأوثان والأصنام ، وكان الرسول الكريم قدوة للناس في سلوكه ، وفي أخلاقه ، ولذلك وصفه الله تعالى بقوله :

● وإنك لعلى خلق عظيم • سورة القلم : ٤

والتعاليم الأخلاقية التي جاء بها الاسلام ، قد جاءت بها الأديان السماوية

السابقة ، والتي تتعاون جميعها على تشجيع الفضيلة ، في سلوك الفرد و حياة الجماعة ، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله الأمين عن الرسل السابقين :

● أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... الأنعام : ٩

ومن هذا المنطلق جاءت النظرية الأخلاقية في الديانات السماوية ، متقاربة المعالم ، متحدة الأهداف تسعى لتقويم الحياة البشرية ، لتسير على الطريق الصحيح ، على هدى حكمة الله ورحمته وعدالته •

رابعاً : الأحكام التشريعية :

يتميز القرآن عن غيره من الكتب السماوية ، أنه قد وضع للناس دستوراً شاملاً ينظم لهم حياتهم ، في جميع جوانبها الدينية والدنيوية ، في مجال العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو في مجال العلاقات بين أفراد المجتمع ، وتشمل أحكاماً تتعلق بالمعاملات والأموال ، والعقوبات ، بالإضافة إلى وضع القواعد المنظمة للمجتمع الاسلامي في علاقته مع الحاكم ، أو علاقة الحاكم به ، في علاقته مع الدول الأخرى في حال السلم أو الحرب ، في علاقته مع رعايا الدولة الاسلامية (من غير المسلمين) •

وكان منهج القرآن في عرض هذه الأحكام مختلفاً بحسب الموضوعات ، فالموضوعات الثابتة التي لا تقبل التغيير والتبديل ، جاء بها القرآن بشكل مفصل ودقيق ، كأحكام الميراث ، والعقوبات المرتبة على الجرائم الكبيرة ، كالقصاص والحدود ، نظراً لأن هذه الأحكام ثابتة ، وفي الوقت ذاته وضع الملامح العامة للكثير من الأحكام التي تتناولها ، دون أن يتدخل في التفاصيل والجزئيات ، تاركاً ذلك لولاة الأمور ، الذين يطبقون في مجتمعاتهم ما يلائمها ، ويحقق المصلحة في إطار المنهج القرآني العام (١) •



(١) ينظر كتاب مبادئ الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق النبهان ، ص ١٣٧ وما بعدها •

المبحث الثالث

ترجمة القرآن

كثيراً ما يدور في أذهاننا تساؤل حول ترجمة القرآن ، من اللغة العربية الى اللغات الأخرى ، ما حكم هذه الترجمة ؟ ومدى إمكانها ؟

وأول ذي بدىء نقرر أن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ، ضرورة وواجبة ، لأنها الطريق الوحيد لاطلاع من لم يتقن اللغة العربية على القرآن ، وما اشتمل عليه من عقائد وآداب وأحكام ، فإذا لم يترجم القرآن إلى اللغات الأخرى ، فقد حرمتنا منه كثيراً من المسلمين ، الذين يسعدهم معرفة ما اشتمل عليه القرآن •

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : ما مدى إمكان ترجمة القرآن ؟ وما هي الطريقة المثلى للترجمة الممكنة ؟

الترجمة الممكنة (١) :

القرآن كتاب الله المنزل على الرسول الكريم ، وهو المعجزة الكبرى له ، وقد تحدى العرب قاطبة ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بمثل سورة من سورته ، بالرغم من حرصهم على عدم الرضوخ لذلك التحدي ••• ومن هنا فالقرآن يتميز بطبيعة خاصة ، تجعله مختلفاً عن أي كتاب آخر ، وبالتالي فإن ترجمته من اللغة العربية التي نزل بها - وكان التحدي يشمل الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه النص العربي للقرآن - إلى أية لغة أخرى غير ممكنة لأن أية ترجمة لا يمكن أن تحقق الإعجاز الذي اشتمل عليه النص القرآني •••

(١) التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي ، ج ١ ص ٣٦ - ٣٠ •

ونستطيع أن نفرق هنا بين نوعين من الترجمة : الترجمة الحرفية ، والترجمة التفسيرية •

أولاً : الترجمة الحرفية :

والتي يراد بها ترجمة النص العربي بنص مماثل له لفظاً ومعنى ، وهذه الترجمة إن أمكن إتقانها من ناحية تخيير الألفاظ ودقة التعابير ، والتقارب بين الأسلوبين ، فإن الشيء الذي يتميز به النص العربي هو « الإعجاز » ولا يمكن لأية ترجمة أن تنقل هذا الإعجاز

هذا جانب ، أما الجانب الثاني فهو ، أن القرآن قد اشتمل على نصوص تشريعية ذات طبيعة مرنة ، يمكن تفسيرها بطرق مختلفة ، وقد اختلف الصحابة ومن جاء بعدهم في تفسير تلك النصوص ، ولا زالت هذه النصوص قابلة للتفسير أيضاً ، ولا بد للمترجم عند ترجمته للقرآن أن يتخير معنى من المعاني التي يحتملها النص ، ويتجاوز بقية المعاني ، وفي هذه الحالة تعتبر الترجمة باطلة ، لعدم استيعابها النص الأصلي استيعاباً كاملاً ، وأمام هذا الواقع الذي لا مجال لنكرانه ، نحس أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ، لأنها لا يمكن أن تعبّر تعبيراً حقيقياً عن النص الأصلي ، إلا أن هذه الاستحالة لا تمنعنا من تفسير القرآن بطريقة ينتهي معها ذلك المحذور ، وهي : الترجمة التفسيرية •

ثانياً : الترجمة التفسيرية :

ويراد بهذه الترجمة تفسير النص القرآني بحسب رأي المترجم واجتهاده ، بحيث ينقل المترجم الى اللغة التي يريد الترجمة اليها ما يفهمه من النص القرآني ، فيتخير الألفاظ المعبرة عن ذلك المعنى الذي ترجم في ذهنه ، وهذه الترجمة هي نوع من التفسير الى لغة أخرى ... وهي قابلة للخطأ والصواب وعلى من يقرأ ترجمة القرآن أن يتوضح في ذهنه أنه يقرأ الترجمة وليس القرآن ، فالقرآن قد نزل بلغة عربية ، والنص العربي هو الحجة ، ومنه تستنبط الأحكام ، أما الترجمة فليست بحجة ، ولا يستنبط منها أي حكم ، لأن صياغة الترجمة خاضعة لإرادة

المترجم ، وقد تختلف الآية الواحدة بين ترجمة وأخرى ، وفي هذه الحالة يبقى النص الأصلي ، هو المصدر الذي يعتمد عليه ، ويرجع إليه •

شروط الترجمة الجائزة (١) :

يشترط لكي تكون ترجمة القرآن جائزة ما يلي :

أولاً - أن يكون المترجم قادراً على الترجمة بشكل دقيق وصحيح ، ولا يتوفر هذا إلا لمن تعمق في الدراسات العربية ، وتذوق الأسلوب القرآني ، وفهم اللغات القرآنية التي تعجز القواميس اللغوية عن تفسيرها •

ثانياً - أن يكون المترجم بعيداً عن أية شبهة في عقيدته وسلوكه •

ثالثاً - الأفضل أن تتم الترجمة القرآنية على يد « لجنة علمية متخصصة » بحيث تكون الترجمة خاضعة ، لنوع من الدقة والعناية والضبط ، ومثل هذه الترجمة توحى بالثقة ، ولهذا يفضل منع الترجمة الفردية للقرآن ، لئلا يؤدي تعدد الترجمات إلى ابراز الاتجاهات الشخصية المعبرة عن آراء المترجم •

ولو قامت الحكومات الاسلامية أو الهيئات الرسمية بتكليف لجنة متخصصة لترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية وأخضعت هذه الترجمة الى التدقيق والمراجعة قبل إجازتها وطبعها ، لضماناً ترجمة للقرآن أقرب الى الصواب •

رابعاً - أن تكون الترجمة خاضعة للشروط التي يجب توافرها في التفسير ، من حيث اعتمادها على الروايات المأثورة وإخضاعها لقواعد اللغة العربية ، وموافقتها لروح الاسلام ، وفي جميع هذه الأحوال تبقى الترجمة « ترجمة تفسيرية » للقرآن ، وليست هي القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٢) •••

(١) ينظر كتاب مبادئ الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق نيهان ص ١٥٦ وما بعدها .
(٢) ظهرت ترجمات متعددة للقرآن ، وكلها ترجمات تفسيرية بها نقص أو زيادة ، وليست كاملة منها ترجمة الى الفرنسية عام ١٦٤٧ ، وترجمة الى اللغة الالمانية عام ١٦١٦ والهولندية عام ١٦٤١ ، والروسية ١٧٧٦ والانكليزية ١٧٣٤ والفارسية ١٨٢١ ، والركية ١٩١٣ •
د عن كتاب فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم للاستاذ زكريا هاشم زكريا ص ٢٤٦ ، •

الفصل الثاني

ظاهرة الوحي

ظاهرة الوحي ليست خاصة بالرسول الكريم ﷺ وإنما هي عامة في جميع الأنبياء ، الذين كان يأتيهم الوحي من عند الله بطريقة متقاربة ، وعن طريق الوحي يقوم الملك المكلف بنقل الرسالة من الله إلى الأنبياء ، بتبليغ ما أمر بتبليغه ، قال تعالى :

● إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً • سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٤

تعريف الوحي :

كلمة الوحي في اللغة مأخوذة من الاعلام الخفي السريع ، وقد استعملت في اللغة لمعان متعددة ، كما استعملت في القرآن الكريم لعدة معان أيضاً ، وتفيد هذه الكلمة في اللغة : الإلهام ، والإشارة ، والإيحاء ، والوسوسة والكتابة

وقد استعمل القرآن كلمة الوحي في معانيها اللغوية المتعددة ، فجاءت بمعنى الإلهام ، في قوله تعالى :

● وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون • النحل : ٦٨

وجاءت بمعنى الإشارة والإيحاء في قوله تعالى : (حكاية عن زكريا عليه السلام)

- فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا •

سورة مريم : ١١

وجاءت بمعنى الوسوسة ، في قوله تعالى :

- وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ••• الأنعام ١٢١

أما المعنى الشرعي المراد من كلمة الوحي ، فأحياناً يراد بالوحي ، الموحى به ، وهو القرآن ، كما في قوله تعالى :

- إن هو إلا وحي يوحى ••• سورة النجم : ٤

وأحياناً يراد به الإيحاء إلى النبي الكريم ، وإعلامه بمراد الله ، كما في قوله تعالى :

- وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أم القرى ومن حولها ••• الشورى: ٧ أنواع الوحي :

الوحي ظاهرة عامة في الأنبياء ، وليس له طريقة محددة ، وكيفية معينة ، وإنما له صور متعددة ، يتم عن طريقها الاتصال بين الخالق وأنبيائه الذين اصطفاهم ، وغالباً ما يسبق نزول الوحي على الأنبياء « الرؤيا الصادقة في المنام » وقد وقعت هذه الرؤيا للرسول الكريم قبل مجيء الرسالة إليه ، لتكون مقدمة للرسالة ، ولتتهيئ الرسول الكريم لقبول الوحي الإلهي الذي سيلقى إليه •

روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي ، الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبَّ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ••• حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال : اقرأ (١) •

أما أنواع الوحي فقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى :

(١) صحيح البخاري - باب بدء الوحي •

● وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم • الشورى : ٥١

ومن هنا نستطيع أن نحدد هذه الصور بما يلي :

١ - الإلهام الإلهي : ويتم ذلك عن طريق ما يلقيه الله في قلب نبيّه ، ولعل هذا هو الوارد في حديث رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » •

٢ - التكلم المباشر : من الله إلى رسوله ، بحيث يسمع النبي الكلام ويفهم المراد منه ، وفي ذلك يقول تعالى :

● ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربّه قال : ربّ أرني أنظر إليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ••• الأعراف : ١٤٣

٣ - الوحي عن طريق جبريل : وكانت هذه الصورة هي الصورة التي نزل القرآن بها على الرسول الكريم ، فكان جبريل ينزل بالوحي على رسولنا الكريم ، قال تعالى : (مبيّناً كيفية نزول القرآن) :

● وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين • الشعراء ١٩٢ - ١٩٥

ولعلنا تتساءل الآن عن كيفية نزول الوحي على الرسول الكريم ••••• والجواب على ذلك ليس بالأمر اليسير ، الذي يمكننا الاجتهاد فيه ••• ولذلك تقتصر على ذكر الكيفية والوصف ، الذي جاء على لسان الرسول الكريم ، وهذه الكيفية تبين لنا ، أن الرسول الكريم يرقى بطبيعته البشرية إلى الحالة الروحانية التي يحصل من خلالها التلاؤم بين طبيعة الملقى والملقى إليه ، ولذلك كان يبدو التعب والإرهاق على جسم الرسول الكريم ﷺ حيث يتفصّد جبينه عرقاً (١) •••

(١) ينظر كتاب مبادئ الثقافة الإسلامية - الدكتور محمد فاروق النبهان ص ١٦٢ •

وقد روت السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل الرسول الكريم عن الكيفية التي يأتيه الوحي بها ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

ظاهرة الوحي بين المؤيدين والمنكرين :

ولا يمكننا أن نفصل ظاهرة الوحي عن فكرة الايمان بالله ، وبما جاء من عنده ، لأن هذه الظاهرة ترتبط أصلاً بفكرة الايمان بالخالق ، ثم الايمان بالأنبياء والمرسلين الذين يحصلون الرسالة الى الناس ، ومن هذا المنطلق نشعر أن كل مؤمن بدين سماوي يسلم بظاهرة الوحي ، لأنها ليست خاصة بمحمد ﷺ وإنما هي عامة في الأنبياء جميعاً ، لأنهم جاءوا من مصدر واحد ، ولتحقيق هدف واحد وغاية معينة .

والمؤمن يدرك أن كل ما في الوجود لا يمكن أن يخضع لمعايير العقل والمشاهدة ، لأن الوجود أوسع مدى من حدود العقل ، الذي يتفاوت في مداركه بين فرد وآخر .

والى جانب هذا الفريق المؤمن ، نجد الفريق المنكر الذي ينظر الى الأمور نظرة مادية بحتة ، ويخضع الكون لتفسير ينسجم مع النظرة المادية التي يؤمن بها ، وهذا الفريق ينكر الوحي لا كظاهرة مجردة ، وإنما ينكره انسجماً مع إنكاره لفكرة الخالق أصلاً ، ويعتقد أن فكرة الخالق وما يتصل بها من مباحث تتعلق بالوحي وبالنبوة والغيب ما هي إلا مجرد معتقدات قديمة خضع لها الانسان في العصور البدائية ، ثم اندثرت مع تطور العقل البشري وهذا الافتراض مرفوض من الناحية العقلية ، ومن الناحية الواقعية .
فالناحية العقلية :

تثبت أن فكرة الايمان بالله ، والايمان بالغيب ، ليست مرفوضة ، والذين يتمسكون بالإنكار ، لم يقيموا أي دليل على هذا الإنكار ، بل إن أدلة المؤمنين أقوى من أدلة المنكرين ، والعقل يستطيع أن يقبل فكرة الايمان ، لأنها تفسر له كثيرا من الظواهر الطبيعية ، التي لا يجد الوسيلة المقنعة لتفسيرها التفسير المقبول ، والعقل البشري قد قبل فكرة الايمان وفكرة الغيب وظاهرة الوحي على أنها وسيلة الاتصال بين الخالق والأنبياء ، ولم يجد صعوبة في قبول هذه المعتقدات التي تنسجم مع غريزته وفطرته ، ولكنه يجد صعوبة كبيرة في رفض هذه المعتقدات ، لأن أدلة المنكرين لم ترق الى الدرجة المقنعة ، ولم تتمكن من إقامة الدليل المنطقي على الإنكار ، وإذا كان المنكرون لم يستطيعوا إقامة أي دليل مقبول على دعوتهم ، فإن الأنبياء قد أقاموا الأدلة العقلية والبراهين المقنعة على صدق رسالتهم ، فكان لكل منهم معجزات خارقة تحدوا بها أممهم ومن أرسلوا إليهم •

أما الناحية الواقعية :

فانها تثبت بطلان النظرية المادية المنكرة والمشككة ، فالعلماء والفلاسفة الغربيون الذين ظهروا بعد منتصف القرن التاسع عشر ، قد أثبتوا بالأدلة القاطعة والقرائن الثابتة وجود « عالم الأرواح » وقد توصلوا الى هذه النتيجة بعد دراسة علمية استمرت أكثر من ثلاثين سنة ، عملوا خلالها تجارب على الانسان وأثبتوا شخصية ثابتة له يدرك من خلالها كثيرا من المدركات ، التي لا يستطيع إدراكها بشخصيته العادية ولا تظهر الشخصية الروحية للانسان إلا عندما تتعطل الشخصية العادية له ، أثناء النوم العادي أو النوم المغناطيسي ، ولاحظوا أن الانسان كثيرا ما يقوم بكثير من النشاطات غير العادية أثناء نومه ، من هذه النشاطات ما ذكره أحد الشعراء الغربيين عن نفسه ، أنه كان ينام وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، فيستيقظ فيجدها تامة في اليوم التالي عندما يفكر فيها

وذكر غيره مسائل أخرى ، تتعلق بنشاط القوى الكامنة في الانسان والتي

لا مجال لإنكارها أمام الوقائع الثابتة (١) .

ومما ذكرناه سابقاً يتبين لنا أن ظاهرة الوحي طبيعية وممكنة ، وهي ترتبط بفكرة الايمان بالله وبما جاء من عنده ، وان المنكرين لهذه الظاهرة لم يستطيعوا إقامة الدليل على الإنكار ، وبخاصة أمام القرائن القوية الثابتة التي تؤكد وجود الروح والعالم الغيبي الذي أشارت اليه تعاليم السماء .



(١) ينظر الثقافة الإسلامية لمجموعة من أساتذة جامعة الكويت - نقلاً عن الاستاذ محمد فريد وجدي في دائرة المعارف الإسلامية ، ضمن كلمة « وحي » وقد ذكر الاستاذ وحدي أن عالم النفس البريطاني - ميرس - المتوفى عام ١٩٠١ أثبت في كتابه « الشخصية الانسانية » فكرة الوحي ، والشخصية الباطنية أنا اؤكد اذن وجود روح في الانسان تستمد قوتها وجمالها من عالم روحاني .

الفصل الثالث

السنة

ومكانتها في التشريع

معنى السنة :

كثيرا ما نستعمل في لغة الكلام « الكتاب والسنة » ويراد بالكتاب القرآن ، ويراد بالسنة حديث رسول الله ﷺ أو ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ***

والسنة في الأساس تطلق على الطريقة ، ومنها قوله ﷺ :

- من سنّ في الاسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده (١) .
- ثم أطلقت على الطريقة التي سار عليها الرسول الكريم ، ومنها قوله ﷺ :
- « عليكم بسنتي » وسميت المدينة المنورة بدار السنة ، نظراً لأن الرسول الكريم قد عاش فيها ، وتأثر أهل المدينة بطريقة الرسول الكريم في حياته وسلوكه .
- وبالرغم من أن السنة والحديث يأتیان بمعنى واحد في أغلب الأحيان، إلا أننا نلاحظ أن العلماء الأقدمين ، يربطون بين « حديث وخبر » لأن كلمة حديث تفيد الاخبار باللفظ ، وبالتالي فإن كلمة السنة أعمّ من كلمة الحديث ، وبعضهم يجعل كلمة الحديث مقابلة لكلمة القرآن . فالقرآن « قديم » وكلام الرسول الكريم

(١) صحيح الامام مسلم .

« حديث » ويلاحظون فكرة الجدّة التي تقابل القدم • أما الحديث القدسي — فهو الحديث الذي يضيفه الرسول الكريم الى الله تعالى ، ويحكيه عنه ، والفرق بين الحديث القدسي ، والحديث النبوي ، أن الحديث النبوي منسوب الى الرسول الكريم ، أما الحديث القدسي فمنسوب الى الله ، ويحكيه الرسول عن ربّه •

ومثال الحديث القدسي : ما أخرجه الامام مسلم عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا (١) •••

مكانة السنة في التشريع :

إذا كان القرآن يمثل المصدر الأول للتشريع الاسلامي ، فإن السنة تمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع ، وتأتي مرتبة السنة في الدرجة الثانية بعد القرآن ، لأن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر بخلاف السنة فهي من كلام الرسول الكريم ، ولم تنقل جميعها عن طريق التواتر ، ولذلك لا يمكن القطع بما لم يثبت تواتره ، كما لا يتعبد بالسنة ، كما يتعبد بالقرآن •

وتأتي السنة مبيّنة وموضحة ومؤكدة لما ورد في القرآن ، لقوله تعالى :

● وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون • النحل: ٤٤
ولهذا فيجب العمل بالسنة نظراً لارتباطها الوثيق بالقرآن ، وقد جاء القرآن مبيّناً وجوب طاعة الرسول الكريم ، قال تعالى :

● يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر •••
النساء : ٥٩

تاريخ السنة

تأتي مرتبة السنة بعد مرتبة القرآن مباشرة ، ولهذا حظيت السنّة بعناية

(١) رياض الصالحين — للنووي ص ٧٣ •

الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من العلماء الذين تخصصوا في علم الحديث •
ولو تابعنا الجهود العظيمة التي بذلها العلماء في طلب الحديث ، ولو درسنا المنهج
العلمي الدقيق الذي وضعوه لضبط صحة الحديث ، لأدركنا مقدار العناية الفائقة
التي بذلت لخدمة حديث رسول الله ﷺ •

كيفية تلقي السنة عن الرسول ﷺ :

كان الصحابة رضوان الله عليهم يلازمون الرسول الكريم ، يحفظون منه
القرآن الذي كان يتنزل عليه ، ويتابعون كلامه الذي كان يفسر ويبين معاني
القرآن ، والأحكام التي اشتمل عليها القرآن • وكثيرا ما كانوا يتابعون حادثة
من الجوادث التي كانت تقع للرسول أو للمسلمين ، فينتظرون الوحي من الله ،
أو ما يصدر عن الرسول من بيان وتعليم وتوضيح ، فكانوا يحفظون كل
ما يسمعون منه ، وينشرونه بينهم ، حتى أصبحت سنة الرسول محفوظة في
الصدور ، وفي الوقت الذي كان كتبة الوحي يكتبون فيه ما ينزل على الرسول من
القرآن ، كان الرسول الكريم ينهى صحابته عن كتابة الحديث خشية أن يختلط
بالقرآن ، ويؤكد هذا المعنى ، أن النبي الكريم الذي كان قد نهى عن كتابة
الحديث ، قد سمح لبعض الصحابة بكتابته ، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بكتابة
الحديث « عبد الله بن عمرو بن العاص » ومن هنا نستنتج أن النهي لم يكن عاماً
شاملاً ، وإنما كان لغاية معينة ، فاذا انتفى المحذور ، فإن كتابة الحديث
ليست ممنوعة •

وبالرغم من هذا فقد ظل الصحابة يرهبون من كتابة الحديث ، لورود النهي
عن ذلك ، وربما كان البعض منهم يخشى أن ينصرف الناس عن كتاب الله الى
سنة رسول الله ، إلا أن هذا النهي لم يكن مانعاً من انتشار الحديث وحفظه في
الصدور ، فقد اشتهر عدد من الصحابة بحفظ الحديث وروايته •

التدوين الرسمي للحديث :

إذا كان التدوين الرسمي للحديث قد تأخر الى بداية القرن الثاني ، فإن من

المؤكد أن التدوين الفردي قد انتشر قبل ذلك بفترة طويلة ، وإذا كان بعض الورعين من العلماء ، يتورع منه لعموم النهي ، فإن البعض الآخر الذي أدرك أن النهي ليس مقصوداً لذاته ، قد سمح لنفسه بتدوين ما توفر له من أحاديث •

ففي عهد الخليفة الأموي « عمر بن عبد العزيز » أمر هذا الخليفة عماله على الأمصار أن يقوموا بجمع الحديث وتدوينه ، وقد ابتداءً ذلك بكتاب أرسله الخليفة الى عامله على المدينة ، وقال فيه : انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه فاني خفت دروس العلم وذهاب أهله • وهناك رواية أخرى تشير الى أن أمير مصر - عبد العزيز بن مروان والد الخليفة ، والمتوفى عام ٨٥ هـ قد بدأ بتدوين الحديث (١) •

ومهما يكن من أمر فإن بداية التدوين الرسمي ، قد فتحت مرحلة جديدة في تاريخ السنة ، حيث بدأ العلماء في كل مصر من الأمصار يبحثون عن الحديث في كل مكان ، ويطوفون في الأمصار النائية والقرية ، باحثين عن حفظة الحديث ورواته ، ينقلون عنهم ، ويدونون في صحفهم ما يسمعون •

وقد اعتمد علماء الحديث على منهج معين ، يتيح لهم دراسة أحوال الرواة ، ومدى الثقة بروايتهم ويقوم هذا المنهج على المبادئ التالية : (٢)

أولاً : النزاهة في الحكم :

ويعبر هذا المبدأ عن منهج الانصاف الذي التزم به علماء الحديث ، من حيث النظرة الموضوعية للراوي ، من غير أن يسمحوا لعواطف الحب والكراهة أن تؤثر في حكمهم ، وكثيراً ما كان الواحد منهم يرفض رواية صديق له أو قريب لعدم توفر الشروط المطلوبة في الراوي •

ثانياً : الدقة في البحث :

وهذا المبدأ يرتبط بالمبدأ الأول ، إذ لا يجوز للمحدث أن يحكم على راوٍ

(١) ينظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ١٧٦ •

(٢) ينظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ٢٦٦ •

معين بالتعديل أو التجريح أو بقبول روايته أو رفضها ، قبل أن تتوفر له سائر القرائن والأدلة ، التي تؤكد له صدق حكمه ، ودقة نظره ولهذا نجد كثيراً من المحدثين عندما يطعنون في ثقة أحد الرواة ، فانما يبينون سبب الطعن ، لئلا يكون حكمهم مبنياً على وهم ، فيؤدي ذلك الى ظلم الراوي وضياع الحديث .

ثالثاً : التزام الأدب في الحكم :

وهذا المبدأ يرتبط بالأدب الاسلامي الذي يجب على كل مسلم أن يتقيد به ويحرص عليه ، وإذا كان النظر في حياة الرواة وسلوكهم ضرورة لصيانة الحديث ، فان من واجب المحدث أن يلتزم الأدب في بيان رأيه في الراوي ، دون أن يذكر ما يسيء إليه ، أو يقدح في أخلاقه ، ولهذا كثيراً ما يكتفي المحدث ، عندما يرى في سلوك الراوي أو في ضبطه ما يمنعه من الأخذ بروايته بالقول « فلان ليس بثقة » ما لم يجد رايأ عرف بوضع الحديث والكذب فيه ، فحينئذ يحرص على وصفه بالوضع أو الكذب ، ليتورع الآخرون من قبول رواياته . وقبل أن يحكم المحدث على الراوي بالجرح أو التعديل ، فيأخذ بروايته في حال التعديل ، ويرفضها في حال التجريح ، كان يجري دراسة شاملة عنه ، فيسأل عن أقرانه ، ومن عرف بينهم ، ويشترط في المعدل والجرح أن يكون عدلاً ، ومن الطبيعي أن يرفض المحدث رواية أهل البدع ، ومن اشتهر بالفسق ، لأن هؤلاء غير مؤتمنين على ما ينقلونه من رواية ، خشية التهاون في النقل بالنسبة للفاسق ، أو الانتصار لبدعة معينة بالنسبة لأصحاب البدع والأهواء (١) .

وهكذا يتبين لنا بكل جلاء ، الجهد الجبار والعمل الدؤوب ، الذي بذله المحدثون ، وهو جهد قدمه هؤلاء العلماء ، في سبيل أنبل وأعظم هدف ، وهو

(١) هناك كتب عديدة وكثيرة في كل جانب من جوانب علوم الحديث ، فهناك كتب خاصة بالرواية منها : كتب الطبقات ، كطبقات ابن سعد - المتوفى عام ٢٣٠ هـ ، ومنها كتب تراجم الرواة « رواية الحديث » وأهمها : تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ، المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، ومنها كتب خاصة بالجرح والتعديل وأهمها :

ميزان الاعتدال للإمام الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ وكتاب ، لسان الميزان للحافظ بن حجر العسقلاني .

تنقية حديث رسول الله، ليعود صافياً نقيّاً ، لا تخلطه شوائب الروايات المكذوبة.

الرواية والدراية (١) :

يقصد بالرواية نقل الحديث ، والاحاطة بطرق أسانيده ، وضبط ألفاظها في السند والمتن ، وتحقيق الأسماء وكل ما يتصل بالنقل الصحيح المضبوط في شقيه السند والمتن ، دون البحث في أحوال كل منهما .

ليس يطلب من العالم بالرواية الحكم على مرتبة الحديث بالصحة والضعف وغير ذلك ، لأن أمر هذا من اختصاص عالم الدراية .

عالم الرواية ينقل أحاديث النبي ﷺ نقلاً محرراً بدقة وأمانة كما سمعها ، إنه كآلة التسجيل التي تعيد ما سجلت ، دون أن يكون لديها القدرة المستقلة على زيادة عبارة ، وحذف أخرى .

أما الدراية فهي تمحيص وتمييز ، ونقد وبحث في عوامل الحكم على السند بالصحة أو الضعف ، وفي فهم المتن فهماً علمياً .

وعلم الدراية يقوم على فحص الرواية ، وشروطها وأنواعها ، وأحكامها ، وحال الرواة وقيمة الحديث ، ودرجته من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف ، كما يقوم على البحث في فقه النص وما يستدل به وما يقدم من نتائج . وإذا أردنا تشبيهاً يقرب الرواية والدراية ، مثلنا ذلك بالرسالة المسجلة ، فساعي البريد يحملها ويحافظ عليها ، ويوصلها سالمة صحيحة ، دون أن يكلف بفهم مضمونها ، والبحث في محتواها ، ومدى قيمتها وهذا ما يشبه حال الراوي ، أما الذي يتسلم الرسالة ، فهو ينظر أولاً في غلافها ، وتاريخ صدورها وورودها ، ثم يفضها ، ويقرأ محتواها ، ويبحث مضمونها ، وهو الذي يقدر على الافادة مما فيها ، والحكم عليها ، وهذا ما يشبه (الداري) رجل الدراية .

وفي تاريخ الحديث وجد رجال حذقوا الدراية وحدها ، كما وجد فريق

(١) أدب الحديث النبوي للدكتور بكري الشيخ أمين .

آخر حذقوا الرواية وحدها ، ووجد فريق ثالث برّز في الرواية والدراية كالامام مالك والشافعي •

مصطلح الحديث

لقد تمخضت الرواية والدراية عن علم جديد ، دعاه المسلمون « مصطلح الحديث » أو علم أصول الأحاديث ، وهو أنفس ما أوجدته الثقافة الاسلامية من علوم ومبتكرات •

ان مصطلح الحديث أدق ميزان علمي ، عقلي ، لتحخيص الأخبار والروايات ، وتمييز زائفها من صحيحها ، فقد أحكمت فيه قواعد هذا التمهيص والنقد ، كما قسمت فيه أنواع الروايات ومزاياها وغللها ، تقسيماً بديعاً مستوعباً ، ووضعت لها أسماء اصطلاحية ، تدل على كل نوع من الروايات والأحاديث • بما فيه من هذه المزايا أو العلل ، بحيث يعرف تفصيل مدلولها بمجرد ذكرها لدى علماء الحديث ، دون حاجة إلى شرح ، كالصحيح والضعيف والسند ، والمتصل ، والمرفوع ، والمنقطع ، والمقلوب ، والمعضل والمعلق ، والمدلس والشاذ ، والغريب وغير ذلك •

فكل اسم من هذه الأسماء وغيرها إذا وصف به حديث بعد التمهيص ، يدل على ناحية من أحوال الحديث لها أثر في تعيين مرتبته ، في مراتب الصحة أو الضعف ، أو القبول أو الرفض •

وعلم المصطلح هذا يستفاد منه الى أبعد حد ، في طريقة التحقيق التاريخي ، فأصبح رجال العصر يفكرون باقتباس طريقته المحكمة ، واستخدامها في تمهيص الروايات التاريخية ، فهي الطريقة التي استطاع علماء الاسلام بها أن ينخلوا الأحاديث المختلطة نخلًا ، ويميزوا صحيحها من غيره •

وقد وضع الاستاذ — أسد رستم — أستاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الأمريكية ببيروت سابقاً ، كتاباً ، في أصول البحث والتحقيق التاريخي ، وسماه

« مصطلح التاريخ » أسوة بمصطلح الحديث (١) •

ولقد تحدث هذا المؤلف عن جهد علماء الحديث ، في تحرّي الصحيح من الأحاديث وزيفها ، وعن الطرق العلمية الفنيّة التي كانوا يتبعونها ، إلى أن قال :
والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ ، في أوروبا وأمريكة أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها ، وذلك على الرغم من مرور القرون الكثيرة عليها ، فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج ، يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الفرنجة ، في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبلاد الانكليز... وقال : لو أن مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى والعصور الحديثة، اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين، لما تأخروا في تأسيس علم «الميثودولوجية» مصطلح التاريخ حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وبإمكاننا أن نصارع زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم ، بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل ، نشأ وترعرع في بلادنا (٢) •

إن من يطلع على مصطلح الحديث، والمقاييس التي اصطنعها علماء الحديث، والموازن التي نصبوها لوزن الرواة وتقويمهم وقياس عدالتهم يعجب أشد العجب من الشدة التي أخذوا بها ، والحيطة التي احتاطوا بها من أجل صون حديث رسول الله ، وتنقيته من الشوائب ، وكان يحذوهم قول ابن سيرين رضي الله عنه : « إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » •

هذه الدقة المتناهية في تحرير السنة النبوية ، وتمحيصها ، وتنقيحها ، وتنقيتها من الشوائب ، والضعيف والدخيل ، دفعت العلماء إلى استنباط المقاييس ، وكان في هذا الاستنباط وجود عدد من العلوم الخاصة بالخدمة لهذا الغرض •

(١) طبع في المطبعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٣٩ •

(٢) مصطلح التاريخ ص (و - ز) المقدمة •

أثر الاسلام في الأمة العربية

لعب الاسلام دوراً هاماً في حياة الأمة العربية ، بل لا تتعدى الصواب اذا قلنا بأن الاسلام صاغ الأمة العربية صياغة جديدة ، فغير كثير من مفاهيمها وطبائعها ومثلها وقيمها ، وعاداتها وتطلعاتها ، فاذا بالأمة العربية تتفجر طاقاتها التي كانت الصحراء المحرقة تمتصها ، وتتوجه نحو هدف عظيم ، وغاية نبيلة ، وقبل أن يرتد الطرف الى الشعوب المجاورة للجزيرة العربية التي فوجئت بالتغير السريع الذي تم داخل الجزيرة العربية ، انطلقت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بها تخترق الحدود المقفلة في وجهها ، وتحطم الحواجز التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم ، وقبل أن تصحو هذه الدول من هول المفاجأة ، إذا بالرايات التي تعودت ألا تنتكس أبداً تهوي سريعة مخضبة بالدماء ، ليدوس عليها أولئك الذين حملوا لواء الاسلام ، شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى والأنهار ، يعرضون مبادئهم التي دفعتهم الى هذا الانطلاق ، وهي مبادئ إنسانية تستهوي القلوب والنفوس ، فاذا بتلك الشعوب تتجاوب مع هذه الصيحات ، وترفع صوتها مؤيدة ، ومؤكدة ، ومناصرة ، تؤيد الحق وتنصره ، وتؤكد وقوفها إلى جانبه ، وارتفعت رايات جديدة فوق ربوع الشام والعراق ، تؤكد ايمانها بمبادئ الحق والخير . وانضمت مسيرة الى مسيرة لتواصل السير تحت راية دعوة الاسلام .

لا شك أن الاسلام قد صاغ هذه الأمة صياغة جديدة ، إذ أخرجها من حياة العزلة الفكرية ، حيث كانت الصحراء بشمسها المحرقة ، ومياهها القاحلة ، وصحاريها المتسعة تفرض عليهم الحياة ضمن هذا الاطار من التفكير الذي يقتصر على العشيرة والقبيلة ، وما يرتبط بها من صفات ، يعبرون عنها من خلال شعرهم فيمدحون ويفأخرون .

وكان المؤثر الأول لهذه الأمة هو القرآن الكريم ، الذي كان الرسول الأمين ﷺ يتلوه عليهم صباح مساء ، فيفتح عيونهم وآذانهم وقلوبهم ، على ما لم يسمعوا به من قبل من « عقيدة » تتلاءم مع طبيعة الفطرة ، يقودهم القرآن اليها بالحجة والبرهان ، والنظر والوجدان • و « تشريع » محكم الجوانب ، مسدد الخطى ، يتناول جميع جوانب الحياة العملية •

واستطاعت التعاليم الاسلامية أن تغير كثيرا من طبائع الشعب العربي وقبسه ومثله ، وقد بذل الرسول الكريم ﷺ جهداً دؤوباً خلال سنوات طوال ، لتغيير العقلية العربية ، التي كانت سائدة خلال العصر الجاهلي ، ليحل محلها النظرة الاسلامية الواعية ، المتفتحة في مجال العقيدة والسلوك . فبعد أن كان العرب يعبدون الأوثان والأصنام . إذا بهم ينتقلون إلى عبادة الله ، وبعد أن كانوا يخضعون الى كثير من العادات السيئة في حياتهم ، إذ بالاسلام يبطل كثيرا من هذه العادات ، ويخضعهم جميعاً لعلاقات إنسانية عادلة ، في ظلال الايمان الصادق والوعي الاسلامي الصحيح •



الفصل الرابع

الحركة العلمية في صدر الإسلام

من أهم الملاحظات التي يلاحظها العلماء عند بحثهم لتاريخ العرب في صدر الاسلام ، الحركة العلمية التي بدأت تنتشر في ربوع الجزيرة العربية ، ثم تنمو رويداً رويداً ، لتنتشر في الأمصار المختلفة •

ومن المعروف لدينا أن الأمية كانت منتشرة في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وكان عدد القراء والكتاب محدوداً ، حتى يقال بأن عدد الكتاب من قريش لا يتجاوز سبعة عشر كاتباً ، وبالتالي فإن عددهم في غير قريش أقل •

وقد شجع الرسول الكريم ﷺ الناس على العلم ، وحثهم عليه ، فكان المسلمون يجتمعون في المسجد يتعلمون القرآن ويتدارسون أحكامه ، وحكمه ، وما اشتملت عليه من تعاليم ، سواء منها ما تعلق بقصص الأنبياء السابقين والأمم السابقة ، أو مسائل العقيدة ، أو أحكام تشريعية ، وهذه الظاهرة كانت تمثل البداية الأولى لنشأة الحركة العلمية ، ثم نمت هذه الحركة ، بعد وفاة الرسول الكريم ، وذلك عندما اضطر الصحابة للاجتهاد والقضاء في كثير من المسائل التي جدت على المجتمع الاسلامي ، فكانوا يناقشون ويتناظرون ، وكل يدلي بحجته ودليله ، حتى وجدنا الحركة العلمية تزدهر يوماً بعد يوم ، وتتسع جوانبها وتزايد آثارها ، ويقبل الناس عليها جماعات ووحداً ، ينهلون من معين المعرفة ما أمكنهم ذلك ، حتى المساجد أصبحت دوراً للعلم ، يتحلق الناس حول العلماء ، يستمعون إليهم ويناقشونهم ويأخذون عنهم ، وسرعان ما أنشئت المدارس العلمية

في معظم الأمصار الإسلامية ، وأقبل الناس عليها يتعلمون العلوم المختلفة ، سواء كانت علوماً دينية أو لغوية أو فلسفية أو غير ذلك •

مظاهر الحركة العلمية في صدر الاسلام :

لقد بدأت مظاهر الحركة العلمية منذ عصر الرسول الكريم ﷺ حيث كان يدعو الناس الى العلم ، ويحثهم عليه ، ثم وجد المسلمون أن العلم هو الطريق الذي لا بد منه لفهم كتاب الله ، ورواية حديث رسول الله ، فانطلقوا الى العلم يتعلمون مبادئه ، ثم يتوسعون شيئاً فشيئاً ، ولما تطور المجتمع الاسلامي ، بعد الفتوحات الكبيرة ، شعر الناس أن العلم ضروري لهم ، لذلك اشتدت رغبتهم في الاستزادة منه •

وكان الطفل الصغير يذهب الى المعلم الذي يقوم بتعليمه وتأديبه وتوجيهه ، وكان هؤلاء المعلمون يجلسون في زوايا المسجد أو في مكاتب ملحقة بالمساجد ، فيأتي إليهم الأولاد ليتعلموا منهم القرآن والسنة والفقه ، والأدب واللغة (١) •

ثم نشأت « الكتاتيب » المستقلة عن المساجد بعد ذلك ، وكان « الكتّاب » يحتوي على عدد كبير جداً من الصبيان ، وكان محور الدراسة في هذه الكتاتيب ، هو الدراسة الدينية المستمدة من القرآن •

وبالإضافة الى الكتّاب العام ، الذي يستطيع أي صبي أن يتعلم منه ، فقد كان هناك تعليم خاص بأبناء الخلفاء والوزراء ، ويتم هذا التعليم داخل القصور ، وكان يطلق على المعلم الذي يعلم أبناء الخلفاء « المؤدب » وقد اشتق هذا الاسم من الأدب والخلق ، لأن مهمة المؤدب أن يعلم هؤلاء الصبيان الأدب والخلق •

ولم تقتصر الحركة العلمية على المساجد والكتاتيب ، وانما نجدها أيضاً

(١) ينظر دراسات في الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي • نشر مكتبة النهضة المصرية

في الأسواق عند « حوانيت الورّاقين » حيث يؤمها العلماء والأدباء ، لشراء ما يحتاجون إليه من كتب ، فاذا بها تنتقل إلى مسرح ثقافي وعلمي ، تعقد فيها الندوات العلمية ، وتناقش فيها القضايا الفكرية وقد ظهرت هذه الدكاكين وانتشرت منذ بداية العصر العباسي ، وكثيراً ما كان أصحاب هذه الدكاكين ، من كبار العلماء والأدباء كابن النديم — صاحب الفهرست ، وياقوت — صاحب معجم الأدباء ، ومعجم البلدان — .

وقد امتدت الحركة العلمية الى منازل العلماء ، حيث كان بعض العلماء يخصص في بيته مكاناً للمجالس العلمية التي يرتادها أهل العلم ، وغالباً ما تكون المجالس العلمية التي تعقد في المنازل خاصة بطبقة من الناس ، يتناقشون في المسائل العلمية الدقيقة ، ويتناظرون في الأدلة والحجج ، وقد اشتهرت بعض المنازل بحلقاتها العلمية ، كمنزلة ابن سينا ، الذي كان الطلاب يجتمعون فيه ، ويقرؤون فيه كتاب الشفاء ، ومنزلة الامام الغزالي ، الذي كان يعقد في منزله حلقة علمية لطلابه بعد أن ترك التدريس في المدرسة النظامية .

وإلى جانب هذا فقد كان هناك « مجالس الخلفاء » وإذا كانت هذه المجالس قد بدأت بصورة طبيعية في عصر الخلفاء الراشدين ، حيث كان الخلفاء يعقدون مجالسهم العلمية في المساجد العامة ، يلتقون فيها مع الصحابة ، ويتناقشون حول المسائل التي كانت تعرض للخليفة ، فيستشير الصحابة فيها ، فان مجالس الخلفاء في العصر الأموي والعصر العباسي قد أصبحت ذات طابع خاص يتناسب مع طبيعة الدولة ومركز الخلافة ، فلا يدخل هذه المجالس الا طبقة معينة من العلماء ممن يرتاح إليهم الخليفة ، وكانت هذه المجالس تخضع لنوع من الآداب والتقاليد والأنظمة ، وعلى كل من يسعده حظه في المشاركة فيها أن يخضع لهذه الآداب والتقاليد ، من حيث الملابس والحديث ، وطريقة مخاطبة الخليفة ، وطريقة الجلوس والقيام .

ويروي المؤرخون كثيراً من الروايات عن مجالس الخلفاء ، ويصفون فيها

آداب هذه المجالس وتقاليدها ، ومن الطبيعي أن تختلف هذه الآداب والتقاليد بحسب الخليفة ، وكثيراً ما كانت هذه المجالس تشتمل على النوادر والفكاهات ، وقد أصبحت هذه المجالس في العصر العباسي ذات مظاهر كبيرة ، من حيث الأثاث الفاخر والرفاهية الكبيرة ، ولم تكن هذه المجالس قاصرة على الموضوعات الدينية وإنما كانت تتناول ألواناً مختلفة من الثقافة والمعرفة ، كالشعر والأدب والفلسفة والفن والعلوم ، وكان بعض الخلفاء يشتركون في المناظرات ، ويساهمون فيها ، وممن اشتهر بذلك الخليفة « المأمون » الذي كان مجلسه يغص بعدد كبير من العلماء والفقهاء والفلاسفة والأدباء ، الذين كانوا ينعمون بإكرام الخليفة لهم ، وإنعامه عليهم .

وكان لهذه المجالس دور عظيم في تشجيع الحركة العلمية وازدهارها ، لأن إشراف الخليفة المباشر على الحركة العلمية في جميع مجالاتها ، قد أعطاها أهمية كبيرة ، ولهذا انطلق الناس في التعمق والبحث والمناقشة والمناظرة معتمدين في ذلك على تشجيع الدولة للعلم والعلماء .

والى جانب هذا فقد بقيت المساجد المكان الأساسي الذي كانت شعلة العلم تشع فيه ، وتنطلق بعد ذلك في اتجاهات مختلفة ، وإذا كنا نريد أن نتحدث عن الحركة العلمية في الإسلام ، فإن هذه الحركة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمساجد . فالمسجد هو الصورة الأولى للجامعة المتخصصة بالبحث والدراسة العميقة ، ولم تكن مهمة المساجد خلال التاريخ الإسلامي قاصرة على العبادة ، بل كانت تمثل حركة الإشعاع الفكري والثقافي ، التي كانت تنطلق بعد ذلك الى المجتمع فتوجهه الوجهة الصحيحة . وفي الوقت الذي ابتعدت المساجد عن دورها العلمي والثقافي ، انزلت عن المجتمع ، وأصبح الناس يؤمنونها في أوقات محدودة ، ولا شك أن عودة هذه المساجد الى دورها العلمي والثقافي ضروري في هذا العصر الذي نعيش فيه . والتاريخ يحدثنا عن مساجد إسلامية لعبت دوراً علمياً كبيراً في عصرها ، وكانت تقوم بما تقوم به الجامعات اليوم من دراسة علمية منتظمة ،

تعتقد فيها حلقات العلم في كل زاوية من زواياها ، ويؤمها طلاب المعرفة من كل مكان ، يعيشون ضمن جدرانها ، حيث الحياة العلمية الدائبة ، التي كانت تمتد عالمنا الاسلامي بالفكر الخلاق ، وتنير جنباته بنور المعرفة .

نشأة المدارس العلمية

لم تظهر المدارس العلمية في وقت مبكر ، نظراً لأن المساجد كانت تقوم بالدور الذي أصبحت المدارس تقوم به بعد ذلك ، لأن اتساع الحلقات العلمية داخل المساجد ، وكثرة المناقشات والمناظرات التي كانت تدور داخل المسجد . قد أبعدت هذه المساجد عن مهمتها الأساسية ، وهي العبادة ، ولهذا نجد أن بعض المساجد قد أصبحت تتخذ طابع المدرسة ، من حيث بناؤها وتنظيمها . وتوفير الغرف فيها للطلاب والأساتذة ، وهكذا اشتركت المساجد والمدارس في أداء رسالة العلم والمعرفة ، وأصبحنا نجد بعض المساجد قد عرفت باسم « المدارس » نظراً للنشاط العلمي المنظم الذي كان يدور داخلها ، ولا نزال اليوم نجد في كثير من المدن آثار هذه « المدارس العلمية » التي تتميز عن المساجد بطريقة بنائها والغرف المتعددة التي تشتمل عليها ، والتي كان يسكنها الطلاب .

ومن أشهر المدارس التي عرفت خلال التاريخ الاسلامي « المدارس النظامية » التي بناها نظام الملك في بغداد ، وبيت الحكمة التي بناها الخليفة المأمون في بغداد . والمدرسة النورية الكبرى ، التي بناها نور الدين الزنكي في دمشق ، وهناك مدارس أخرى كثيرة في القاهرة ودمشق وبيت المقدس وبغداد ، وبلاد المغرب ، وقد لعبت هذه المدارس دوراً كبيراً في تنمية الحركة العلمية ، وتشجيع النهضة الفكرية ، وإثراء تراثنا الثقافي في جميع جوانبه الدينية والأدبية والفلسفية والعلمية ، فالتاريخ الاسلامي يشير دائماً الى الدور الذي لعبته المدارس النظامية التي أنشأها « نظام الملك » في إثراء الحركة العلمية والثقافية في العالم الاسلامي خلال القرن الخامس الهجري ، وأهمها المدرسة النظامية في بغداد ، وقد اتخذت

هذه المدارس الصفة الرسمية ، وتخير مؤسسها لها خير الأساتذة والمدرسين ليقوموا بالتدريس فيها ، وفرض لهم رواتب مجزية يستطيعون فيها العيش بطريقة كريمة ، الا أن هذه المدارس قد اندثرت وزالت آثارها بسبب الحروب التي قامت في العالم الاسلامي ، والتي قضت على معظم المؤسسات الثقافية والكتب العلمية التي كانت تمثل الجهد العظيم الذي بذله أولئك العلماء ، الذين بنوا بجهدهم تاريخاً مشرقاً بالفضائل الخلقية والمنجزات الحضارية .

وكانت هذه المؤسسات تموّل من أموال الأوقاف ، فكلما أنشئت مدرسة علمية كان مؤسسها يوقف عليها أوقافاً واسعة ، تدرّ على هذه المؤسسات الريع الكبير الذي يضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها .

ولو رجعنا الى كتب التاريخ المتخصصة لوجدنا أن الريع الذي كانت تدرّهُ الأوقاف على المؤسسات الثقافية ، كان كافياً للانفاق منه على الأساتذة والطلاب ، وتوفير كل ما يحتاجون اليه من كساء وطعام ، وكان معظم المدارس يشتمل على غرف مخصصة لحياة الأساتذة والطلاب يعيشون فيها ، ويقدم لهم الطعام والكساء والكتب ، وجميع حاجاتهم الأخرى .

ولم تكن هناك شهادات مصدقة كما هو معروف الآن ، وانما كان الطلاب يدرسون كتباً معينة على أساتذة متخصصين ، فاذا استطاع الطالب دراسة كتاب من الكتب على أحد شيوخه ، واستوعبه وتعمق في فهمه ، فعندئذ يكتب له شيخه في آخر الكتاب ما يشير الى إتمام الطالب دراسة الكتاب المذكور ، عليه (أي على الأستاذ) ويجيز له تدريسه لغيره من الطلاب ، وكانت الاجازات التي يحصل عليها الطالب من أساتذته تعني (الشهادة - وما يشير الى المؤهل العلمي في عصرنا الحاضر) .

وقد تحدث العلماء عن آداب المدرس والطالب ، وواجباتهما والصفات التي يجب أن تتوفر في كل منهما ، ومن أول واجبات المدرس أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها ، ليكون تعليمه للناس بسيرته أبلغ من تعليمهم بلسانه ، ويجب على

المعلم أن يشفق على طلابه ، وأن يجعلهم في منزلة كأبنائه ، وأن ينصحهم النصح الصادق ، وأن يوجههم التوجيه القويم ، وأن يهتم بأخلاقهم كما يهتم بعقولهم ، وأن يربي فيهم ملكة الاجتهاد والنظر والمناقشة والبحث ، لئلا يقتصر علمه على الحفظ والترديد والتكرار . ونلاحظ ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن العلم كان ميسراً لجميع طالبيه ، دون تفريق بين طالب وطالب ، بسبب مكانة اجتماعية ، أو غنى مادي ، بل اننا نلاحظ أن التفاوت بين الطلاب كان يقوم على أساس الجهد الذي يبذله الطالب ، وكانت المدارس العلمية تيسر لطلابها الفقراء أسباب الدراسة والتحصيل لتتيح لهم فرصة التعليم والتعمق والتخصص ، فبالإضافة الى الدراسة المجانية التي لا يدفع الطالب لقاءها أي أجر ، فإن الطالب الفقير كان يتقاضى مرتباً دائماً يمكنه من الاستعانة به للانفاق على نفسه .

دور المكتبات في نشر الثقافة

قامت المكتبات العلمية بدور فعال في نشر العلم والثقافة ، ولا يقل دور المكتبات عن دور المساجد والمدارس في النهضة العلمية ، لأن الكتب في ذلك الحين لم تكن ميسرة كما هي ميسرة الآن في عصر الطباعة ، ولهذا كان المهتمون بالعلم والمعرفة يذهبون الى المكتبات العلمية حيث تتوافر الكتب والمراجع ، فيقرؤون ويدرسون ، ويطلعون على آراء الأقدمين من العلماء ، عن طريق كتبهم وآثارهم . ويحق لنا أن نطلق على المكتبات « المعاهد العلمية » لأن الدور الذي كانت المكتبات تقوم به ، لا يقل عن دور المعاهد العلمية الرسمية ، وكثيراً ما كانت هذه المكتبات تمثل النوادي الفكرية ، ففيها يجتمع طلاب المعرفة ومحبوها وتدور بينهم المناظرات والمناقشات ، ولهذا اهتم المسلمون بانشاء المكتبات العلمية منذ صدر الاسلام بالرغم من عدم ازدهار حركة التدوين والتأليف بشكل واسع في ذلك الحين .

ولما ازدهرت حركة التدوين والتأليف والترجمة في العصر العباسي ، اتسعت

دور المكتبات العلمية ، وحفلت بأنواع مختلفة من الكتب المؤلفة والمترجمة ، وأصبح العلماء يذهبون اليها للاطلاع على هذه الكتب التي كانت الدولة العباسية تحرص على تزويد المكتبات بها ، وكثيراً ما كان الخليفة يرسل البعثات العلمية الى الأمصار المختلفة لشراء الكتب وتزويد المكتبات بها ، بل اننا نجد الخليفة « المأمون » يرسل البعثات الى بلاد الروم للبحث في خزائنها العلمية الشهيرة عن الكتب الهامة ، لنقلها الى البلاد الاسلامية وترجمتها .

فقد روى ابن النديم في كتابه « الفهرست » أن المأمون كان يرسل ملك الروم ليستأذنه في نقل بعض الكتب القديمة الموجودة في بلاده ، وبعد أن سمح ملك الروم بذلك أرسل المأمون بعثة علمية حملت جزءاً كبيراً من هذه الكتب ، كما أرسل المأمون بعثة علمية الى القسطنطينية لاجتياز الكتب اليونانية المتعلقة بالطب والفلسفة من المكتبة الشهيرة الموجودة فيها ، والتي كانت تشتمل على مائة ألف مجلد .

ومن المكتبات التي اشتهرت في التاريخ الاسلامي « خزائن الحكمة » أو « بيت الحكمة » ^(١) التي أنشئت في عهد الخليفة الرشيد ، ثم نمت وتوسعت بشكل كبير في عهد الخليفة المأمون ، وقيل أنها أنشئت في عصر المأمون ^(٢) .

(١) ينظر ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ص ٦١ نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) دور الحكمة - مؤسسات علمية للثقافة العالية اكثر كتبها في العلوم الاساسية (الفلسفة ، المنطق ، الطب ، الفلك ، الرياضيات) وان حركة الرحلة التي قام بها العرب (على اثر اتصالهم بنيرهم من الامم) اطلعهم على علوم ومعارف : لم تكن معلومة عندهم من قبل ، وما وجدوا من المؤسسات الثقافية في البلاد التي فتحوها ، او التي اتصلوا بها هي دور الحكمة ، او دور العلم - فوجدوا :

- في الاسكندرية - دار علم - استعان العرب بعلمائها ، في ترجمة وشرح كتب الحكمة .
- ووجد العرب في الاندلس - بيت حكمة - حوت تفانيس الكتب والمصورات .
- وكان في بلاد الروم وقبرص عدة دور للحكمة .

ولما ترجم العرب كتب الحكمة ، واجتمع عندهم عدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم ، أن يجمعوا هذه الكتب في اماكن خاصة سميت (بيت حكمة) او (دار حكمة) او (حزانة حكمة) وكلها بمعنى واحد ، يراد بها المحل الذي توضع فيه كتب الحكمة المختلفة . فعل الخلفاء هذا حباً بنشر العلم والمعارف بين كافة الطبقات : غنيها وفقيرها ليتيسر لكل فرد أن ينال قسطه من الثقافة .

وقد أعطى الخليفة المأمون لهذه الخزانة العلمية كل ما يملك من وقت وجهد ، وسهر على تنمية الكتب الموجودة فيها ، والتي تمثل زبدة الفكر اليوناني

لأن كتب الحكمة كانت عزيزة المطلب ، غالية الثمن ، سعى على العير أن يحصل عليها ، فأودع الخلفاء والعلماء ما اجتمع لديهم من كتبها في محلات خاصة ، ونحوا أبوابها لكل قاصد ، وبسروا للناس أمر الترجمة والدرس ، والاستنساخ ، والمطالعة والنقد ، فعلوا هذا خدمة للعلم ، وحما نشره (بدافع من الأمان الصادق - والوعي الإسلامي الصحيح) ليقف الناس على حقائق الأمور ، ونساج أفكار الأمم التي سقتهم في كثير من النواحي الحضارية .

وأول بيت حكمة وقفنا على أحماره هو الذي أسسه العباسيون (في بغداد) واشهر أمره في خلافة الرشيد ، ومن بعده المأمون ، ثم صار في العراق عده حرائن للحكمة ، وأسا (الأغالمة) دار حكمة بمدينة (القروان) في شمال أفريقيا في القرن الثامن الهجري ، وأنشأ العاطميون دار حكمه في (القاهرة) حو نفائس المخطوطات (في الحكمة والعلم والأدب والفن) وساعد العاطميون (آل عمار) في أواخر القرن الخامس الهجري على تأسيس دار حكمة في مدينة (طرابلس - لبنان) وكانت من الدور المشهورة في العالم الإسلامي ، ازدهرت مدة نصف قرن ، ثم دمرها الصليبيون .

ومن المؤسسات الثقافية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري هي (دور العلم) فقد كان لها فصل في نشر الآداب والعلوم بين طبقات الشعب ، فهي مؤسسات ثقافية عامة لمن يقصدها ، فيحد منها الكتب المختلفة ، وبخلاف عن دور الحكمة بعض الاختلاف ، فهي مؤسسات أدبية ، أكثر كتبها سحت في اللغة والأدب والفقه والأخبار والسير ، ولا تخلو من كتب الحكمة .

ونجد في دور الحكمة ، ودور العلم من السهلات ما يشجع الطالب على الاستزادة من طلب العلم ، فقد كانت الكتب في متناول كل من يقصدها ، وتقدم لهم لوازم الكتابة .

ويذكر ابن النديم (صاحب الفهرست) ايضاحا لأهداف بب الحكمة (في بغداد) :

لتسهيل سبل الدرس والمطالعة ، والتأليف والرجعة ، لمن يرغب بذلك ، فقد كان يتعذر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة ، التي ترجمت من اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، وصرف في سبيل الحصول عليها وعلى ترجمتها وتجليدها المبالغ الكبيرة ، فذل الخلفاء للناس سبل المطالعة والدرس ، في بيت الحكمة ، الذي انشئ لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الأخرى ، والتي رغب الخلفاء بنشرها بين الناس ، ليقفوا على حقائق الأمور ، وتراث الأمم التي تقدمتهم في شنى النواحي العلمية والفكرية ، ففتحوا أبواب الدار لكل قاصد ، وشوقوا الناس الى التعلم والاقبال عليه ، ويسروا لهم المطالعة والدرس والاستنساخ ، مما كان له أعظم الأثر في إنعاش الحركة الحضارية .

وفي تاريخ العلم عند العرب من يوضع في الصف الأول (في قيادة الحركة العلمية) في العصر الإسلامي الزاهر وأولئك هم : الخليفة المأمون ، ونظام الملك ، ونور الدين زنكي ، والحاكم بأمر الله الفاطمي ، وصلاح الدين الأيوبي .

وقد ارتبطت هذه الأسماء ارتباطا وثيقا رائعا بالنهضة العلمية ، وكان لكل منهم اثره الضخم في تاريخ الحركة العلمية الإسلامية ، ومن الناس من يقول بحق أن جميع الحركات الثقافية والعلمية في البلاد الإسلامية ، منذ عهد المأمون ، اما هي فروع للأصول التي أنبتها هذا الخليفة العظيم .

والفارسي والهندي ، وقد أمر المأمون بترجمة هذه الكتب الى اللغة العربية ، وكان بيت الحكمة يشتمل على عدد من المتخصصين في الترجمة الذين كانوا يقومون بترجمة هذا التراث العلمي من أمثال يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون .

وقد كانت رعاية بيت الحكمة (في بغداد) وما انفق عليه من مال ، وما جرى في عهده من نرحمات لثراث الاغريق ، مما بعد مصرب الامثال ، وكذلك كان نور الدين زنكي في سوريا سنة ٥٦٩ هـ راعياً للعلم ومسرماً على نهضته ، وحامياً له ، حتى أسلدها الى خلفه صلاح الدين ، بعد أن تلقاها ورعاها من سلفه العظم (نظام الملك) ثم رعى صلاح الدين هذا الغراس في مصر ، فحفظ التراث العلمي من غوعاء المنار ، وأنشأ المدارس ، وكان كرم صلاح الدين وسخاؤه داعياً لاختذاب العلماء والطلاب . وقد كانت مصر في منتصف المسافة تقرباً بين (العراق وحراسان) وبين (شمال امريقيا والاندلس) .

أما نظام الملك (ولد سنة ٤٠٨ هـ) - وهو المبدع للمدارس النظامية - فقد أنشأ شبكة منها في المدن والعمرى ، ومدها بما يحاحه من كتب ، وعين لها المدرسين والطلاب والخدم ، وبذل للجميع العطايا والمج ورسب لهم الارزاق ، لينتفعوا للعلم .

وكان المادون أول من نادى بالآ يكون نساط. بب الحكمة منوقعا على السجاء انسخصى للخلعاء والامراء . فهياً للعلماء أوزاقاً سحبه بتقاضونها (من أوقاف ثابته) يعض ريعها عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة العظيمة ، وكذلك جرى العمل من بعده ، على أن يكون لكل معهد أو مؤسسة (وقف ثابت) بفي سعادها .

روى « ابن حمر » أنه رأى ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسه ، كل منها ، ينصر القصر البدع عها ، وأعطها وأنسهرها « الطامعه » الى بنائها ، نظام الملك ، وأهده المدارس أوقاف عطيمه ، وعقارات للاتفاق على العلماء والمدرسين بها ، والاحراء على الطامعه ، وأتقد صل ان ما كان ينفعه نظام الملك باخ ستمائة ألف دينار .

وكان وقف المدرسة الطامية في بغداد حمسه عسر ألف دينار سنوفا ، ونظامه أصفهان عسرة آلاف وهكذا ...

وكذلك فعل نور الدين زنكى ، حسب أوقف على المدارس (النورية) أوقافاً يكفى ريعها الوفير للاتفاق على الطلاب والمدرسين ، ايعافاً موصلاً سخماً ، وكذلك كاتب أوقاف العلم في مصر ، فمند أواخر القرن الرابع - في عهد العزيز بالله العاطمي - أصبح الأزهر معهداً علمياً ، أكبر منه مسجداً ، وقد أوقف الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر وبيت الحكمة أوقافاً عطيمه ، يقول المقرئ :

ان الحاكم كان يؤكد أن هذه الوفية دائمه للأبد ، لا يوهنها نعام السنين ، وقد حافظ الأيوبيون على هذا التراث ورعوا العلم ، وفي بعض الحالات كانت تدفع نفقات التعليم من خزانة الدولة ، وقد روي عن أحد الحكام أنه كان يقسم الخراج ثلاثاً ، ويجعل الثلث للتعليم ، مما جعل هذه الحقبة من الزمن نبيه على البارخ ، بما سنع فيها من ضياء العلم ونور العرفان .

وقد زعم أحد المؤرخين أن «بيت الحكمة» كان جامعة كبيرة ، وأن المكتبة كانت جزءاً منه ، إلا أن هذا الزعم غير ثابت لعدم وجود دليل يؤيده ، وبخاصة أن هذه المكتبة العظيمة التي بلغت عصرها الذهبي في عهد المأمون ، لم تلق نفس العناية بعد عصر المأمون ، ولذلك ضعف شأنها ولكنها — بالرغم من ذلك — ظلت تقوم بمهمة علمية وثقافية كبيرة ، حتى دخل التتار بغداد ، وقتلوا آخر الخلفاء العباسيين ، وهنا كانت نهاية هذه المكتبة العظيمة ، التي زالت آثارها ، واندثر حطامها ، ولم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون في وصفها .

ومن المكتبات التي اشتهرت في تاريخنا الاسلامي ، المكتبة الحيدرية ، التي لا زالت موجودة حتى الآن في النجف (العراق) في المشهد الشريف الذي دفن فيه الامام علي بن أبي طالب ، وتشتمل هذه المكتبة على تراث علمي كبير ، ومؤلفات ثمينة ، تعد من الكتب النادرة والفريدة .

وهناك مكتبات أخرى لا تقل عن هذه المكتبات من حيث الأثر الذي تركته في إثراء الحركة الثقافية وتشجيعها ، كالمكتبة النظامية في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، والمكتبة الظاهرية في دمشق ، بالإضافة الى عدد كبير من المكتبات الخاصة التي كان يملكها بعض الخلفاء والسلطين ، والتي كانت تشتمل على نفائس الكتب والمخطوطات النادرة .

وإذا كان تاريخنا زاخراً بمثل هذه المكتبات العظيمة ، التي كانت تشتمل على تراث عظيم ، في كل جانب من جوانب تراثنا ، الديني والفلسفي والأدبي والعلمي ، فإننا نشعر الآن بألم دفين يحز في النفس ، ويدمي الفؤاد كلما تذكرنا مصير هذا التراث الذي دمرّ بعضه أو أحرق بسبب الحروب والخلافات السياسية ، وانتقل القسم الآخر الى مكتبات أوروبا ومتاحفها .

ونحن مدعوون اليوم لاهياء هذا التراث من جديد ، والاضافة المستجدة إليه ، عن طريق بعث الحياة والفاعلية في حياتنا العلمية الرتيبة ، والانتقال من مرحلة التريد والتكرار الى مرحلة الاجتهاد والاضافة والابداع .

الباب الثالث

التطور التاريخي للتشريع الإسلامي

لم يدون التشريع الاسلامي خلال عصر الرسول الكريم أو خلال عصر الصحابة ، في تلك المرحلة التاريخية الأولى ، ذلك التقسيم والتبويب والتفريع ، الذي نجده في المراحل التي تلت ذلك ، فالرسول الكريم ﷺ عندما فارق الحياة ترك لأصحابه الأسس العامة ، والمبادئ الكلية التي قامت عليها الشريعة الاسلامية فيما بعد .

وتتمثل هذه الأسس والمبادئ في الآيات القرآنية التي عرضت بشكل مجمل لمعظم الأصول والقواعد ، ثم جاءت السنة النبوية موضحة ومفسرة ومكملة لما جاء في القرآن الكريم .

وكانت هذه الأصول والقواعد كافية للمجتمع الاسلامي الأول الذي كان يعيش في داخل الجزيرة العربية ، حيث الحياة محدودة ، والعادات معهودة ، إلا أن اتساع الدولة الاسلامية ، وخروج المسلمين من جزيرتهم باتجاه العراق والشام ومصر ، ولّد الحاجة إلى توسيع باب الاجتهاد ، وتفريع الأحكام ، وإيجاد الحلول للمشاكل المستجدة ، فتطورّ الفقه الاسلامي واتسعت جوانبه ، سواء فيما يتعلق بجانب التفريع ، أو جانب التنظيم ، حتى وجدنا بعد فترة من الزمن ، أن هذا التشريع الذي كان قاصراً على القرآن والسنة ، يتسع بشكل كبير ، وإذا بمواكب الفقهاء تتكاثر وتثري تشريعنا العظيم ، بالاجتهادات النيرة ،

المستمدة من النصوص ، والمحقة للمصالح الاجتماعية المتطورة ، وفق منهاج أصولي دقيق •

واليوم فان التاريخ يعيد نفسه ، فبين أيدينا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وحياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد تغيرت تغيراً جذرياً ، عما كان عليه الحال خلال القرون الهجرية الأولى ، والحاجة تدعونا الى ايجاد الحلول المناسبة للمشاكل المستجدة ، وإذا كانت الاجتهادات التي قال بها الفقهاء السابقون قاصرة عن تلبية حاجات مجتمعنا المعاصر ، فعلينا أن نعود الى المنهل العذب الصافي (كتاب الله وسنة رسوله) لنستخرج منهما – عن طريق الاجتهاد – ما يحقق المصلحة لمجتمعنا وما يستجيب لمتطلبات العصر الذي نعيش فيه •



الفصل الأول

الاجتهاد

معنى الاجتهاد :

الاجتهاد في معناه اللغوي هو بذل الجهد في تحقيق أمر من الأمور التي تحتاج الى مشقة وجهد ، أما معناه الأصولي فهو أن يبذل الفقيه جهده العقلي في استخراج حكم شرعي من دليله •

ومن المعروف أن النص الشرعي الثابت ، قد يدل على الحكم دلالة مباشرة ، وفي هذه الحالة لا مجال للاجتهاد ، وقد يرد الحكم غير واضح الدلالة ، فيدل على أكثر من معنى ، ولا بد للمجتهد في هذه الحالة من أن يعتمد على اجتهاده ، في استخراج الحكم المراد

وقد اعترف التشريع الاسلامي بالاجتهاد كمصدر مستقل من مصادر التشريع ، وذلك عندما تكون النصوص التشريعية ، غير واضحة الدلالة ، أو عندما لا تتعرض النصوص لبعض الأحكام ، فيلجأ المجتهد الى الاجتهاد والرأي ، ليقرر الحكم المناسب الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ، ويحقق أهدافها •

تاريخ الاجتهاد : يرجع تاريخ الاجتهاد الى عصر الرسول الكريم ﷺ إذ كان يجتهد في كثير من المسائل التي لم ينزل فيها الوحي ، ونستطيع أن نقسم الاجتهادات الصادرة عن الرسول الكريم الى قسمين :

اولا : اجتهادات بيانية : وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مهمة الرسول الأولى ، وهي بيان الأحكام الواردة في القرآن ، عن طريق بيان المجمل ، وتقييد المطلق ، وتخصيص العام ، كقوله ﷺ :

● لا يرث القاتل ● لا وصية لوارث ● يحرم من الرضاع ما يحرم النسب •

ثانياً : اجتهادات مطلقة : وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مفهوم الاجتهاد بمعناه الاصطلاحي ، إذ يستعمل الرسول فيها عقله ، ويستشير فيها صحابته ، ويختار بعد ذلك ما يحقق المصلحة ، ومن هذا النوع اجتهاده ﷺ في موضوع « أسرى بدر » الذي عاتبه الله تعالى عليه ، في قوله سبحانه :

● ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض •

وقد أقر جمهور العلماء الاجتهاد من الرسول الكريم ، لأن الاجتهاد إذا كان جائزاً من المجتهدين ، مع عدم اتصافهم بالعصمة ، فهو جائز من الرسول الكريم من باب أولى ، وقد أشار الرسول الى اجتهاده بقوله ﷺ :

● إني أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي (١) •

وقد ظهر الاجتهاد بشكل واسع ، وظهرت الحاجة الماسة إليه بعد وفاة الرسول الكريم ، ففي عصره كان الصحابة يعتمدون عليه في كل مسألة من المسائل ، ولكن بعد وفاته اضطروا للاجتهاد ، وبخاصة وأن المشاكل المستجدة التي ظهرت بكثرة بعد الفتوحات الاسلامية ، قد فرضت اللجوء الى الاجتهاد والاعتماد عليه •

ومن أهم اجتهادات الصحابة ما يلي :

١ - اجتهاد أبي بكر الصديق في قتال المرتدين الذين منعوا الزكاة •

٢ - اجتهاد عمر بن الخطاب في منع إعطاء المؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة •

٣ - اجتهاد عمر بن الخطاب في وقف قطع يد السارق بعد أن حلت المجاعة

بالمسلمين ، لأن ايقاع العقوبة لا يؤدي الى منع السرقة في حالة الجوع •

(١) وقد أقر رسول الله (ص) معاذاً على ذلك ، حين بعثه الى اليمن (قاضياً) فقال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ فقال : أمضي بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ، قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم يكن في سنة رسول الله • قال : أجتهد رأيي ، لا آلو ، قال : فضرب رسول الله (ص) صدره ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ، لما يرضي الله •

وبعد عصر الصحابة اشتدت الحاجة الى الاجتهاد ، وبخاصة بعد أن تعقدت الحياة في المجتمع الاسلامي ، فتكونت المدارس الاجتهادية في كل من الحجاز والعراق ، وأصبح لكل مدرسة منهج اجتهادي ، متميز في أصوله وقواعده ، فمدرسة الحجاز عرفت بمدرسة الحديث ، وقد تأثرت بمنهجها بالصحابة الذين عاشوا بالمدينة ، من أمثال : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، ومن جاء بعدهم من تلاميذهم ، وقد استطاعت هذه المدرسة أن تحتل مكان الصدارة ، نظراً لمكانتها من نفوس العلماء ، وبخاصة وأن منهجها يقوم على أساس الاعتماد على الحديث الذي كان متوافراً في الحجاز ، ولهذا لم يكن علماء هذه المدرسة يلجؤون الى الرأي الا قليلاً . أما مدرسة العراق فقد عرفت بمدرسة الرأي ، نظراً لاعتمادها على « الرأي » والتوسع في الاجتهاد ، وسبب ذلك لا يعود الى زهد في الحديث ، وإنما لعدم توافر الحديث الصحيح في العراق ، كما كان متوافراً في الحجاز ، وما وصل منه الى العراق قد دخله التحريف والكذب ، فاختلطت الروايات الصحيحة بغيرها ، مما صعب الاعتماد على هذه الروايات .

وإذا كان علماء كل من المدرستين ينظر الى المدرسة الأخرى بقدر من الريبة والحذر في بداية الأمر فأننا نجد أن شقة الخلاف بين الاتجاهين قد ضعفت ، وبخاصة بعد أن وضعت القواعد المنظمة لعلم مصطلح الحديث ، وبفضل الذين جاءوا بعد هذه الفترة ، كالشافعي ، قد حاولوا أن يجمعوا بين منهجي المدرستين — أي بين الحديث والرأي — وهكذا استطاع الفقه الاسلامي ، بفضل الاجتهاد ، أن يقفز قفزات رائعة ، خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأن يزدهر ازدهاراً كبيراً ، سواء في مجال الاجتهاد ، أو التدوين ، أو التأليف ، أو التنسيق .

شروط المجتهد :

قد يحسب بعض الناس أن الاجتهاد أمر يسير ، يمكن لأي فرد أن يلجأ إليه ، أو يتصدى له ، وهذا خطأ فادح ، فالفقه الاسلامي علم متكامل الأركان ، يعتمد على أصول وقواعد ، ولا يمكن لأي فرد أن يتصدى للاجتهاد ، قبل أن

يكون عارفاً بوسائل الاجتهاد الأساسية ، التي تعطي لهذا الاجتهاد الصفة العلمية ،
التي تبعده عن الخطأ والزلل •

وبالرغم من الشعور الملحّ بضرورة الاجتهاد في عصرنا الحديث ، إلا أنه
لا يجوز أن يتصدّى لهذا العمل العظيم والدقيق إلا من توفرت فيه شروط
الاجتهاد وأهمها :

١ - أن يكون المجتهد عالماً باللغة العربية ، قواعدها ، وأساليبها ،
ومفرداتها ، ليكون قادراً على فهم النص التشريعي فهماً صحيحاً •

٢ - أن يكون عالماً بعلوم القرآن ، والمباحث المتعلقة به ، كأسباب النزول ،
والناسخ والمنسوخ ، والمكّي والمدني في الآيات ، ليساعده ذلك على فهم الآيات •

٣ - أن يكون عالماً بالحديث وقواعده وأصوله ، ليستطيع أن يعتمد على
الروايات الصحيحة ، في بيان الأحكام المتعلقة بالقرآن •

٤ - أن يكون عالماً بقواعد أصول الفقه ، التي تساعد على الاستنباط
الصحيح للأحكام ، من مصادرها وأدلتها ، ليكون استنباطه خاضعاً لمنهج علمي ،
لا لمجرد الرأي والهوى •

٥ - أن تتوافر في المجتهد الملكة الفقهية والذوق التشريعي الذي يساعده
على فهم المقاصد والعلل وقياس الأحكام بنظائرها •••••

فإذا توافرت هذه الشروط في الفقيه ، فعندئذ يعتبر الاجتهاد واجباً في
حقه ، ولا يجوز له أن يقلّد غيره من العلماء ، إذا ثبت لديه الدليل على خلاف
ما ذهب اليه الفقيه السابق (١) •



(١) ينظر أصول التشريع الاسلامي للاساذ على حسب الله ص ٩٥ •

الفصل الثاني

المدارس الفقهية

المراد بالمدارس الفقهية :

يراد بالمدارس الفقهية الاتجاهات الفقهية التي ظهرت نواتها الأولى بعد الرسول الكريم ﷺ ، حيث تفرق الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار المختلفة ، والتف الناس حولهم يسمعون منهم حديث رسول الله ﷺ ، ويأخذون عنهم آراءهم في الفتيا والقضاء ... ومع الزمن تأكدت هذه الاتجاهات ، وأصبح لكل منها آراء ، تختلف جزئياً أو كلياً ، عن آراء الاتجاه الآخر ، وبخاصة في المسائل الاجتهادية حيث يكون للرأي (أعني الرأي الموضوعي - لا مجرد الرأي الشخصي) دور كبير فيها

وأود أن أؤكد أن من أهم العوامل التي ساهمت في تكوين هذه المدارس ما يلي :

أولاً : اختلاف البيئة :

وهذا عامل مهم في التأثير على المجتهد ، فالمجتهد الذي عاش في المدينة ، لم يشعر بضغط الحوادث المستجدة ، والمستحدثة في المعاملات والعادات ، كما يشعر بها الفقيه الذي كان يعيش في العراق أو الشام ، فالحجاز ظلت لفترة طويلة من الزمن ، متأثرة بعمل أهل المدينة ، الذين كانوا متأثرين بحياتهم بحديث رسول الله ﷺ وتعاليمه ، ولم تحدث في الحجاز تطورات اجتماعية كبيرة ، خلال القرن الأول ، ولهذا كان علماء المدينة ، يأخذون بحديث رسول الله ﷺ ، ولم يجدوا حاجة ملحة ، للتوسع في الأخذ بالرأي والقياس .

ثانياً : اختلاف مناهج التفكير لدى الفقهاء :

وهذا أيضاً عامل آخر ، إذ لم يكن الفقهاء يخضعون لطبيعة واحدة ، من

حيث استعداداتهم العقلية والذهنية ، ولهذا كان بعضهم يؤثر الأخذ بالحديث ، ويتورّع عن اللجوء الى الرأي ، لئلا يحكّم عقله وهواه في فهم النص الشرعي ، في الوقت الذي نجد فيه فئة أخرى من الفقهاء ، ترى ضرورة التوسع في الاجتهاد ، والاحتكام الى العقل في المسائل الاجتهادية والقياسية ، وفق منهج أصولي دقيق .

ثالثاً : انتشار حركة الوضع في الحديث :

وقد لعب هذا العامل دوراً بارزاً في تأكيد الاتجاهات الفقهية المختلفة ، وتعميق التباين لوجهات النظر ، بين فقهاء هذه الاتجاهات ، ففي بلاد الحجاز ما زال حديث رسول الله نقياً صافياً ، لم يدخله الوضع ، ولم تختلط الروايات المكذوبة بالصحيحة ، لكثرة الصحابة في تلك البلاد ، وسهولة كشف كل الروايات المكذوبة بيسر ، بخلاف بلاد العراق ، فقد انتشرت الروايات المكذوبة فيها بكثرة واختلطت بالروايات الصحيحة ، ولم يعد بإمكان الفقهاء أن يعتمدوا على الرواية أصلاً ، خوفاً من أن تكون موضوعة ، ولهذا نجد أن شقة الخلاف التي اتسعت بين الاتجاهين المختلفين في العراق والحجاز ، بين أهل الرأي وأهل الحديث قد تضاءلت الى درجة كبيرة ، بعد أن ظهر علم أصول الحديث ومصطلحه ، إذ استطاع علماء الحديث أن يخضعوا الروايات الى منهج علمي يكشفون به الرواية الصحيحة من الموضوعة .

مدرسة الحديث :

مدرسة الحديث هي المدرسة الأولى ، وقد سميت بمدرسة المدينة أو مدرسة الحجاز ، وهذه المدرسة نشأت في المدينة ، كما يدل عليها اسمها ، ومن الطبيعي أن تكون هذه المدرسة التي نشأت في أحضان البيئة ، التي عاش فيها معظم الصحابة ، متأثرة الى حد كبير ، بحديث رسول الله ﷺ ، وبعمل صحابته ومناهج تفكيرهم ...

والواقع لم تقتصر هذه المدرسة على علماء المدينة فحسب ، وإنما كانت شاملة لكل من تأثر بمنهج هذه المدرسة ولو كان يعيش في العراق والشام ...

ولهذا نجد كثيراً من العلماء والفقهاء ، كانوا يأخذون بمنهج مدرسة الحديث ، ويكرهون الرأي ، من أمثال : الشعبي ، والثوري ، والأوزاعي ، وجميع هؤلاء يعيشون خارج الحجاز ، في الكوفة أو الشام •

وقد تأثرت هذه المدرسة بعدد من الصحابة الكرام الذين كانوا يعيشون في الحجاز من أمثال : زيد بن ثابت ، عبد الله بن عمر ، ثم اشتهر من علماء هذه المدرسة ، سعيد بن المسيب ، الذي تزعم هذا الاتجاه ، وكان له تلاميذ تأثروا بمنهجه ، وأخذوا بأرائه ، حتى جاء الامام مالك ، فترعّم هذه المدرسة وحمل لواءها •

وإذا كان علماء هذه المدرسة قد أخذوا بالحديث ، ورفضوا الرأي وكرهوه ، فإن هذا لا يعني أنهم لم يأخذوا بالرأي ، بل نلاحظ أنهم لم تسعفهم النصوص التشريعية من قرآن وسنة ، ولم يسمعوا شيئاً من صحابة رسول الله ، فانهم كانوا أحياناً يعتمدون على الرأي ، ويجتهدون في المسائل •

مدرسة الرأي (١) :

تمثل مدرسة الرأي الاتجاه الثاني ، الذي كان يقابل مدرسة الحديث ، وقد نشأ هذا الاتجاه في العراق ، ومما ساعد على ظهوره هناك ، أن حديث رسول الله ﷺ الذي كان متوافراً بكثرة لدى علماء المدينة كان قليلاً في العراق ، بسبب بعد العراق عن المدينة ، وإذا وصل هذا الحديث الى العراق ، فإن الشك يتطرق الى صحة ثبوته وروايته ، وبخاصة بعد أن ثبت أن كثيراً من الروايات قد وضعت عن الرسول الكريم ، ونسبت إليه دون أن تكون صحيحة •

وقد تأثر علماء هذه المدرسة ببعض الصحابة الذين انتقلوا الى العراق وعاشوا فيها ، من أمثال : عبد الله بن مسعود ، وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وربما كان عبد الله بن مسعود من أكثر الناس تأثيراً في هذه المدرسة ، نظراً لأن عمر بن الخطاب أرسله الى الكوفة معلماً وقاضياً ، فالتف الناس حوله ، وأخذوا عنه علمه ومنهجه •

(١) ينظر - نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ص ١٥٠ •

وقد اشتهر عدد من علماء هذه المدرسة خلال القرن الأول من أمثال :
علقمة بن قيس ، والأسود بن يزيد ، ومسروق بن الأجدع ، وشريح بن الحارث
(القاضي) ، ولما ظهر أبو حنيفة نسبت زعامة هذه المدرسة إليه نظراً لمكانته
في الفقه ، ولمجالسه العلمية التي كانت تضم نخبة ممتازة من تلاميذه الذين دوّنوا
آراءه ، وخدموا مذهبه ، حتى أصبح من أكثر المذاهب الفقهية اتساعاً وشمولاً ،
وأوسعها انتشاراً وقبولاً

وكان منهج هذه المدرسة يعتمد على نقطة أساسية ، هي أن الشريعة
الاسلامية تقوم على أصول محكمة ، وقواعد كلية ، وهذه الأصول والقواعد
تشتمل على علل معقولة المعنى ، وعن طريق فهم تلك العلل ، يمكننا أن نطبقها
على جميع الفروع المستحدثة ، عن طريق القياس أو الاستحسان ، أو المصلحة
المرسلة ، وهكذا ينمو الفقه الاسلامي ويزدهر ، ويزداد شمولاً واتساعاً ، عن
طريق الفتيا والقضاء ، ولهذا نجد أن علماء هذه المدرسة لم يكونوا يحسّون
بالحرج الكبير ، أمام أية مشكلة مستحدثة ، أو أمام أي إفتاء أو قضاء ،
وإنما كان منهجهم في الفهم (أي في الفقه) يساعدهم على التوسع في الاجتهاد ،
والإفتاء في كل مسألة من المسائل وفق المنهج الاجتهادي الذي اعتمدوه
بخلاف مدرسة الحديث ، فانهم كانوا يتهيبون من الفتيا والقضاء ، وكثيراً ما كانوا
يجيبون السائل بكلمة لا أدري

وهنا أودّ أن أشير ، إلى أن هذه المدرسة ، بالرغم من عنف النقد الذي
وجّه اليها من علماء الحديث ، قد استطاعت أن تخدم الفقه الاسلامي ، خدمة
جلیلة وعظيمة ، واستطاعت بفضل منهجها الرحب وتعاملها المرن أن تعالج
موضوعات ، وتضع حلولاً وآراء ، وتتصدى لمشاكل ، ما كان بإمكان مدرسة
الحديث أن تتصدى لها ، وبخاصة وأن هذه المدرسة قد عاشت في العراق ، حيث
الخلافة العباسية ، وحيث التطور الحضاري ، في أرقى صورته ، يفرض على
المجتمع الاسلامي ، صوراً مستحدثة ، من المعاملات والتصرفات والعقود ، وكان
لا بد أن يتصدى الفقهاء ، لبيان الرأي في هذه المعاملات .

الفصل الثالث

المذاهب الفقهية

لا تمثل المذاهب الفقهية آراء خارجة من نطاق النصوص التشريعية الثابتة ، وانما نجد الحرص الأكيد من جميع أئمة المذاهب المشهورة وغير المشهورة ، على تلمس الحق والصواب ، ونظراً لأن الصواب في المسائل الاجتهادية ، لا يمكن التأكد منه فقد حاول كل فقيه من الفقهاء ، أن يتلمس الصواب ، ويصل اليه عن طريق الاجتهاد ، إذ لا يجوز في نظر الاسلام التقليد لمن توفرت فيه شروط الاجتهاد (إذا ثبت لديه الدليل - على خلاف ما ذهب إليه الفقيه السابق) ولهذا نصل الى أن تعدد الاجتهادات ، وتعدد المذاهب ، إنما هو ظاهرة فقهية ، أنجبت هذه الثروة الضخمة من الآراء والفروع •

ومن الخطأ البيّن ، أن ننظر بروح التعصب المذهبي الى الآراء المخالفة لاجتهاداتنا ، فمثل هذا التعصب مخالف لروح الاسلام ، وبخاصة أننا لا ندري أين الصواب ، فالعقول تتفاوت في قدراتها وتباين ، فما كان صواباً عند أحد الفقهاء ، ربما لا يكون كذلك في الحقيقة ، ولهذا من الأدب الاسلامي ، أن نراعي الأخلاق الاسلامية في نظرتنا لآرائنا واجتهادنا ، وفي نظرتنا لآراء واجتهادات مخالفينا

وسوف أعرض هنا بعض المذاهب للتعريف بها (١) :

أولاً: المذهب الحنفي :

ينسب هذا المذهب الى شيخه ، النعمان بن ثابت ، المولود في الكوفة

(١) ينظر تاريخ المذاهب الاسلامية للاستاذ المرحوم محمد أبو زهره - الجزء الثاني - ونظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ، وتاريخ النسري للاستاذ الخصري •

سنة ٨٠ هـ ، والمتوفى عام (١٥٠ هـ) وقد نشأ في الكوفة ، حيث الحركة العلمية الدأبة ، فتأثر في طفولته ، وتلقى العلم عن كبار علماء الكوفة ، وبفضل ذكائه وصبره وجهده ، استطاع أن يحتل مكانة كبيرة بين علماء عصره ، مما مكّنه أن يتصدّى للتدريس ، فالتفّ الناس حوله ، ووجدوا فيه علماً غزيراً ، وقدرة على المناظرة والمجادلة ، وموهبة في البحث عن العلل والأسباب •

ولعل الشيء البارز في منهجه التدريبي ، هو أسلوبه في الحوار ، والذي يشبه فيه طريقة « سقراط » فهو لا يلقي الدرس إلقاءً ، ولكن يعرض المسألة ، ثم يفتح فيها باب المناقشة ، فيبدي كل فرد من تلاميذه رأيه فيها ثم إذا انتهى الحوار أبدى وجهة نظره ، معتمداً في ذلك على ما تمخّضت عنه المناقشة ، ولذلك ، استطاع بفضل هذه الطريقة أن ينجب من تلاميذه علماء ، فاقوا أقرانهم بعلمهم ، وبقوة حجّتهم ، وخدموا آراء شيخهم خدمة جلّى ، فاذا بالمذهب الحنفي يصبح من أكثر المذاهب اتساعاً وشمولاً •

وقد توسع المذهب الحنفي في الأخذ بالقياس والرأي ، لا عزوفاً عن حديث رسول الله ﷺ ، ولكن لقلة الحديث الصحيح في العراق فاذا صحّ الحديث عنه ، فانه لا يخرج عنه أبداً ، فاذا لم تثبت صحة الحديث عنده ، فعندها يلجأ الى الرأي ، مستعملاً ، القياس ، والاستحسان ، وقد كان يملك قدرة فائقة على عملية التفريع ، واستخراج الأحكام من النصوص ، وهذا يدلنا على تمكّنه من فهم الشريعة ، ومن استيعاب مراميها ومقاصدها ••• ومما ساعده على قدرته في تخريج الأحكام والتوسع في الاجتهادات ، وبخاصة في مجال المعاملات ، أنه كان تاجراً ويمارس البيع والشراء ، وبفضل هذه الصفة ، استطاع أن يكون أكثر دقّة وواقعيّة ، في اجتهاداته ، المتعلقة بالمعاملات والعقود ، ولا شك أن من تمرّس في التجارة ، وعرف أسرار هذه المهنة وخفاياها ، فهو أقدر على الاجتهاد المحقق للمصلحة ، ولهذا نجد أن أبا حنيفة ، قد توسع في الأخذ بالاستحسان ، عندما يؤدي تطبيق القواعد القياسية الى حرج ومشقّة ، كما أنه اعتمد على

العرف الجاري بين التجار عندما يكون هناك نص شرعي •

وبالإضافة الى هذا فاننا نلاحظ أن « أبا حنيفة » قد كان ينتصر - من خلال اجتهاداته - للحرية والارادة ، التي ينبغي أن تتوفر للانسان ، فالإرادة الانسانية ، ينبغي أن تبقى مصونة ، لا يتدخل أحد فيها إلا عند الضرورة الاجتماعية ، ولهذا نجده يمنع الحجر على السفينة ^(١) ، ويعطي الولاية كاملة للفتاة البالغة في مجال المال والزواج ^(٢) •

ومن أشهر تلاميذه ، أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، الذي شغل منصب « قاضي القضاة » وأول من عيّن في هذا المنصب ، و (ومحمد ابن حسن الشيباني) المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وقد عرف الامام محمد بتدوينه للفقه وله كتب كثيرة تعتبر المصادر الأساسية للمذهب الحنفي ، ويمتاز الامام محمد ، بأنه قد جمع في آرائه بين مدرستي الحديث والرأي وحاول التقريب بينهما ، وبخاصة وأنه تلقى العلم عن الامام مالك ، شيخ مدرسة الحديث في المدينة •

ويلاحظ أن الفقه الحنفي قد نما نمواً كبيراً ، وانتشر في كثير من الأمصار الاسلامية ، ويعود الفضل في ذلك إلى كثرة تلاميذ أبي حنيفة ، الذين خدموا آراءه ، ودوّنوها ونشروها ، ومما ساعد أيضاً على خدمة هذا المذهب أنه كان المذهب الرسمي للدولة العباسية ، نظراً لأن قاضي القضاة هو الامام أبو يوسف ، تلميذ أبي حنيفة ، إذ كان يختار للقضاء ، من درس الفقه الحنفي دون غيره •••

المذهب المالكي :

ينسب المذهب المالكي إلى شيخه الامام مالك بن أنس ، المولود في المدينة

(١) يرى أبو حنيفة أن الحجر على السفينة الذي تجاوز سن الخامسة والعشرين غير جائز ، لأنه هو صاحب الحق في التصرف بأمواله ، وفي الحجر عليه إهدار لكرامته الانسانية •

(٢) معظم الفقهاء - ما عدا الشافعي - يرى عدم إجبار البالغة على الزواج ممن لا يريد ، إلا أن عبارتها لا تصلح لإنشاء عقد الزواج ولا بد أن يتولى وليها صبغة العقد ، وقد أثبت أبو حنيفة للبالغة ولاية كاملة في موضوع الزواج ، كما لها ولاية كاملة في موضوع المال ، ولحمانه حتى الولي ، ولمنع سوء الاختيار ، فقد اشترط الكفاءة بين الزوجين دفعا لأي ضرر متوقع •

سنة ٩٣ هـ ، والمتوفى فيها سنة ١٧٩ هـ ، وقد نشأ مالك بن أنس في المدينة ، فتأثر بالبيئة العلمية التي كانت مهيمنة على مدينة الرسول الكريم ، وتلقى العلم من علماء المدينة ، فاستطاع بجهده ودأبه ، وإحاحه في طلب العلم ، أن يتبوأ مكانة كبيرة في النفوس ، ولما جلس للتدريس في مسجد الرسول الكريم ، رحل الناس إليه من كل مكان ، والتفوا حوله ، فكان يتكلم في الحديث ، وفي الفقه ، وقد ترك كتابه الشهير « الموطأ » الذي جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى ، ورتبها حسب الترتيب الفقهي ، فكان هذا الكتاب ، كتاب فقه وكتاب حديث في آن واحد .

ويختلف منهج الامام مالك عن منهج الامام أبي حنيفة ، من حيث أن الامام مالك بن أنس كان زعيم مدرسة الحديث ، فكان يكره منهج مدرسة الرأي في العراق ، ولعل ذلك يعود إلى بيئة المدينة التي عاش فيها الامام مالك ، والتي كان الحديث شائعاً فيها ، وبالإضافة إلى هذا ، فقد كان الامام مالك متخصصاً في الرواية ، وبالرغم من هذا فلم يكن محدثاً فقط ، وإنما كان فقيهاً أيضاً ، وبالرغم من كراهيته لمنهج أهل الرأي في العراق ، فقد كان يأخذ بالرأي ، ويعتمد على الاجتهاد والقياس والمصلحة ، عندما لا يكون هناك نص شرعي ثابت .

وكان مالك يرى أن عمل أهل المدينة حجة ، يجب العمل به ، لأن أهل المدينة كانوا متأثرين في حياتهم ، برسول الله ﷺ وبصحابته ، ولهذا كان يعتبر عمل أهل المدينة حجة مقدمة على خبر الآحاد . . .

وقد عرف عن الامام مالك أنه كان قوياً في الحق ، وهذه الصفة كثيراً ما تقود صاحبها إلى مواقف قاسية ، قد تنتهي بالشخص إلى الموت أو السجن أو التعذيب .

وقد امتحن الامام مالك في عهد أبي جعفر المنصور ، وضرب بالسياط حتى انخلعت كتفه ، وهال أهل المدينة وتلاميذ الامام أن يروا إمامهم وشيخهم تنزل المحنة به ، دون ذنب اقترفه ، ولعل ذنبه الوحيد هو قوله الحق ، سواء رضي

الحكام أم كرهوا ، وقيل في سبب محنته أنه أفتى بعدم وقوع يمين المستكره ، أخذاً من حديث رسول الله ﷺ « ليس على مستكره يمين » فأدى هذا الى أن كثيراً ممن بايعوا الخليفة مكرهين قد تحللوا من بيعتهم ، وخرجوا على الخليفة ، لأن العهد الذي أخذ منهم كان باطلاً وقيل غير ذلك (أي في سبب محنته) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحكام قد ضاقوا به وبجراته ، فقادوه الى السجن ، ولكن سرعان ما أدرك الخليفة المنصور ، ما يمكن أن يترتب على تصرفه هذا ، من إضرار بمكانته بين الناس ، فأرسل الى الامام الممتحن ، واعتذر منه ، متعللاً بأنه لم يأمر بما حدث ، ولم يعلم به وهكذا انتهت المحنة ، وخرج الامام منها معزراً مكرماً ، وازداد اقبال الناس عليه ، مكبرين فيه شجاعته ، مقدرين له تضحيته .

وقد اشتهر من تلاميذ مالك عدد من العلماء منهم : عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، ، وقد قام تلاميذه من بعده بتدوين آرائه ونشرها ، وقد انتشر هذا المذهب في مصر ، ثم انتقل الى المغرب والأندلس ، ولا زال حتى الآن في بلاد المغرب والكويت .

المذهب الشافعي :

ينسب المذهب الشافعي الى محمد بن ادريس الشافعي المولود في غزوة سنة ١٥٠ هـ والمتوفى في مصر سنة ٢٠٤ هـ ، وقد نشأ محمد بن ادريس يتيماً بسبب فقد والده ، فانتقلت به أمه الى مكة ، وفي مكة تلقى العلم عن شيوخه فيها ، ثم رحل الى المدينة حيث التقى بالامام مالك وأخذ عنه العلم ، وبعد وفاة الامام مالك أصبح والياً على نجران ، إلا أنه سرعان ما اتهم بتشجيعه للعلويين والدعوة لهم . فحصل الى الخليفة « الرشيد » في الرقة ، إلا أنه برىء من هذه التهمة ، وبعدها انتقل الى بغداد ، وكان على صلة وثيقة بالامام محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، فأخذ عنه كثيراً من علمه وفقهه وهكذا استطاع الشافعي

أن يجمع بين منهجي استاذه الأول مالك بن أنس - زعيم مدرسة الحديث - وأستاذه الثاني محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة - زعيم مدرسة الرأي - وبفضل هذه الرضاة العلمية بين الاتجاهين المختلفين والمدرستين المتباينتين استطاع الشافعي أن يخرج عن آراء شيخه مالك ، وأن يضع منهجاً اجتهادياً جديداً ، يجمع فيه بين الاتجاهين .

ونستطيع أن نقول أن الشافعي يعتبر مجدداً بالنسبة لعصره ، فقد لجأ في تدريسه وتقريره للأحكام إلى منهج جديد يعتمد فيه على وضع القواعد الأساسية والأصول الكلية ، سواء بالنسبة لمصادر التشريع ، أو بالنسبة لوضعه « علم أصول الفقه » .

فالشافعي هو أول من وضع علم أصول الفقه ، ولم يكن الفقه - قبل الشافعي - خاضعاً لقواعد ثابتة ، وموازين دقيقة ، وإنما كان مجرد آراء ، وفروع مستنبطة ، فأراد الشافعي أن يضع لعلم الفقه والاستنباط ، منهجاً علمياً ، يخضع لقواعد وأسس ، وقد أعانه على هذه الغاية ملكة فقهية وحاسة ذوقية ، استطاع بها أن يستفيد من العلم الذي تلقاه عن شيوخ عصره ، من علماء الحديث وعلماء الرأي ، فوضع كتابه الذي سمّاه : « الرسالة » وهذا الكتاب هو أول كتاب وضع في علم أصول الفقه ، الذي ينسب إلى الامام الشافعي ، وله كتب أخرى أهمها « الأم » .

وقد قام تلاميذ الامام الشافعي من بعده بخدمة آرائه وتدوينها ، ونشر مذهبه في كثير من البلاد الاسلامية ولا زال حتى الآن قائماً في كثير من البلاد الاسلامية في الشام ومصر .

المذهب الحنبلي :

ينسب هذا المذهب إلى الامام أحمد بن حنبل المولود في بغداد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى فيها سنة ٢٤١ هـ .

وقد بدت على أحمد بن حنبل منذ طفولته علائم النجابة والنبوغ والورع

والتقوى والصلاح ، ولهذا اتجه الى دراسة الحديث والرواية ، فكان يرحل في الأمصار المختلفة ، باحثاً عن الحديث ، وخلال رحلاته المتعددة ، أتاحت له الفرصة للتعرف على كثير من العلماء والفقهاء ، وقد التقى بالامام الشافعي في الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول •

ويلاحظ أن أحمد بن حنبل قد جمع بين الحديث والفقه ، فهو محدث ، وهو فقيه ، وقد اشتهر بالحديث أكثر من اشتهاره بالفقه ، ولهذا عدّه بعض العلماء محدثاً وليس فقيهاً ، ولكن من المؤكد أن له آراء فقهية ناضجة ، ولعله ابتداءً محدثاً ، ثم تأثر بمن التقى بهم من الفقهاء ، أمثال أبي يوسف والشافعي ، فحاول أن يجمع بين الحديث والفقه ، الرواية والافتاء ، وذلك عن طريق الربط المحكم بين الحديث وما يتفرع عنه من أحكام •

إلا أن الملاحظ أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكتب آراءه الفقهية كما فعل الشافعي ، بل كان يكره كتابتها ، ولعل سبب ذلك يعود الى رغبته في ألا ينصرف الناس الى الفقه عن القرآن والسنة ، ولكن تلاميذه حاولوا أن يدوّنوا آراءه الفقهية التي سمعوها منه •

وقد اشتهر المذهب الحنبلي بكثرة الأقوال من غير ترجيح ، ويعود سبب ذلك الى ورع الامام ، وخشيته من ترجيح احدى الروايات المحتملة على الأخرى من غير دليل ، وبخاصة إذا كانت الرواية متعددة في المسألة الواحدة •

وإذا ذكر الامام أحمد بن حنبل ذكرت معه المحنة ، وذكرت معه التضحية ، فأحمد بن حنبل يبقى شعاراً لإيمان العالم وثباته ، وعدم خضوعه لأي لون من ألوان الضغط والإكراه من قبل السلطة ، ومجمل ذلك أن الخليفة المأمون تبنى رأي المعتزلة وقال : « ان القرآن مخلوق » ولم يكتف بذلك ، وإنما أراد أن يخضع الناس بقوة سلطانه لهذا الرأي ويحملهم عليه ، ورفض الإمام أحمد بن حنبل أن يحمل على رأي لا يعتقده ، ورفض الخضوع لرأي الخليفة ، فسيق الى السجن مكبلاً بالقيود ، وأرغم بكل وسائل الترغيب والترهيب والضرب

بالسياط ، على أن يقول ما لا يعتقد استجابة لرغبة الخليفة ، إلا أنه رفض ذلك بإصرار ، وظل في السجن ثمانية وعشرين شهراً ، يعاني أقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي ، ولكن ظل على موقفه ، ثم أخرج من سجنه ومنع من التصدي للناس أو التحدث إليهم ، وظلت المحنة مستمرة خلال عصر المعتصم والواثق ٠٠٠٠

والواقع لم يكن الامام أحمد يرى أن القرآن قديم ، ولم يكن يرى أنه مخلوق ، ولكنه كان يرى عدم جواز الخوض في هذه المسائل ، وبخاصة وأن السلف كانوا يتعدون عن الخوض في مثل هذه الموضوعات التي لا يعلمها إلا الله ولا يكلف الانسان بالبحث عنها •

ولا يفوتني في هذا المجال أن أذكر أن علماء المذهب الحنبلي يقررون ضرورة الاجتهاد في كل عصر ، وينكرون على من يقول بإغلاق باب الاجتهاد ، لأن الاجتهاد في نظرهم فرض كفاية ، لا يصح أن يخلو منه عصر من العصور ، ولأن الاجتهاد هو الطريق الطبيعي لمعالجة المسائل المستجدة والمستحدثة ، ولو أغلق باب الاجتهاد ، فإن هذا يؤدي ، إلى البعد عن الكتاب والسنة ، واعتبار آراء علماء المذاهب هي الأصول والمصادر ، فيعتمد الناس عليها بدل اعتمادهم على الكتاب والسنة ٠٠٠٠

وهذا رأي صحيح وفهم دقيق ، فالاجتهاد لا يجوز أن يكون بابه مقفلاً في أي عصر من العصور ، وعلى كل من توافرت فيه شروط الاجتهاد أن يجتهد ، امثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله ، وما تجده اليوم من عكوف على كتب مذهبية ، وإعطائها صفة القداسة ، وتحريم أية محاولة لمناقشة تلك الآراء ، هو انحراف عن المنهج الاسلامي الصحيح ، ومن الأجدى لعلمائنا أن يعكفوا على الكتاب والسنة ، ليستخرجوا منهما الأحكام ، فهما أولى بالناية والرعاية والقداسة (١) •

(١) ينظر مبادئ الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق النبهان ص ٢٤٧ وما بعدها •

الفصل الرابع

استقلال الشريعة الإسلامية

تميز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية :

تتميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع الوضعية بخصائص معينة ، تتعلق بطبيعة هذه الشرائع وأهدافها التي جاءت من أجلها . . ولذلك فمن العبث الكبير أن نقارن هذه الشريعة السماوية بالشرائع الوضعية .

فالقانون الوضعي ينشأ في الجماعة على شكل عادات وأعراف ، ثم يتطور مع الزمن تطوراً بطيئاً مع تطور الأمم ، وارتقائها الفكري والحضاري ، وعندها تأتي السلطة فتجعل من هذه الأعراف نظاماً آمراً يحل محل الأعراف السابقة .

ومن الطبيعي - والحالة هذه - أن تختلف القوانين الوضعية شكلاً ومضموناً وهدفاً ، نظراً للترابط الوثيق بين القانون وواقع الأمة الذي انبثق ذلك القانون عنها ، وبالتالي فإن القانون الذي نشأ في أحضان أمة من الأمم ، وفي ظروف حضارية معينة ، لا يصلح أن يكون قانوناً عاماً ونظاماً شاملاً لجميع الأمم ، كما لا يصلح لنفس الأمة إذا تغيرت ظروفها ، وانتقلت من حالتها السابقة ، إلى حالة مغايرة لها ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لإدخال تعديلات على القوانين بين فترة وأخرى ، انسجاماً مع التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي يحدث داخل الأمم .

والشريعة الإسلامية - بحكم مصدرها الإلهي - تختلف عن الشرائع الوضعية من حيث النشأة ، فهي لم تنشأ نتيجة عادات وأعراف ، فرضت نفسها في فترة زمنية معينة ، ولو كانت كذلك لوجب علينا إعادة النظر في هذه الشريعة ،

مع اختلاف الظروف التي أدت إليها، وهي لم تنشأ نتيجة لظروف اقتصادية أو سياسية مرت بها الأمة ، ولو كانت كذلك لوجب علينا تعديل هذه الشريعة، لتكون منسجمة مع التطورات التي مرت بها الأمة ، وإنما هي شريعة ، ربانية المصدر ، إنسانية الهدف ، عامة لجميع الناس ، شاملة لجميع جوانب الحياة ، جاءت لهداية الانسان (الذي خلقه الله) إلى الطريق السوي ، ومن هنا فهي ثابتة الأسس والمعالم ، لا تتغير بتغير ظواهر الحياة الواقعية ، نظراً لأنها تعتمد على مقومات وقيم ذات طابع إنساني ، لا ترتبط بظروف طارئة ، وليست هي نتائج جهد إنساني أو عقل بشري أو وليد ظروف معينة ، وإنما هي صادرة من الله ، وتلقاها الانسان ، لا ليكتفها بعقله ، ولا ليعديلها بحسب رأيه (لأنه يتلقاها من واهب الحياة - ومصدر العدالة) وإنما ليتكيف معها (يتكيف سلوكه على مقتضاها) ويستجيب لهديها ويجعلها المشعل الوضاء ، الذي ينير له حياته ، وينظم له سلوكه ، ويحدد له قيمه ، ويقوده إلى الطريق الذي اختاره الله ، والذي ينسجم مع الفطرة الانسانية (١) ، في صفاتها ونقاها .

وغاية الشريعة الإلهية ، ضبط الحركة البشرية ، لئلا تبضي شاردة على غير هدى ، فتضلّ الهدف ، وتنتهي بالانسان الى نكسة تقوده الى الضياع والتيه في معترك الحياة .

وإذا كانت الشريعة الاسلامية تهدف الى ضبط الحركة البشرية ، لضمان استمرار الحياة في مسارها الصحيح ، فإن هذا الضبط لا يعني الجمود ، لأن الجمود يتنافى مع واقع الحياة الانسانية ، وإنما هو ضبط الحركة داخل محور واسع يسمح بالانطلاق البناء ، بما يحقق الأهداف التي يسعى اليها الانسان ،

(١) الفطرة ليست تفكيراً خالصاً (عمل الفكر) ولا شعوراً محضاً (عمل القلب) ، إنها مزيج من التفكير والشعور ، إنها الانسجام بين عمل الفكر وعمل القلب ، بين افكار الانسان وعواطفه ، والدين جاء يخاطب الفطرة كلها (العقل والقلب معاً ، التفكير والشعور جميعاً) قال تعالى :

● فاقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . سورة الروم . الآية (٣٠)

ومن هنا تعرضت الشريعة الى المبادئ الأساسية والقواعد الكلية ، التي تمثل ذلك المحور الثابت والإطار العام ، وتركت للمجتمعات الاسلامية (المختلفة بيئة وحضارة - وزماناً ومكاناً) أن تتحرك ضمن هذه المبادئ الكلية ، عن طريق الدعوة الى الاجتهاد ، الذي يمثل الواقعية (الزمانية والمكانية) من حيث أن المجتهد ، يستطيع أن يستنبط من هذه النصوص ، عن طريق تفسيرها ، ما يلائم المجتمع الذي يعيش فيه •

ولهذا اشتملت الشريعة الاسلامية على نوعين أساسيين من المصادر ، فمنها مصادر أساسية وثابتة ، تمثل المحور الذي لا يجوز تجاوزه ، ومنها مصادر اجتهادية ، تمثل الحركة الدائبة التي لا يستطيع الانسان الاستغناء عنها •

وإذا ثبت لنا أن الشريعة الاسلامية متميزة عن الشرائع الوضعية ، من حيث المصدر ، والدوام ، والشمول ، والثبات ، فإن عظمة هذه الشريعة قد أغرت (أعداءها من المستشرقين) الذين هالهم أن تنبثق هذه الشريعة العظيمة عن دين وعقيدة ، وأمة يحملون لها في نفوسهم كل حقد وضغينة ، ولذلك طفقوا يكيلون لهذه الشريعة كل ما يملكونه ويقدررون عليه ، من نقد لأحكامها ، وتشكيك بمصادرها ، وينشرون حولها إشاعات مغرضة ، من حيث عدم صلاحها لمسايرة الحياة المعاصرة ، وعدم قدرتها على تلبية حاجات المجتمع الحديث • وفي الوقت الذي يفعلون هذا كله ، يريدون بذلك تشكيك المسلمين بدينهم وشريعتهم ، فانهم لا يملكون في داخل نفوسهم الا أن يعترفوا بعظمة هذه الشريعة وشمولها واستيعابها ، لكل ما يحتاج إليه الانسان ، ولما وصلت إليه أحدث النظريات القانونية •

ويظهر هذا الاعتراف - الذي يخلون بالاعلان عنه - من خلال دراستهم وأبحاثهم المغرضة التي يحاولون بها تبرير عظمة هذا التشريع ، ولا يجدون أمامهم إلا أن يقولوا بأن هذا التشريع قد تأثر بالتشريعات الوضعية التي سبقتها في الزمان - كالقانون الروماني - والثقافة الاغريقية - وكأنهم يظنون

على الحضارة الاسلامية أن تنجب ذلك التشريع العظيم ، الذي لم يستطيعوا
حجب ضيائه ، وطمس معالمه (١) .

وهنا تتساءل ؟

إذا كان هؤلاء المستشرقون يحاولون التقليل من أهمية التشريع الاسلامي ،
ويصفونه بالجمود وعدم الصلاحية ، فلماذا يحرصون على القول بأن أحكامه
مستمدة من القانون الروماني ، الذي يعتمدون عليه في تشريعاتهم ؟ وكيف
نستطيع أن نوفق بين ادعائهم بعظمة القانون الروماني وجمود التشريع الاسلامي ،
في الوقت الذي يدعي بعضهم بتأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي ؟



(١) اعرفت كثير من المؤتمرات الحقوقية التي عقدت في السلاسل الأوروبية في اوقات مغلقة منظمة
التشريع الاسلامي واستقلاله ، وقدرته على أن يكون مصدراً من مصادر القانون العام . ففي « لاهاي »
عقد المؤتمر الدولي للقانون المقارن عام ١٩٣٢ ، وأعلن الفقيه الفرنسي « لامير » خلال المؤتمر تقديره
للفقه الاسلامي ، وقرر المؤتمر اعتبار الشريعة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام ، واعترف
بأن هذه الشريعة قائمة بذاتها ، وانها حية وصالحة للتطور .

وعقد مؤتمر المحامين الدولي عام ١٩٤٨ في « لاهاي » وقرر ضرورة تنقيح الدراسات المقارنة
للتشريع الاسلامي لما فيه من مرونة وأهمية .

وفي باريس عقدت شعبة الحقوق الشرقية ، من « المحمّد الدولي للحقوق المقارنة » مؤتمراً في كلية
الحقوق في جامعة باريس ، للبحث في الفقه الاسلامي تحت اسم « اسبوع الفقه الاسلامي » برئاسة
المسعودي (مير) أساذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة باريس ، ووضع المؤتمر بالاجماع
تقريراً يفيد .

آ - ان مبادئ الفقه الاسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا تمارى فيها .

ب - وان اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ، ينطوي على ثروة من المفاهيم
والمعلومات ، ومن الاصول الحقوقية هي مناسبات الاعجاب ، وبها يستطيع الفقه الاسلامي
أن يسجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والوفيق بين حاجاتها .

(ينظر المدخل للفقه الاسلامي للدكتور محمد سلام مذكور - والمدخل الفقهي العام للاستاذ

مصطفى الزرقا) .

أثر العلماء (٦)

الفصل الخامس

مدى تأثير الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني

ذهب بعض المستشرقين الى أن الشريعة الإسلامية قد تأثرت بالقانون الروماني ، وذلك عن طريق تبنيها لبعض القواعد القانونية التي كانت موجودة بالقانون الروماني ، وغالى بعضهم ، فادعى بأن الشريعة الإسلامية ليست إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية ، مع تعديلات تتفق مع الظروف الدينية للدول الإسلامية ، واستدلوا على آرائهم بأدلة هي :

- ١ - كانت الشريعة الرومانية أسبق تاريخاً من الشريعة الإسلامية ، وكانت مطبقة في بعض البلاد التي انتشر فيها الاسلام ، كسورية ومصر .
- ٢ - وجود بعض التشابه في القانون الروماني والشريعة الإسلامية ، في بعض الأحكام الجزئية .

هذه هي كل الأدلة التي يسوقها دعاة هذه الشبهة من المستشرقين، ونلاحظ من هذه الأدلة ، أنها أدلة واهية ضعيفة ، لا تعتمد على أساس علمي ، أو دراسة موضوعية ، بل ان كلام المستشرقين عن الشريعة الإسلامية يعارض هذه الشبهة ، ويؤيد بطلانها ، فالمستشرقون يعترفون بأن طريقة الفقهاء المسلمين في البحث والاجتهاد ، تختلف كل الاختلاف عن طريقة الفقهاء الرومان ، حتى أن الفقيه الفرنسي « لامبير » أشاد بالطريقة المثلى التي اتبعها العلماء المسلمون في وضع القواعد الأصولية - التي تضبط عملية الاستنباط .

* * *

مناقشة بعض شبهات المستشرقين

من المؤكد ان القول بأن الشريعة الاسلامية قد تأثرت بالقانون الروماني هو مجرد دعوى ، والدعوى لا يمكن قبولها أو الاعتماد عليها ، ما لم تثبت بطريقة علمية ، ولم يعرض علينا المستشرقون الذين قالوا بهذا الرأي ، أي دليل موضوعي مقبول ، وكل ما ذكروه هو مجرد كلام ، لا يمكن أن يثبت أمام الحقيقة العلمية ، فالتشابه بين التشريعين الاسلامي والروماني - إن ثبت حقاً - لا يكفي للقول بأن الشريعة قد تأثرت بالقانون الروماني ، لأن التأثير لا يكون إلا عندما يتم التلاقي بين التشريعين ، واستمداد أحدهما من الآخر .

ولم يتم هذا التلاقي ، لأن الكتب القانونية الرومانية لم يثبت أنها ترجمت الى اللغة العربية ، كما وأن الفقهاء المسلمين لم يكونوا على علم بالسريانية ، وبخاصة في الفترة الأولى من تكوين التشريع الاسلامي . وقد يتبادر الى الذهن أن هذه القواعد الرومانية قد انتقلت الى اللغة العربية في عصر العباسيين عن طريق الثقافة الاغريقية التي تمّ ترجمة كثير من آثارها الى اللغة العربية .

ولكن يردّ على هذه الدعوى من ناحيتين :

أولاً : اقتضت حركة الترجمة على نقل الكتب الأدبية والفلسفية والعلمية ، ولم يثبت لدينا ترجمة أي كتاب من كتب القانون ، نظراً لأن الفقهاء المسلمين كانوا من أشد الناس تشدّداً في قبول الاجتهادات الفقهية التي لا تخضع للقواعد الأصولية ، وإذا كانت مخالفة القواعد الأصولية والتوسع في الاجتهاد على حساب النص مرفوضاً من الأساس لدى جميع الفقهاء ، فكيف يمكننا القول بأن الفقهاء قد تأثروا في اجتهاداتهم بالقانون الروماني ، ونحن نعرف بشكل واضح وجليّ أن الفقه الاسلامي قد استمدت أحكامه من النصوص الواردة في القرآن والسنة وفق منهاج دقيق وقواعد محكمة .

ثانياً : لم تبدأ حركة الترجمة إلا بعد أن اكتملت معالم التشريع الاسلامي وتحددت اتجاهاته وفق مناهج علمية ، مستمدة من قواعد كلفة .

بل ان العالم الايطالي « نالينو » يؤكد أن بعض القواعد القانونية الرومانية التي اشتمل عليها « الكتاب السوري الروماني » والذي ترجم في أواخر القرن الثامن الميلادي الى اللغة السريانية ، قد تأثرت ترجمته السريانية الى حد كبير بقواعد الشريعة الاسلامية .

ومن هنا يتبين لنا بطلان هذه الشبهة التي أثارها أحد المستشرقين ، بل إن معظم المستشرقين قد يبنوا بشكل قاطع زيف هذه الدعوى وبطلانها ، وبخاصة اذا عرفنا أن المدارس الفقهية الذي يرجع اليها الفضل في نموّ الفقه الاسلامي ، قد تكونت في كل من الحجاز والعراق قبل أن تبتدىء حركة الترجمة بوقت طويل ، وكان شيوخ هذه المدارس من أبعد الناس عن قبول ما يتعلق بالقانون الروماني أو غيره .

أوجه الاختلاف بين الشريعة والقانون الروماني

إذا ثبت لنا بطلان الدعوى التي أثارها أحد المستشرقين عن تأثير الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني ، فاننا نضيف الى ذلك ، أن الشريعة الاسلامية تختلف عن القانون الروماني في طابعها العام ، ومصادرها ، وأحكامها الكلية والجزئية .

أولا : الاختلاف في الطابع العام :

تمتاز الشريعة الاسلامية في طابعها العام عن القانون الروماني بالصفات التالية :

١ - العموم : ومن الثابت أن أحكام الشريعة تخاطب المكلفين ، دون أن تعطي أي اهتمام لتباين اللغات أو القوميات أو لاختلاف الألوان والأجناس ، ويعتبر جميع المسلمين في نظر الشريعة في منزلة واحدة ، يخاطبون بخطاب

واحد ، دون تمييز أو تفريق •

٢ - الاستمرار : تعتبر الأحكام الأساسية المستمدة من المصادر النقلية ثابتة غير قابلة للتبديل أو التغيير أو التعديل ، لأنها تمثل المحور الذي لا يجوز الخروج عنه ، والإطار الذي لا يجوز تجاوزه ، بخلاف الأحكام الاجتهادية ، فتمثل الأحكام المتغيرة ، التي تنسجم مع ظروف كل مجتمع ، بحسب الزمان والمكان •

٣ - الصفة الدينية : وهذه الصفة تجعل الشريعة الاسلامية ، مختلفة عن جميع القوانين الوضعية التي تكتسب الصفة الدينية ، فالشريعة الاسلامية لا تفرق بين الأحكام الدينية والمدنية ، ولا تفصل بينهما ، بخلاف القانون الروماني ، فانه كان يفرق بين القواعد الدينية والقواعد القانونية ، نظراً لعدم اشتغال الشريعة المسيحية على مبادئ قانونية كاملة ، مما جعلها قاصرة عن تلبية حاجات المجتمع في ذلك الحين ، إلا أن هذا لا يمنع من القول أن القانون الروماني الذي لم تكن له صفة دينية ، قد كان متأثراً بالتعاليم المسيحية (١) •

ثانياً : الاختلاف في المصادر :

تختلف مصادر الشريعة الاسلامية عن مصادر القانون الروماني ، فأحكام الشريعة مستمدة من القرآن والسنة ، والاجتهاد المرتبط بهما ، ولا يستطيع أي مجتهد أن يخرج في اجتهاده عن هذه المصادر الأساسية ، بل ان المصادر التبعية ترتبط بهذه المصادر الأساسية وتنشق عنها •

أما أحكام القانون الروماني ، فهي مستمدة من مصادر وضعية ، كالدساتير الامبراطورية ، والأحكام القضائية والتشريعات المدونة والقرارات (٢) •

(١) ينظر مبادئ تاريخ القانون للدكتور صوفي أبو طالب ص ٦٠٣ •

(٢) يقول الفقيه الفرنسي « زس » مؤكداً استقلال الشريعة الاسلامية عن غيرها من الشرائع : اني أشعر حينما أقرأ في كتب الفقه الاسلامي اني نسييت كل ما أعرفه عن القانون الفرنسي أو القانون الروماني ، واصبحت أعتقد أن الصلة منقطعة بين الشريعة الاسلامية وبين هذين القانونين ... فبينما يعتمد قانوننا على العقل البشري ، تقوم الشريعة الاسلامية على الوحي الإلهي فكيف يصور الوفيق بين نظامين قانونيين ، وصلا الى هذه الدرجة من الاختلاف •

(ينظر مبادئ تاريخ القانون للدكتور صوفي أبو طالب ص ٦٠٧) •

ثالثاً : الاختلاف في الأحكام :

لو رجعنا الى الأحكام الواردة في الشريعة الاسلامية والقانون الروماني ، لوجدناها تختلف عن بعضها ، اختلافاً واضحاً وكلياً ، في كل من الأحكام الكلية والأحكام الجزئية ، ونلاحظ هذا الاختلاف ، في كل جانب من جوانب القانون :

ـ **أحكام العقوبات :** من الثابت أن أحكام العقوبات في الشريعة الاسلامية المتعلقة بالجرائم الأساسية ، قد استمدت من القرآن والسنة ، كالتقصص والحدود ، وهي تختلف عن أحكام العقوبات في القوانين الوضعية •

ـ **أحكام الأحوال الشخصية :** معظم الأحكام المتعلقة بالأسرة ، كالطلاق وتعدد الزوجات ، والمهر وأحكام الإرث ، لا نجد ما يقابلها في القانون الروماني ، وفي الوقت الذي أقرّ القانون الروماني مبدأ التضامن العائلي ، الذي تنتقل فيه الحقوق والالتزامات من المورث الى الوارث ، فإن الشريعة الاسلامية قد أخذت بمبدأ فصل ذمة الوارث عن المورث ، وبالتالي فلا يعتبر الوارث مسؤولاً عن ديون المورث ، لانفصال الذمتين •

ـ **المعاملات والالتزامات :** أقرت الشريعة مبدأ الرضائية في العقود ، وجعلت العقد كافياً لانتقال الملكية من البائع الى المشتري ، بخلاف القانون الروماني ، فإنه لم يكتف بالعقد ، نظراً لعدم أخذه بمبدأ سلطان الارادة العقدية •

رابعاً : الاختلاف في مدى ربط القانون بالأخلاق :

من المعروف عن القانون الروماني ، أنه فصل بين القواعد القانونية والقواعد الأخلاقية في أكثر الأحيان ، ولهذا فإنه يمنع من تقييد تصرفات الأفراد في إبرامهم للعقود ، ولو كانت هذه العقود تتضمن استغلال أحد العاقدين للآخر ، وبناء على هذا فإنه يوصف بأنه قانون أناني فردي ، وقد استطاعت المسيحية أن تؤثر فيه ، وأن تربط بين قواعده والقواعد الأخلاقية •

أما التشريع الاسلامي فقد ربط ربطاً محكماً بين القواعد التشريعية والقواعد الأخلاقية ، وجعل لكل حكم جانبيين : جانب ديني وأخلاقي ، وجانب

آخر قضائي ، ولهذا اعتمد هذا التشريع على البواعث والدوافع الداخلية التي تدفع الانسان للتصرف ، وأخذ بهذه الدوافع ، وجعل « النية » هي التي تحدد طبيعة التصرف ، فتجعله حلالاً أو حراماً ، وإذا كان القضاء في الاسلام يحكم بمقتضى الظاهر المقترن بالدليل والبيّنة ، فان هذا القضاء لا يحل حراماً ، ولا يحرّم حلالاً ، ويبقى الاعتبار الديني هو الأساس الذي تنبني عليه الحقوق ، ولهذا يقول الرسول الكريم ﷺ :

● « إنما أنا بشر ، وانكم لتختصمون إليّ ، وعسى أن يكون بعضهم ألحنّ بحجّته من الآخر ^(١) ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها » •

ومن هذا الاعتبار فاننا نلاحظ الفرق بين مهمة القاضي والمفتي ، فالقاضي يحكم بحسب الأدلة المتوفرة لديه ، والمفتي يحكم بمقتضى الاعتبار الديني ، الذي يجعل حكم القضاء قاصراً عن تغيير طبيعة الحقوق والالتزامات •

ويعتبر الوازع الديني هو الملجأ النهائي الذي يعتمد عليه واضعو القانون ، لأنه العامل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لصيانة الحقوق ، ولهذا يقوم القاضي بتحليف المدعى عليه اليمين ، عندما يعجز عن إثبات دعواه بالبيّنة ، كما نلاحظ أن الدساتير والقوانين تعتمد على « اليمين » لضمان القيام بالواجبات واحترام الحقوق •

والواقع يؤكد أن اتّصاف التشريع الاسلامي بالصّفة الدينية يعتبر مزية من مزايا هذا التشريع ، ودعامة من دعائم إثبات الحقوق ، لأن القضاء لا يستطيع أن يستوعب إلا ما قام الدليل عليه ، فاذا عجز القضاء عن اثبات الحقوق ، فان هذه الحقوق تبقى قائمة ، نظراً لأن الوازع الديني هو الذي يدفع الطرفين لمحاسبة أنفسهما ، لئلا يتجرّأ أحدهما على نكران الحقيقة التي عجز القضاء

(١) أي أكثر قدرة على الاعراب عن حقه بما يتمتع من مواهب تمكنه من حسن البيان وقوة البرهان وابطاح الأدلة •

عن إيثباتها .

وأخيراً - ولكي نستطيع الاستفادة من تراثنا الفقهي بشكل جيد ، ولكي نضعه مشرقاً في معالمة ومضمونه وأحكامه ، علينا أن ننشئ مؤسسة علمية لخدمة الفقه الاسلامي تسمى بـ « المجمع العلمي للفقه الاسلامي ^(١) » على غرار المجمع العلمية الحديثة ، ومهمة هذا المجمع ، دراسة الفقه الاسلامي ^(٢) ، وتنقيحه ،

(١) ودعا كثير من العلماء الى إنشاء « مجمع فقهي » على نسق المجمع العلمية الاخرى ، تحقيقاً للهدف العام الذي يشعر المسلمون بالحاجة اليه ، في تجديد الفقه الاسلامي وتطوره ، وحتى يكون هذا المجمع وسيلة للاستشارة برأي الجماعة في الاستسناط بما يفني عن الاجتهاد الفردي .

وفي مؤسس رابطة العالم الاسلامي ، الذي عقد في مكة المكرمة سنة ١٣٨٤ هـ قدم الاستاذ الشيخ مصطفى الزرقا استاذ الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق بجامعة دمشق ، اقتراحاً بذلك جاء فيه :

« اذا اريد إعادة الحيوية لعقده الشريعة ، بالاجتهاد الواجب اسنماره شرعاً ، والذي هو السبيل الوحيد ، لمواجهة المشكلات الزمنية الكثيرة بحلول شرعية حكيمة ، عميقة البحث ، متينة الدليل ، بعيدة عن الشبهات والريب والمطاعن ونهزم آراء العقول الجامدة والجاحدة على السواء ، فالوسيلة الوحيدة هي : اللجوء لاجتهاد الجماعة ، بدلاً عن الاجتهاد الفردي ، وطريقة ذلك ، تأسيس « مجمع للفقه الاسلامي » بضم أشهر فقهاء العالم الاسلامي ، ممن جمعوا بين العلم الشرعي والاستشارة الزمنية ، وصلاح السيرة والتقوى ، ويضم الى هؤلاء ، علماء موثقين في دينهم ، من مختلف الاختصاصات الزمنية اللازمة في شئون : الاقتصاد ، والاجتماع ، والقانون ، والطب ، ونحو ذلك ، ليكونوا بمثابة خبراء ، يعتمد الفقهاء رأيهم في الاختصاصات الفنية .

ويتضح من هذه العبارة ، ان مهام هذا المجمع المقترح ، سنناول النظر في المسائل الجديدة التي حدثت في هذا العصر . ولم يكن لها نظير سابق ، كالتعامل المصرفي بانواعه ، واوراق اليانصيب ، وانظمة الشراك الحديثة ، والتأمين باقسامه ... وهكذا .

(٢) ويطالعنا الدكتور الشيخ مصطفى احمد الزرقا ، الاستاذ في كلية الشريعة في الجامعة الاردنية (حالياً) بقاله المنشور في ص ٣١ من مجلة العربي - عدد ذو الحجة ١٤٠٠ هـ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ ، بعنوان : « حتى يخرج الفقه من عزلته عن الحياة » بما يلي :

وهذا المجمع الفقهي المنشود ، يجب ان يكون تكوينه وتمويله (شعبياً - اسلامياً) ليكون بمنأى عن تأثير السلطات الحاكمة ، وان يختار اعضاؤه بطريقة مأمونة من كبار الفقهاء والخبراء الثقات ، في علمهم ودينهم وتقواهم ، وان تكون فيه هيئة متفرغة ، واعضاء غير متفرغين .

وكننت وضعت له مشروع نظام اجمالي ، لخطوطه العريضة ، وقدمته من نحو عشرين عاماً الى الامين العام لرابطة العالم الاسلامي الراحل ، الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله ، بطلب منه . واليوم ، بررت نوايه من سطح الارض ، برعمة نابئة والحمد لله ، في مكة المكرمة ، على يد رابطة العالم الاسلامي ، والامل معقود ان يستلحل باذن الله اجهزته ووسائله وسائر مقوماته الأساسية ، تباعاً واستجماعاً ، بمساعي المخلصين من اركان العلم والعمل ، المقدرين لجلال المسؤولية الاسلامية العامة ، واعوانهم ، في كل مكان ، بعيداً عن العصبية الانقليبية والمذهبية .

والإضافة إليه ، عن طريق الاجتهاد في المسائل المستجدّة ، والمسائل التي تغيّرت ظروفها عن ذي قبل ، ويستطيع هذا المجمع الذي يتكون أعضاؤه من كبار العلماء والفقهاء ، أن يقوم بخدمة هذا التشريع عن طريق الاجتهاد والتحقيق ، ووضع المعاجم والفهارس ، ليكون الرجوع الى المصادر الفقهية ميسراً وسهلاً ، للمختصين بالدراسات القانونية والشرعية من رجال العلم والقضاء .

هذا أمل نرجوه ، وهذه دعوة ندعو اليها *** فقد تتحقق في زمن قصير ، وقد تحتاج الى وقت طويل ، ولكن لا بد لأجيالنا المقبلة ، من أن تدرك أهمية هذه الدعوة ، وحميّة تحقيقها ولو بعد حين ، بإذن الله ويكون هذا الاجتهاد الجماعي ، المبني على أساس علمي سليم ، هو مشرق النور ومنبع الحكمة للأمة الاسلامية والانسانية جمعاء .

هذا ولا يسعني ختاماً ان اترك القلم في هذا المجال ، دون أن أشيد بالبادرة الفعلية الميمونة التي اتخذتها جامعة الدول العربية - في دائرتها القانونية - والتي نؤمل ان تفتح أعظم باب على الفقه الاسلامي يبلغ منه الى ساحة التطبيق ، في البلاد العربية والاسلامية ، الا وهو تقريرها وسيروها عملياً ، في صياغة مشروع قانون مدني موحد للبلاد العربية مستمد من الفقه الاسلامي وواف بالحاجات الزمنية الجديدة ، وبالاسلوب العصري الذي يسهل على القانونيين فهمه ويكون مؤصلاً تأصيلاً فقهياً ، بذكره ابصاحية ، ترد كل مادة فيه وحكم ، الى ماخذها من الفقه الاسلامي ، ومصادره ومراجعته في مختلف المذاهب التي يتكون منها أعظم تراث قانوني عرف في تاريخ النظام في الحياة البشرية ، ليستفاد بذلك من جميع المزايا والنظريات الفقهية النافعة المنتشرة في تلك المذاهب ، مما يجعل تلبية الحاجة الزمنية في القنين ميسورة غير عسيرة ، ويبعث الحياء من جديد في فقه المذاهب الشرعية ويجعل منه مرجعاً للقانون وأمله ، ومدداً للقضاء ورحاله .

وقد الفت الدائرة القانونية في جامعه الدول العربية لجنة من الخبراء القانونيين والشرعيين (الفقهاء) من البلاد العربية ، لوضع هذا المشروع العظيم ، للقانون المدني الموحد المنشود ، وباشرت اللجنة عملها قبل انتقال الجامعة العربية الى تونس ، ثم استأهته أخيراً ، بعد انتقالها - وكاتب هذه الأسطر (الدكتور الزرقا) من جملة أعضائها .

كما الفت لجنة عامة ، تمثل الدول الأعضاء في الجامعة ، لترفع اليها أعمال لجنة الخبراء تباعاً في دورات منتظمة ، لكل من اللجنتين الخاصة والعامة .

هذي البشري نرفها. لمن يهمهم مستقبل الفقه الاسلامي ، والمأمول بإذن الله أن تلتقي البلاد العربية قريباً على المشروع الموحد للقانون المدني ، الذي تعدّه الآن ، الجامعة العربية مشكورة ، وبذلك نكون البلاد العربية قد حققت ذاتيتها ، وأبت الا أصالتها القانونية ، وقواعدها الخالدة .

الباب الرابع

عظمة الرسول الكريم ﷺ

إن سرّ عظمة الإسلام يكمن وراء تربيته المثلى التي تجسدت في شخصية الرسول ، المربّي الأعظم صلى الله عليه وسلم .

لقد أدّب به ربّه فأحسن تأديبه ليكون « بقلبه الكبير وعقله الحكيم ، وأخلاقه الكريمة » مرآة صافية تعكس أنوار الرحمة والعدالة الإلهيّة ، والتعبير الصادق عن معاني الرسالة التي بعث من أجل تبليغها للعالمين .

لقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولا يزال الأسوة الحسنة والقُدوة المثلى لكلّ إنسان ينشد بصدق وإخلاص ، ثقة الله الغالية ، والمرشد الأعظم للإيمان الصادق والوعي الاجتماعي الصحيح .

★ ★ ★

أشرنا - في مستهل بحثنا التمهيدي ، أنه استهدف التعريف بكتاب الله وسنة رسول الله ، باعتبارهما يمثلان القوة الدافعة للحركة الحضارية ، لذلك ، واستكمالاً لهذا المعنى ، سنستعرض معاً هذه الصورة (العلمية - التربوية) لصاحب الرسالة ، صاحب الخلق العظيم ﷺ لتتجلى لنا عظمة الاسلام ، في قلبه الكبير ، وعقله الحكيم ، وقدوته المثلى .

جاء رسول الله ﷺ الى الدنيا كما يجيء أي انسان ، ولبث في قومه أربعين سنة ، لم يعرف فيها إلا برجاجة العقل وسماحة الخلق ، وما أن جاء الوحي حتى استحال إنساناً آخر ، كأنّه ليس من أهل هذه الدنيا ، وتكشف عن قوى خارقة تصنع المعجزات ، وتأتي بالأعاجيب .

● تجرّده لله تعالى :

ما كلد الوحي يتنزّل عليه ﷺ حتى أشرق قلبه بالإيمان الصحيح ، فكان يرى أنوار الله في كل شيء ، يرى مظاهر جماله وجلاله ودلائل قدرته وعظمته ، وآثار حكمته ورحمته ، يرى ذلك كله في نفسه ، وفي الطبيعة من حوله ، في الأرض وفي السماء ، في الحياة والموت ، فتفعل نفسه بهذا كله ، فيهتف من أعماق قلبه :

« اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن » ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن » ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبؤون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله .
وتبقى هذه الحقيقة ماثلة في ضميره ، فلا تفارقه في ليله أو نهاره ، ولا تزايله في نومه أو انتباهه ، ولا تزيد على الأيام إلا تألّقاً .

وإنها لتتجلى ، في زهده وورعه ، وعزوفه عن متاع الدنيا وزهرتها ، كما تبدو في صلاته الخاشعة ، وذكره الدائم ، ودعائه الحارّ ، في قلبه الرحيم ، وعقله الحكيم .
● إنسانيته :

وكما أضاء الوحي جوانب نفسه فعرف الحقيقة الكبرى ، فقد حرّك كوامن الخير ، وعواطف النبل كذلك . قال الله تعالى :

- فبما رحمة من الله لنت لهم « آل عمران ١٦٠ » .
- وكان فضل الله عليك عظيماً « النساء ١١٣ » .

● وإنك لعلی خلق عظیم « القلم ٤ » •

كان رسول الله ﷺ دائم الذكر لله تعالى ، يصل رحمه ، ولا يقابل أحداً بما يكره ، ويقبل معذرة المعتذر إليه ، يبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة ، من سأله حاجة لم يردّه إلا بها ، أو بميسور من القول ، وصابره حتى يكون هو المنصرف ، وهو خصيب الوجه ، بسط الكف ، يكرم من دخل عليه ، حتى ربّما يسط له ثوبه يجلس عليه ، يذل من ذات نفسه ، لا يستأثر بشيء ، يكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم ، وهو أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا ، وأرحم الناس بالناس ، وأنفع الناس للناس ٠٠٠٠

وصفه علي كرم الله وجهه فقال :

« كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمّة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه » •

أرأيت غير محمد جمع كل هذه الصفات التي تمّ التأليف بينها ، وأحكم أمرها ، وظهرت آثارها ، لتكون مثلاً أعلى ، ونوراً يضيء للناس ، ويبصّرهم جوانب الخير ، ونواحي الفضيلة ٠٠٠ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟ قال الله تعالى :

● « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨

● « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » الأحزاب : ٢١

● « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحياة الفاضلة ، التي تقوم على أساس من العقائد الصحيحة ، والأخلاق الكريمة ، والعبادات ، المخلصة للإنسان

من عبودية غير الله ، وسلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدل الذي لا عنف فيه ، ولا غلظة معه ، وما زال يدعو في قوة وصلابة وإيمان حتى نجح نجاحاً لم يحظ به داعية قبله ولا بعده ، لقد غيّر الآراء والأفكار والنظرة الى الحياة ، ليهتدي الانسان الى ربّه ، وليعرف مركزه في الوجود ، ومصيره الذي ينتظره ، وترك أمة مسلمة تدين بهذه المبادئ ، وتؤمن بها ، ايماناً دفعها الى أن تبسط سلطانها في الآفاق لتطارد الظلم والفساد في كل مكان ، ولتقيم قواعد العدالة والاحسان في العالمين •

ومرّ عليه الصلاة والسلام في يوم عيد ، بصية يلعبون ، ووجد بجانبهم طفلاً لا يشاركهم في لعبهم ، وعليه أثر الحزن فدنا منه ، وسأله عن أمره ، فأجابه بأنه يتيم ، وأن أمه شغلت بزواج آخر ، وليس له من يعوله ، وهذا سبب عزلته وحزنه ، فسرّى عنه عليه الصلاة والسلام وقال له ، ألا ترضى أن يكون محمد لك أباً ، وعائشة أمّاً ، وفاطمة الزهراء أختاً ؟ وكساء ، فمضى الولد فرحاً مسروراً ، وتربّى بين سيّد الآباء ، وأجلّ الأمهات ، وخير الأخوات •

روى الطبراني عن كعب بن عجرة قال :

جلسنا أمام رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا معشر الأنصار ، ورهط من بني هاشم والمهاجرين ، فاختصمنا في رسول الله ﷺ أيّنا أولى به وأحب إليه •

قلنا معشر الأنصار : آمنا به واتبعناه وقاتلنا معه ، وكتيبته ضدّ عدوّه ، فنحن أولى برسول الله وأحبهم إليه •

وقال اخواننا المهاجرون : نحن الذين هاجرنا مع رسول الله ، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال ، وقد حضرنا ما حضرتم وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولى برسول الله ، وأحبهم إليه •

وقال اخواننا من بني هاشم : نحن عشيرة رسول الله ﷺ وحضرنا الذي

حضرتم وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه •
فخرج علينا رسول الله ﷺ فأقبل علينا فقال : إنكم لتقولون شيئاً ،
فقلنا مثل مقاتلنا ••• فقال للأنصار صدقتهم من يردّ هذا عليكم !! وأخبرناه بما
قال اخواننا المهاجرون •

فقال : صدقوا ، من يردّ هذا عليهم !! ثم قال ألا أقضي بينكم ؟ قلنا بلى :
بأينا أنت وأمتنا أنت يا رسول الله قال : أما أنتم يا معشر الأنصار، فأنما أنا أخوكم •
فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به وربّ الكعبة — أما أنتم يا معشر المهاجرين ،
فأنما أنا منكم •

فقالوا : ذهبنا به وربّ الكعبة — وأما أنتم يا بني هاشم فمَنّي وإليّ •
فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله ﷺ •

هذا قبس من أخلاق الرسول الكريم وسيرته العطرة ، وجدير بنا في نهاية
المطاف ، أن نشير الى هذه الشخصية الجليلة — كقائد عسكري — خاض غمار
الحرب في أكثر من غزوة وموقعة وسريّة ، وقد تمّ على يديه وفي حياته توحيد
الجزيرة العربية •

● الرسول الكريم وثبات المقصد :

إن مبدأ (المقصد) أو مبدأ الغرض — في العلم العسكري — يتوخّى
تحديد الهدف ، الذي من أجله سوف تستخدم القوات المسلحة ضد العدو ،
فيكون ذلك الهدف واضحاً ومحدّداً ومعروفاً ، لا يحتمل اللبس أو الغموض
أو التفسير أو التأويل أو الاجتهاد ، ويكون محور خطة العمل ، وموضوع خط
العمليات ، وبكلمة واحدة ، إن مبدأ المقصد يعني الثبات والاصرار على تحقيق
الهدف المحدد ، مهما بلغت التضحيات ، ومهما كانت النتائج ، وفي هذا المجال
نقول ان الرسول الكريم يعتبر نموذجاً يحتذى به في ثبات المقصد •

يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك^(١) :
إن ناساً من قريش اجتمعوا ، فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ،
والأسود بن المطلب ، والأسود بن عدي يغوث ، في نفر من مشيخة قريش ، فقال
بعضهم : انطلقوا بنا الى أبي طالب ، فنكلمه فيه ، فليصفنا منه ، فليأمره فليكشف
عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه الذي يعبد ، فاننا نخاف أن يموت هذا الشيخ ،
فيكون منا شيء ، فتعيّرنا العرب يقولون : تركوه ، حتى إذا مات عمّه تناولوه...
قال : فبعثوا رجلاً منهم يدعى : المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب ،
فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم ، يستأذنون عليك ، قال أدخلهم ، فلما
دخلوا قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأ نصفنا من ابن أخيك ، فمره
فليكشف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه...
قال : فبعث إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه الرسول الكريم قال : يا ابن
أخي : هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد سألك النصف (أي الانصاف)
أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك ، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا
تحملني ما لا أطيق ، فظن الرسول الكريم أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله
ومسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال الرسول الكريم :
« يا عمّاه ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك
هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

وقد أثبتت الحوادث بعد ، أن الرسول الكريم بقي طوال حياته يناضل
لتحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ، حتى انتقل الى جوار ربّه ، ولا نعتقد
أن قد وجد قائد عسكري في العالم يتمتع بهذا القدر من ثبات المقصد ، ووضوح
الرؤية ، والاصرار على تحقيق الهدف .

● الرسول القائد والاستطلاع :

يعتبر الاستطلاع عنصراً أساسياً في تقدير نتيجة الحرب ، لأن الطرف الذي

(١) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٦٥ - ٦٧ ، طبع مطبعة الاستقامة في القاهرة ١٩٣٩ م .

يملك عن خصمه معلومات وافية ودقيقة ، هو الطرف المؤهل لربح المعركة ، أما الطرف الذي لا يعرف عن خصمه شيئاً ، ففي أحسن الأحوال يقاتل عدوه وهو مغمض العينين ، وقد أدرك الرسول القائد أهمية الاستطلاع ، ومعرفة أحوال العدو ، وأولاه الاهتمام الذي يستحق ، وعلى ضوء المعلومات المؤكدة عن حال العدو ، وعدده وإمكاناته ، كان الرسول الكريم ﷺ يتخذ القرارات الأساسية ، في اختيار نوع المعركة ، هل هي هجومية (كما حدث في غزوة بدر) أو دفاعية (كما حدث في غزوة الخندق) •

● الرسول القائد والتمويه العملياني :

يحتل التمويه العملياني أهمية بارزة في العلم العسكري ، ويعتبر توقيت العملية ، والمحافظة على سرّيتها ، جزءاً أساسياً من التمويه العملياني ، ومن الثابت تاريخياً ، أن الرسول القائد كان يعير هذا الموضوع أهمية فائقة ، وفي أول سرية أرسلها لاعتراض قوافل قريش ، كانت بقيادة « عبد الله بن جحش الأسدي » كتب له كتاباً (بواسطة كاتبه - أبيّ بن كعب) فيه يأمره ، ألاّ يقرأه إلاّ بعد ليلتين ، فلما سار ليلتين ، قرأ الكتاب فاذا فيه :

« أن سر الى نخلة ، على اسم الله وبركته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى ، فيمن اتبعك منهم حتى تقدم ببطن نخلة ، فترصد بها غير قريش » (١) •

● الرسول القائد والحرب النفسية :

أعطى التطور الكبير في الحروب الحديثة ، صورة الشمول ، وهكذا أضحت المعارك لتشمل كل الجبهات ، وبكل ما يمكن استخدامه من أسلحة ، وفي هذه الحرب الشاملة ، توجد جبهات قتال ، كما توجد جبهات داخلية ، والصراع المسلح هو محصلة العوامل العسكرية والاقتصادية والنفسية ، ومنها جاء تعبير « الحرب الشاملة » •

(١) مغازي رسول الله - للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ص ٨ •

والحرب النفسية هي أحدث أسلحة الحرب ، توجّه ضدّ : الفكر ،
والعقيدة ، والشجاعة ، والثقة ، وضدّ الرغبة في القتال ، وتستخدم في الدفاع ،
كما تستخدم في الهجوم •

ذلك لأنها تحاول أن تبني قوى الشعب ، والجنود المعنوية ، بينما تحطم
في آن واحد ، قوى العدوّ المعنوية • ولقد استخدم الرسول القائد الحرب
النفسية في معظم معاركه وغزواته حتى قال : « نصرت بالرعب » •

وفي فتح مكة ، يتجلّى لنا دور الحرب النفسية بيّناً واضحاً ، في تحقيق
النصر على العدو ، بدون استخدام السلاح وبدون إراقة قطرة دم •

وفي العاشر من رمضان سنة - ثمان من الهجرة - خرج الرسول القائد
متوجّهاً الى مكة ، على رأس جيش قوامه عشرة آلاف رجل ، ولما نزلوا
« مر الظهران » على مسيرة يوم واحد من مكة ، أمر الرسول الكريم أصحابه أن
يوقدوا النار في المعسكر ، وعلى رؤوس الجبال المحيطة بمكة ، ليدبّ الرعب في
قلوب قريش ، فيستسلموا بدون قتال ، ويدخل الرسول القائد مكة ، من غير أن
يسفك دمًا ، وتظل مكة بلداً محرماً كما كانت •

فلما بلغ قريشاً مسير الرسول ﷺ وسمعوا صهيل الخيل ، راعهم ذلك ،
فبعثوا أبا سفيان بن حرب يستطلع الأخبار وقالوا : إن لقيت محمداً ، فخذ لنا
منه أماناً ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة قط نيراناً ولا عسكرياً ، هذه كنيран
عرفة ، ثم أسلم أبو سفيان ، فلما أراد الرجوع ، أمر الرسول القائد - العباس -
أن يجلس أبا سفيان بمضيق الوادي ، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ، وهذا
ما يعرف في أيامنا باستعراض القوات المسلحة الذي يراد منه إظهار القوة ،
وإلقاء الرعب والرهبة في نفوس الأعداء ، ولعل العرض العسكري الذي أجراه
« هتلر » قبيل الحرب العالمية الثانية ، أمام رئيس الوزارة البريطانية - تشمبرلن -
في برلين - يمكن أن يعتبر مثالا حياً لموضوعنا هذا •••

قال العباس : ففعلت ما أمرني به رسول الله ﷺ وكلما مرّت قبيلة ،

كبرت ثلاثاً عند محاذاة أبي سفيان فيقول يا عباس : من هذه ؟ فأقول : سليلهم فيقول : ما لي ولسليم •• ثم تمرّ القبيلة الأخرى ، فيقول يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول مزينة ، فيقول : مالك ولمزينة ، وهكذا حتى مرّت القبائل كلها ، ما تمرّ قبيلة إلاّ وسألني عنها ، فاذا قلت بنو فلان قال : ما لي ولبنّي فلان (وهو كلام يقوله الرجل إذا خاف من شيء ، أو شعر منه ضرراً) ، حتى مرّ به الرسول القائد في كتيبته الخضراء ، ألبسهم الحديد ، - والعرب تطلق الخضرة على السواد ، كما تطلق السواد على الخضرة - وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلاّ الحديد من الحديد ، فيها ألف دارع (لابس الدرع) وعمر بن الخطاب يزجل بصوته ويقول : رويداً حتى يلحق أولكم آخركم • فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة •• والله يا أبا الفضل (كنية العباس) لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقلت يا أبا سفيان : إنها النبوة ، قال : نعم •

ثم قال له العباس التجيء الى قومك ، فلما جاء أبا سفيان قومه ، صرخ فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فأسلموا تسلموا •••••

فاستسلم أهل مكة ، ودخل الرسول القائد البلد الحرام بلا مقاومة •

● الرسول العربي والعامل المعنوي في الحرب :

تؤثر الحالة المعنوية للقوات المحاربة تأثيراً حاسماً على التقدير الصحيح للموقف ، وعلى سير العمليات ، وبالتالي على القرارات التي تصدرها القيادات العسكرية •

وهذا أمر طبيعي ، طالما أن القلب البشري هو نقطة الانطلاق ، في كل المسائل المتعلقة بالحرب ، ويعتبر العامل المعنوي أحد العناصر الهامة في كل حرب ، لأن النصر يعتمد في النهاية على « حالة الروح المعنوية لتلك الجموع التي تسيل

دماؤها في ميدان القتال » •

ويقول القائد الحربي المعاصر « كلاوز فيتز » في كتابه « الحرب » :

« ان القيم المعنوية من أهم العناصر في الحرب ، فهي الروح التي تطبع الحرب بطابعها ، وهي التي تفرض نفسها مسبقاً على الارادة التي تحرك وتوجه كتلة القوات المسلحة ، ملتحمة معها بشكل ما ، باعتبار أن الارادة نفسها قيمة معنوية » •

ويرى الجنرال (جان بيريه) في كتابه « الذكاء والقيم المعنوية في الحرب » :
« إن قيمة القيادة وعدد المقاتلين وتدريبهم ، وقوة الأسلحة ووفرتها ، كل هذا بعيد عن أن يكون كل شيء في الحرب ، وكل هذه الصفات لا تعد شيئاً ، إذا لم تثبت القيم المعنوية فيها الروح ، فالقتال في أساسه كفاح معنوي ، والأسلحة لا حياة فيها إذا لم يستخدمها رجال من لحم ودم ، بقوتهم وضعفهم ، ومهما كانت القوى المادية لطرف من الأطراف كبيرة ، فانها لا تحقق أبداً تدمير الخصم تديراً كاملاً ، فبين من يتبقون على قيد الحياة تقرر القوى المعنوية نجاح طرف من الأطراف ، ولا يغلب الذي الذي تكبد أكبر الخسائر في الرجال والعتاد ، وانما يغلب من تحطمت قواه المعنوية قبل الآخر •

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن العامل المعنوي وقيمه في الحرب ، سنحاول استعراض العناصر التي يتكون منها العامل المعنوي ، والتي تؤثر تأثيراً متفاوتاً ومتشابكاً ، في المحصلة النهائية للقوى المعنوية ، لنرى الدور الكبير الذي قام به الرسول القائد ﷺ في هذا المجال •

١ - الإيمان بعدالة القضية :

إذا آمن الجندي بالقضية التي يقاتل من أجلها ، وبعدالة هذه القضية ، يستطيع أن يجترح (١) المعجزات •

وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل دلالة قاطعة على صحة هذه النظرية ، وثبتت

(١) يجترح : يعمل بجوارحه وأعضائه •

أنها ما تزال صالحة حتى أيامنا هذه ، وفي هذا المجال ، عمل الرسول الكريم
— قبل كل شيء — على غرس الايمان في نفوس المحاربين وأقنعهم أنهم يقاتلون
في سبيل مثل أعلى ، وهو « إعلاء كلمة الله — وراية الاسلام » ونشر رسالته على
الملأ كافة ، وأنهم منتصرون لا محالة ، لأنهم ينفذون إرادة الله على الأرض •

وتعزيراً لايمان المسلمين ، بعدالة الحروب التي يخوضونها في سبيل نصره
الحق ، نزل العديد من الآيات القرآنية التي تعزز هذا الاتجاه ، وتوحي الى
المؤمنين ، بأنهم ليسوا وحدهم في المعركة ، وأن الله معهم في كل الأحوال ، وأن
الملائكة ستقاتل إلى جانبهم إذا اقتضى الأمر • قال تعالى :

● « إذ يوحى ربك الى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي
في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق » سورة الأنفال : الآية ١٢ •

٢ - التحريض والحض على القتال :

يعتبر التحريض والحض على القتال عنصراً أساسياً في رفع الروح المعنوية
لدى المحاربين ، من أجل إذكاء شعلة الحماسة في نفوسهم ، ومن أجل شدّهم
الى القضية التي يقاتلون في سبيلها ، وهكذا يصبح المؤمنون جميعاً في حالة
يقظة ثورية ، وتأثّر نفسي ، وتوق دائم إلى لقاء العدو • قال تعالى :

● يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم •
تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير
لكم إن كنتم تعلمون • يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار
ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم • وأخرى تحبونها نصر من
الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين (١) •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● « الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ومن ترك الجهاد في سبيل
الله ، ألّسه الله الذلّ وشمله بالبلاء » •

(١) سورة الصف : الآيات : ١٠ - ١٦ •

٣ - الشجاعة في مواجهة الخوف :

كيف استطاع الرسول القائد ﷺ أن يقهر الخوف ، وينتزع من نفوس أصحابه ، ويخوض بهم المنايا ، وهم غير آبهين بما يلاقون ؟... الموضوع في غاية البساطة والصعوبة في آن واحد... •

لقد غرس الرسول الكريم في نفوس أصحابه الايمان بالرسالة ، التي نزلت عليه من السماء ، وبرهن لهم ، أن الحياة الدنيا فانية ولا خلود فيها ، وأن على المسلم أن يجاهد في سبيل الله ، من أجل الآخرة ، وهي دار الخلود ، وبقدر ما يكون سبباً الى الموت في سبيل الله ، وفي سبيل نصرته الدعوة الاسلامية ، يكون قريباً من الله تعالى ، قال الله تعالى :

- ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون .
سورة آل عمران : آية ١٦٨

وعن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم جلوس فقال :
● ألا أخبركم بخير الناس منزلاً يوم القيامة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال :
رجل أخذ برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل .
ومن ذلك يتبين لنا بوضوح ، أنه لم يسبق لقائد عسكري قاد جنوده الى الموت ، وهم راضون مستبشرون كما قاد جنوده الرسول الكريم ﷺ .

٤ - وحدة الصف :

لقد دعا الرسول القائد الى وحدة الصفوف ، لأن الوحدة والتلاحم سبيل القوة والنصر ، ولا شيء أعظم شأناً في المعارك الحربية من وحدة المقاتلين ، الذين ينطلقون من منطلق واحد ، لغاية واحدة ، بروح وعقيدة واحدة .
ولقد سعى الرسول الكريم دائماً وأبداً ، لايجاد الأخوة الصادقة بين المؤمنين ، قال تعالى :

- « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » •
سورة الصف : آية : ٤

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذه هي العناصر الأساسية في العامل المعنوي ، وقد أولاها الرسول الكريم — كما رأينا — اهتماماً خاصاً ، لم يسبق إليه قائد عسكري آخر .

وفي ختام هذا البحث ، يطيب لي أن أنقل ما كتبه الفيلسوف المؤرخ (ويل ديورانت) عن الرسول العربي ، في كتابه (قصة الحضارة) (١) :

« وإذا حكمنا على العظمة ، بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا أن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي ، في شعب ألقى به في دياجير الهمجية ، حرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي قائد آخر في التاريخ كله » .

وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة ، صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها ، متفرقة كلمتها ، وأصبحت بعد وفاته ، أمة موحدة متماسكة . وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام ديناً سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً ، قوامه البسالة والعزة والإباء ، وكرم النفس ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، تنطق بآيات الحكمة والرحمة والعدالة .



(١) قصة الحضارة (ويل ديورانت) الجزء الثاني - من المجلد الرابع - عصر الايمان ص ٤٧ .

فلاسفة الغرب

يعترفون بعظمة الرسول الكريم ﷺ

قال الفيلسوف الانكليزي (برناردشو) :

● « إن العالم هو أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد ، هذا النبي الذي أحلّ دينه في موضع الاحترام والإجلال ، فانه أقوى دين على هضم جميع المذنيات ، خالد خلود الأبد ، واني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا في الدين على بيّنة ، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوربا) ، وإذا أراد العالم النجاة من شروره ، فعليه بهذا الدين ، إنه دين السلام والعدالة والسعادة ، في ظل شريعة متمدينة محكمة ، لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ، ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً » ... وقال أيضاً :

إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الانسانية ، انني أعتقد لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث ، لنجح في حلّ مشاكله بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة ، إن محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآتين .

وقال العالم الفرنسي (لامارتين) :

● « إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهليّة شعبه ، وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الاسلامية ، إن كل ذلك أدلّة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذى ، أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ، ورسول ومشرّع ، وهادٍ للانسان الى العقل ، وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللّب ، وهو مؤسس دين لا فرية فيه ، ولا صورة فيه ،

ومُنشئ عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة في السماء من ناحية الروح
والنفوس ، فأَي رجل أدرك من العظمة الانسانية مثلما أدرك وأي آفاق بلغ أي
إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد

وقال العلامة (فارس الخوري) من كبار الشخصيات السياسية في القطر
العربي السوري :

● « إن الدين الاسلامي الذي جاء به محمد ، أوفى الأديان وأكملها ، ولم
يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التي دعا الناس اليها
باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .
إن محمداً أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم ، فلقد استطاع توحيد العرب
بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة ، فتحت العالم (المعروف يومئذ) وجاء
لها بأعظم ديانة ، عيّنت للنساء حقوقهن ، وواجباتهن ، وأصول تعاملهن ، تعدّ
من أنقى دساتير العالم وأكملها » (١) .



(١) بنظر كتاب فضل الحضارة العربية الاسلامية على العالم - للاستاذ زكريا هاشم زكريا
ص ٣٩٤ وما بعدها .

نبي الاسلام

(في حديث - تولستوي - الأديب الروسي الكبير)

● « ولد نبيّ الاسلام في بلاد العرب ، من أبوين فقيرين ، وكان في حداثة سنّه راعياً ، يميل الى العزلة والانفراد في البراري والصحارى ، متأملاً في الله خالق الكون ، لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة ، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات ، وقدّموا لها الضحايا المختلفة • وكان كلما تقدّم به العمر ، ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الناس والشعوب •

وقد ازداد ايمان محمد بهذه الفكرة ، فقام يدعو أهله وأمته الى فكرته ، معلناً أن الله اصطفاه لهدايتهم ، وعهد إليه إنارة بصائرهم ، وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة ، وراح يعلن عن عقيدته وديانته •

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها الرسول ، هو أن الله واحد — لا إله إلاّ هو — ولذلك لا يجوز عبادة غيره ، وبأن الله عادل ورحيم بعباده ••• وان مصير الانسان النهائي متوقف عليه وحده ^(١) ، فان الله يأجره في الحياة الآخرة أجراً حسناً ••• وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه ، فانه يعاقب في الآخرة عقاباً أليماً ، وان الله تعالى يأمر الناس بمحبته ، ومحبة بعضهم بعضاً ••• ومحبة الله تكون بالصلاة (المحافظة على طاعة الله) ومحبة الناس تكون بمشاركتهم في السراء والضراء ، وان الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يقضي

(١) ومعنى ذلك أن الله ترك للانسان — حرية الارادة في صياغة سلوكه (بحثنا عن المستقبل الافضل) وعلى الانسان المؤمن أن يجاهد نفسه وهواه (علماً بشريعة الله — وعملاً بطاعته) حتى يتوجه نحو غاية وجوده (بقوة العلم — ويقظة الايمان) يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ولا بد ان يكون الجزاء — في شريعة الله — من جنس العمل •

عليهم أن يبذلوا وسعهم لابعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية ،
والابتعاد (المحرّم) عن الملذات الدنيوية ، وانه يحتّم عليهم أن لا يخدموا
الجسد فحسب ويعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهدّبوها •

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبيّ الله الوحيد ، بل اعتقد أيضاً بنبوّة
موسى وعيسى ، وقال : إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم • وفي
سن دعوته الأولى ، احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة ، شأن
كل نبي قبله ، - نادى أمته الى الحق - ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من
عزمه ، بل تابّر على دعوة أمته • وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم ،
وزهدهم في الدنيا ، وحب العمل والقناعة ، وبذلوا جهدهم في مساعدة إخوانهم
في الدين عند حلول المصائب بهم •

ولم يمض على جماعة المؤمنين الزمن الطويل ، حتى أصبح الناس المحيطون
بهم ، يحترمونهم احتراماً عظيماً ، ويعظمون قدرهم ، وراح عدد المؤمنين
يزداد يوماً بعد يوم •

ومن فضائل الدين الاسلامي ، أنه أوصى خيراً بغير المسلمين ، وأمر بحسن
معاملتهم ، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما في هذا التسامح العظيم •
ثم ختم كلمته قائلاً :

لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة
الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقيّ والتقدم ، وهذا
عمل عظيم لا يفوز به إلاّ شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير
بالاجلال والاحترام •



الباب الخامس

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية

لمحة موجزة عن تاريخ العلوم :

نعيش اليوم في عصر العلم ، عصر الذرة ، وقد عاش أناس قبلنا في عصر الحجر ، ثم البرونز ، ثم الحديد ، ثم البخار ، وفي كل يوم يوافينا العلم بالجديد والغريب ، وآياته الباهرة تحيط بنا من كل جانب ، في أعماق الماء وأجواز الفضاء أو تبدو ماثلة بين أيدينا على سطح الأرض ، وإذا كنا نعجب بحاضره ، فما أجدرنا أن نقف على ماضيه ، لأنه مهّد - دون نزاع - الى هذا الحاضر ، وهما معاً يفتحان السبيل أمام المستقبل .

وللعلم تاريخ طويل ، منذ بدأ الانسان يعمل ويفكر ، وما سجّل منه يرجع الى بضعة ملايين من السنين ، ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها ، ولا شعب بعينه ، بل أسهم فيه بنو البشر جميعاً ، كلّ بنصيبه ، فتاريخه - إذن - تاريخ الحضارة الانسانية ، يسجل حركاتها ، ويتتبع تطوراتها ، ويعرض مراحل نموّها وازدهارها ، وفترات تلاثيها وانقراضها ، ويبين مدى التلاقي والتعاون ، بين الحضارات المتعاقبة .

وتاريخه أيضاً تاريخ العقل البشري ، يرسم محاولاته الأولى ، التي أملت لها الغريزة والحاجة ، ويسايره إلى أن ينتهي به الى ذلك التفكير المنطقي ، الذي يلاحظ ويجرّب ، ويحلّل ويركّب ، ويصنّف ويعمّم ، ويرهن ويعلّل (١) .

(١) تصدير - للدكتور إبراهيم بيومي مذكور (رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة) في مقدمة

ولئن كان العلم رفيع الشأن منذ أن وجد الانسان ، فان مكائته اليوم سمت سمواً جاوزت فيه كل حسابان ، لقد صار العلم دعامة المجتمع ، وسبيل تقدمه وسعادته ليسلك طريق الوصول الى حياة أفضل ، إنه وديعة الله وسنته ، ومظهر من مظاهر قوته ، أطلع عليها الصالحين في أرضه ، لتظهر آثارها في صلاح الناس وإصلاحهم ، في خير البشر وإسعاده ، وتعميم العدل في المجتمع الانساني .

ولا غرو بعد ذلك أن تشاد للعلم الصروح والجامعات ، ودور المعرفة والمؤسسات ، ومعاهد الأبحاث والدراسات ، ولقد أثبت التراث العربي الاسلامي أن العرب يوم وحدوا كلمتهم ، على يد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، استطاعوا بقوة ذلك الدفع العظيم ، والدعم العلمي القويم — الذي دعا إليه الاسلام — أن يصبحوا أسياد العالم .

ويعدّ الدكتور جورج سارتون ، على رأس المشتغلين بتاريخ العلم (في نصف القرن الأخير) اتجه نحوه منذ عهد الشباب ، ووقف عليه حياته كلها ، وقلّ أن تفرّغ باحث لموضوع مثلما فعل .

ففي سنة ١٩١١ تقدم الى جامعة (جان) البلجيكية — حيب مسقط رأسه — برسالة الدكتوراه موضوعها (ليونارد الفنسي) ، وكانت هذه نقطة البدء في حياته العلمية الخافلة ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحاضر ويؤلف في العلم وتاريخه ، فحاضر في بلجيكا ، وانكلترا ، قبل أن يرحل الى الولايات المتحدة ، عام ١٩١٥ ، وهنا امتد نشاطه الى كبريات الجامعات الأمريكية ، يحاضر فيها ويراسل ، وينشئ جيلا من الباحثين ، وبقي كذلك الى أن لفظ النفس الأخير عام ١٩٥١ م .

وقد أسهم « سارثون » اسهاماً فعّالاً في مجلّتين دوليتين ، وقتنا على العلم

كتاب — تاريخ العلم — الجزء الاول — للدكتور جورج سارتون .

ترجمة السادة : الاساذ محمد خلف الله ، الدكتور طه الباقر . الدكتور محمد سليم سالم .
الدكتور مصطفى الأمير . الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة . الدكتور رشيد الناضوري .
باشراف السادة : الدكتور ابراهيم بيومي مذكور . الدكتور قسطنطين زريق . الدكتور محمد كامل حسين . الدكتور محمد مصطفى زيادة .

وتاريخه ، فاشترك في تأسيسهما وإدارتهما ، وعاون على تمويلهما ، واستمر مدى حياته يغذيهما ببحوثه وتحقيقاته وهما : (آيزس) التي ترجع الى سنة ١٩١٢ و (اوزيريس) التي ظهرت لأول مرة سنة ١٩٣٦ ، وفوق هذا نظم بعض المؤتمرات ، ورأس أكثر من جمعية تعنى بالعلم وتاريخه ، في أمريكا وأوروبا ، فكان رئيساً للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم ، ورئيساً شرفياً لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية .

ومنهج المؤرخ « سارتون » يعنى كل العناية بالوقائع يجمعها ويفحصها ، ويناقشها ويحللها ، ويستخلص منها ما يستخلص من نتائج وأحكام ، وكل ذلك في اطلاع واسع ، وقراءة مستفيضة ، وكم يذكرنا بأصحاب دوائر المعارف (وان عاش في عصر التخصص التام) وعندما تغزر المادة أمامه يختار منها ما يرى ، واختيار المرء رائد عقله ، وليس أدلّ على سعة اطلاعه ، من هوامشه الخصة ، المليئة بدقائق الأمور ، وشتى التفاصيل ، التي يجمع فيها بين العلم والأدب والتاريخ .

وسارتون المؤرخ لا يقف عند حضارة بذاتها ، بل يتتبع الحضارات الانسانية على اختلافها ، ويتحاشى ذلك الخطأ الذي وقع فيه القائلون « بالمعجزة الاغريقية » وفي رأيه أن من سذاجة الأطفال أن تفترض أن العلم بدأ في بلاد اليونان ، فالحضارة الاغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية ، في مصر وبلاد ما بين النهرين ، وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً (١) .

هناك حضارة (هندية - صينية) ، وأخرى (آشورية - بابلية) ، وثالثة ، مصرية ، وقد تأثر بعضها ببعض ، وأثّرت بدورها في الحضارة اليونانية . ولقد نجح « سارتون » كل النجاح في بيان مدى تأثر هذه - بالحضارتين - المصرية والآشورية ملاحظاً أن تراثهما اشتمل على وثائق علمية موهلة في القدم ،

(١) ينظر - جورج سارتون - تاريخ العلم - الكتاب الأول ص ٢١ وما بعدها - القاهرة ١٩٥٧ .

قلّ أن نجد لها نظيراً في التراث اليوناني (١) .

ويحرص سارتون المؤرخ ، أن يرجع الى المصادر الأولى ، كيف يغوص الى الأعماق ، ويعيش في الجو الذي يؤرخ له ، ويحس باحساس أهله ، وقد جدّ في طلبها ، ويسرّها له المتاحف والمكتبات الخاصة والعامة ، ورحل شرقاً وغرباً ، للوقوف على معالم التراث القديم ، وأعانه على تفهمها (فقه لغوي واسع) فكان يجيد اليونانية واللاتينية (ويلمّ بالعربية) والعبرية ، والسنسكريتية ، والصينية واليابانية ، وكان متمكناً من الانكليزية والفرنسية والألمانية ، ويقرأ في سر ، الايطالية والاسبانية .

وله ولوع كبير بالنصوص ، يتخيّر أحسنها وأنسبها ، (وسارتون) أستاذ أيضاً ، عرف كيف يحادث ويحاضر ، ويشرح ويفصّل ، وقد يستطرد وينوّع ، ويجدّ ويسزح ، ليرفقه عن مستمعيه ، ويستعيد نشاطهم ، وكل تلك أنواع ملحوظة في كتابه (تاريخ العلم) .

فأسلوبه سهل ، وعبارته أخاذة ، وأفكاره جليّة .

وسارتون — أخيراً — عالم بأوسع معاني الكلمة ، يعرض لقضايا العلوم ، فيعالجها معالجة الملمّ بأطرافها ، الخبير بدقائقها ، ومع هذا فهو لا يؤرخ لعلم بذاته ، وانما يتتبّع تطور العلم البشري ، منذ بدء الخليقة الى اليوم .

وأختم هذه الكلمة برأي (هذا العالم المؤرخ الفيلسوف) بالنسبة لأثر المسلمين على الحضارة الانسانية :

« المسلمون عباقرة الشرق ، في القرون الوسطى ، لهم مآثرة عظمى على الانسانية ، يتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قيمة ، وأكثرها أصالة وعمقاً مستخدمين في ذلك لغتهم العربية ، التي كانت بلا مرء لغة العلم للجنس البشري ، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن

(١) ينظر جورج سارتون (تاريخ العلم) المصدر السابق ص ٢٢ .

الميلادي - حتى نهاية القرن الحادي عشر ، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذي كان يريد الإلمام بثقافة عصره ، وبأحدث ما يجري من علوم ، أن يتعلم اللغة العربية •

وهذا الرأي يحمل بغير شك ، كثيراً من المعنى والمغزى ، لأن المؤلفات العربية التي تركها علماء المسلمين ، وغيرهم من المفكرين والفلاسفة والعلماء ، الذين عاشوا في ظل الحضارة الإسلامية ، في القرون الوسطى ، كانت بغير شك ، سجلاً وافياً عميقاً للفكر الانساني ، في ذلك الحين - الذي توارت فيه أوروبا - ، ومن الصعب أن تتصور ، ماذا يمكن أن يكون الوضع ، لو لم يقيم العرب والمسلمون ، خلال هذه الفترة ، بحمل رسالة العلم والثقافة ، وتطوير المعرفة ، وحفظ التراث الانساني ، وحمله الى الأجيال التالية •



الفصل الأول

العلم أس الحضارة

ما أن ظهرت رسالة الاسلام المجيدة ، حتى حضّت على الأخذ بأسباب الحضارة ، كما يتبيّن ، لمن يتفهّم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، ويقتفي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، ويقف على تاريخ ملوك المسلمين ، في كل عصور قوتهم وازدهار ملكهم •

ويعتبر الاسلام أول عقيدة كرمت العلم والعلماء ، ومعنى هذا ، أنه يعني (بأصل الحضارة) وقوتها الدافعة ، وليس لنا أن نعجب إذا كانت أول سورة نزلت على قلب النبي الكريم هي :

● « اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم • علّم الإنسان ما لم يعلم » •
وجاء في أوائل السور المكية قوله تعالى :

● « ن • والقلم وما يسطرون » • سورة القلم : آية : ١
● « والطور وكتاب مسطور • في رقّ منشور » • سورة الطور : آية : ١-٣
ومن المتعارف عليه ، أن أدوات العلم في ذلك الوقت كانت : القلم ، والمداد (أي الحبر) ، والرقّ (الذي يكتب عليه) — وقد أقسم الله بهذه الأدوات الثلاث — فيما أوردناه من الآيات :

● أقسم بالنون — وهي الدواة — على ما ذهب اليه جمهور المفسرين •
● وأقسم بالقلم — وهو وسيلة الكتابة — المعهود •

● وأقسم بالرقّ المنشور - وهو الوسيلة (الأداة) التي يحتفظ بالكتابة ، بواسطتها •

ومن أمعن النظر في كتاب الله الكريم ، وجد أن الله تعالى يقسم بكثير من مخلوقاته ، تنويهاً بشأنها ، ولفتاً لانتظار الناس إليها •

وجاء في الحديث الشريف : (عن فضل العلم)

● « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم •

وفي القرآن الكريم ما يلفت الأنظار الى سموّ مكانة العلماء في نظر الاسلام ، قال الله تعالى :

● « شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة ، وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم » (١) •

● « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٢) •

● « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٣) •

● « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلاّ العالمون » (٤) •

وفي هذه الآية (الأخيرة) حصر الله العقل والتدبّر في آيات الله ، وما يضر به من أمثال للعبرة والعظة ، بـ (العلماء) دون غيرهم ، وهذا تكريم لهم ، ولفت للانتظار اليهم ، والى مكانتهم في المجتمعات ، ما بعده من مزيد •

وفي الحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

● « العلماء ورثة الأنبياء » رواه أبو داود والترمذي •

(١) سورة آل عمران • آية ١٨ •

(٢) سورة المجادلة : آية ١١ •

(٣) سورة فاطر : آية ٢٨ •

(٤) سورة المكوت آبه • ٤٢ •

ومن المعلوم أن الأنبياء هم الذروة العليا في الكمال الانساني ، فهل هناك أكثر تشريفاً للعلماء من أن يكونوا ورثتهم • وقد بلغ من تكريم الاسلام للعلماء أن آثرهم على المنقطعين للعبادة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »
رواه النسائي والترمذي

وإذا كان الاسلام قد كرم العلماء ، وأشاد بدورهم في المجتمع ، فإنه حث على طلب العلم والمعرفة ، في كل زمان ومكان ، قال تعالى :

● « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » سورة النمل : آية : ٤٣ •

والذكر هنا هو العلم (على رأي جمهرة المفسرين) بدليل قوله تعالى
— إن كنتم لا تعلمون — وقد قال الرسول الكريم (في هذا المجال) :

● « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه البيهقي وابن عبد البر

● « من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي

من هذا يتبين ، أن الاسلام قوة دافعة للحركة الحضارية ، وأن الحضارة بجميع ألوانها أصدقاء للاسلام ، وأن العلوم والانتاج والتعمير ، من مقتضيات الاسلام •



الفصل الثاني

أثر الحضارة الاسلامية

في الحضارة الغربية

تقديم :

لا مرأ في أن أثر العرب (المسلمين) في النهضة الأوروبية واضح ، لا يجحده إلا مكابر ، فقد كانت للعرب عقيدة وفلسفة للحياة الانسانية ، وكان لهم نظام حكم ، أشاع روح العدل والانصاف والتسامح ، فتعايش الناس ، ذوو العقائد المختلفة ، والأجناس المتباينة ، متجاورين ، يسودهم الأمن والسلام والمحبة ، فتجاور المسجد والكنيسة والمعبد في كل قطر ، بل في كل مدينة ، وظل هذا التقليد زماناً طويلاً ، حتى بعد انحسار حكمهم عن البلاد التي فتحوها ، وما ذلك إلا لأنهم أوجدوا البيئة التي تسمح بنمو روح الإخاء والتسامح ، فقد ربّوا النفوس التي تؤمن بهذا التعايش والامتزاج ، ووجدت مساجد اسلامية يدرس فيها الرهبان واليهود جنباً الى جنب ، وبعد أن أغلقت (أوروبا - العصور الوسطى) أكاديمية أفلاطون (في أثينا) سنة ٥٢٩ م قامت مساجد اسبانيا ، وجامعات فرنسا وصقلية ، بفضل العرب وعلمهم بحمل مشاعل الابتكار ، في العلم والفن والفلسفة الانسانية ، وظل العرب قروناً متطاولة ، يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع ، على أرض جنوب فرنسا واسبانيا ، وجنوب ايطاليا وصقلية .

والخلاصة أن العلماء العرب في العصر الاسلامي ، قاموا بدورهم في بناء النهضة العلمية العالمية ، وقدموا لأوروبا زاد نهضتها ، وكانوا كما قال (البنديت

جواهر لال نهرو - في كتابه لمحات من تاريخ العالم) : « كانوا بحق آباء العلم الحديث ، وإن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية - عدا قرطبة - عاصمة اسبانيا العربية ، وأنه كان لا بد من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمي والبيروني ، لكي يظهر : جاليليو ، وكبلر ، وكوبرنيك ، ونيوتن »

ولقد ساعد العلماء العرب (في العصر الاسلامي) على هذا التفوق العلمي ، أربعة عوامل ، لا بد من الإشارة إليها ، والتعريف بها ، تلك هي :

أولاً : حرية الرأي العلمي - فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي .

ثانياً : رعاية الحكّام والولاة للعلم والعلماء ، وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال .

ثالثاً : استعلاء العلماء بعلمهم ، وزهدهم في الترف والسلطان .

رابعاً : الاستعداد الذهني مع الصبر والمصابرة (المثابرة) حتى أن أعمال

العالم منهم (مؤلفاته) تعد بالعشرات ، في أغلب الأحيان .

ونختتم هذا (التقديم) باعترافات منصفة لبعض علماء الغرب (ببقية

الاسلام الحضارية) .

جاء في كتاب (القيم الخالدة في الاسلام) للعالم الشهير « اميل درمنجم » :

« ان حضارة الاسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعي يقوم

(١) ان الراهب الفرنسي « جريرت » ترك بلاده وقصد الأندلس ، ليزداد من مناهل العلم العربي الاسلامي بها ، واستوطن (اشبيلية) ونسب إلى الآن - اكوادور - حتى ارنوي ، ثم تركها إلى (قرطبة) وتسمى الآن - سيلفيا - فأكمل له التحصيل ، ومنها رحل إلى روما ، حيث علا شأنه ، وارتقى منصب البابوية باسم (سلفستر الثاني) عام ٩٩٩ م وتمعه كثير من أمثاله الرهبان الذين عنوا الثقافة العربية ، وطبع مؤلفاتها ، وترجمة كتبها في الفلسفة وعلوم الطبيعة : ومد اشتهر منهم راهب ألماني يدعى (البير الكبير) وكان استاذاً للفلسفة واللاهوت بجامعة : باريس وكولونيا ، وقد تشققت العربية ودرس مؤلفات : ابن سينا والفارابي والغارابي ، وألف في الفلسفة كتابه الضخم : (مآثر العرب) الذي يعد مفتاحاً لمعرفة الغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومنهم الراهب الإنكليزي (روجر بيكون) الذي أوصى فومه بتعلم العربية ، واكبّ على دراسة مؤلفات ابن الهيثم .

على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادي يعتبر المال وسيلة لا غاية ، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلّة ، وثقافتها تستخدم العقل في كسب المعارف ، ولا شك أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية » .

وقال الدكتور غوستاف لوبون (المؤرخ الفرنسي) في كتابه (حضارة العرب):

« إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علّم العالم كيف تتفق

حرية الفكر مع استقامة الدين » .

اثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الغربية :

لقد كان تأثير الحضارة الاسلامية في العالم الغربي المسيحي كبيراً - خلال العصور الوسطى - إذ انتقلت كثير من المؤلفات العلمية ، من مختلف العلوم والفنون الى أوروبا ، وترجمت الى اللغات اللاتينية مرات متعددة ، وكانت تدرّس في المؤسسات والمعاهد والجامعات ، ويعتمد عليها كمراجع أساسية ، ولذلك يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الاسلامية ، في إثراء الفكر الأوروبي لفترة طويلة من الزمن ، استمرت لقرون عديدة .

ومن المعروف والثابت تاريخياً ، أنه في الوقت الذي كانت البلاد الاسلامية تمثل المشعل الفكري الوضّاء الذي ينشر النور فيما حوله ، ويملأ الدنيا علماً ومعرفة ، كانت أوروبا تعيش في حالة من الجهل والتخلف ، والضياع والتمزق ، ولما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهيّن ، التفتت الى الحضارة الاسلامية ، تنهل من رحيق المعرفة والفكر ما أمكنها ذلك ، ولذلك عكف علماءها ورجال الدين فيها على دراسة الآثار العلمية التي كتبها العلماء المسلمون من أمثال: ابن سينا والرازي والبتّاني وابن الهيثم ، والبيروني والخوارزمي والفارابي وابن رشد وغيرهم ، فكانت هذه المؤلفات تمثل المنهل العذب ، الذي كان طلاب المعرفة ينهلون منه .

قال الاستاذ « كويلو بونج » استاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون ، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية فيها ، في محاضراته التي ألقاها ، في مؤتمر

الثقافة الإسلامية ، الذي عقد برعاية (جامعة برنستون) و (مكتبة الكونغرس)
في واشنطن عام ١٩٥٣ ، تحت عنوان :

« اثر الاسلام الثقافي في المسيحية »

« وبعد ، فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدين الثقافي ، الذي ندين
به للإسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين — داخل هذه الألف السّنة — نساغر الى
العواصم الاسلامية ، والى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة
الحياة الانسانية ولن تتجاوز حدود العدالة ، إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه ،
ولكن سنكون مسيحيين حقاً ، إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا في
حبّ ، واعتراف بالجميل » (١) .

وقد انتقلت الثقافة الاسلامية الى أوروبا المسيحية ، عن طريق معابر ثلاثة :
اسبانيا ، وصقلية ، وسوريا أيام الحروب الصليبية ، وعن طريق هذه المعابر ،
انتقلت آثار الحضارة الاسلامية ، ومؤلفات العلماء المسلمين إلى أوروبا .



(١) ينظر الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٢٥٧ ، مجموعة محاضرات القيت في مؤتمر
الثقافة الإسلامية في واشنطن عام ١٩٥٣ .

الفصل الثالث

معايير الحضارة الإسلامية الى أوروبا

أما المعايير التي سلكتها الحضارة الإسلامية في طريقها الى أوروبا ، واجتيازها الفكر الإسلامي بمختلف عناصره (الأدبية والعلمية والفلسفية) فهي ثلاثة مراكز رئيسية كبرى :

- الشرق العربي في زمن الحروب الصليبية (١) .
 - صقلية (٢) — حيث نشأت دولة عربية ، ظلت حضارتها قائمة بين الصقليين زمنًا طويلا ، بعد زوال تلك الدولة .
 - والأندلس (٣) ، زمن الخلافة الأموية فيه .
- ١ - الشرق العربي زمن الحروب الصليبية (سوريا) :

فقد كانت سوريا — وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية — ذات أثر فعال في هذا الميدان ، فالحروب الصليبية قد صاحبها بعد النشاط الفكري والحضاري ، إذ وجد من اللاتين الذين استقروا في الأراضي المقدسة ، من كتب في التاريخ ، مثل « وليم الصوري » أو في القانون ، مثل « حنّا الابليني » و « فيليب نافاري » كما انسابت بعض المصطلحات العربية الى البلاد الغربية .

كذلك أثّرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الغربيين ، ولاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه

(١) منطقة الشام (سوريا) خلال الحروب الصليبية وما بعدها في الفترة (١٠٩٨ - ١٣٠٠ م) .
(٢) صقلية — في عهد الأغلبة (٨٣١ - ٩٠١ م) .
(٣) اسبانيا — في عهد الاسلام ، وقد اقام الاسلام في اسبانيا بين (٧١١ - ١٤٩٢ م) .

الحروب ، من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق ، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل .

وبالنظر الى المؤثرات الاسلامية في الحياة الأوربية (نتيجة لنمو التبادل التجاري) الذي أثارته الحروب الصليبية ، نلاحظ انتقال (نباتات) و (حاصلات) و (أشجار) جديدة ، من شرق البحر المتوسط إلى غربه ، مثل : الثوم ، والبطيخ ، والأرز ، والليمون ، كما انتشرت في الغرب العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية ، كما كثر استعمال وصناعة الأقمشة التي نسبت الى بلدان الشرق ، مثل (الموصلين - نسبة الى الموصل) و (الدامسكو - نسبة الى دمشق) وغيرها ، وكذلك (الناعورة) نقلها الصليبيون من (حماه) الى بلادهم ، فعندما شاهدوا النواير ترفع المياه من العاصي ، أعجبوا بها ، فاقبسوها ، بأن نقلوا نماذج منها الى ألمانيا .

٢ - صقلية :

وهي المعبر الثاني ، الذي انتقلت عنه حضارة الاسلام الى غرب أوروبا ، حيث صار للثقافة الاسلامية شأن كبير .

وكلنا نعرف ، أن جزيرة صقلية ، كانت قد خضعت (من القرن الخامس - الى الثامن) للدولة الرومانية الشرقية ، ثم فتحها العرب في عام ٨٣٠ م ، ثم عزاها النورمانديون في سنة ١٠٨٧ م ، وكان من أثر تعاقب غزو الجزيرة ، أن تأثر سكانها بعادات ولغات المغيرين ، كما تأثر الفن بطابع هذه الشعوب ، وكان للعرب تأثير فني كبير على المباني التي وصفت بأنها (عربية - نورماندية) .

ويظهر الطراز العربي في (كنائس النورمانديين) الذين دخلوا الجزيرة بعد العرب ، ومنها كنيسة (القديس جيوفاني) في مدينة « بالرمو » وهي ذات قباب حمراء ، نصف كروية ، كما تظهر الأقواس المدببة ، والزخارف العربية الدقيقة ، في قصور الملوك النورمانديين ، في مدينتي (بالرمو - ومونديال) .

ولما سيطر العرب على (كريت) شرقاً ، و (صقلية ، مالطة ، وقوصر) في

الوسط ، وجزر (الباليار) غرباً ، ثم على جزيرتي (سردينيا وقبرص) ثم للعرب السيطرة التامة على البحر المتوسط ، وحققت هذه السيطرة للعرب أغراضاً دفاعية:

- فكانت (طرطوس وقبرص) تحميان شواطئ سوريا •
- وكانت (كريت) تحمي مصر ، كما تحمي (صقلية) شمال أفريقيا •
- وتحمي (جزر البليار) الأندلس •

وفي أواخر القرن التاسع ، أصبحت هذه الشواطئ العربية في مأمن من أي غزو لأول مرة ، منذ عام ٦٤٥ م ، وأصبح لدى العرب كل ما يحتاجون اليه ، وخاصة فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبناء السفن ، ففي (صقلية) كميات وفيرة من أخشاب السفن ، وكذا بعض الحديد ، كما كانت (كريت) غنية بخشب الأرز والسرو •

ولما كانت طبيعة (صقلية) تتكون من مرتفعات وهضبات ، وتحتل مدنها الأجزاء العالية ، مما جعلها حصينة ، غنيمة أمام كل فتح ، واتسمت بسمتين كان لهما أثرهما في تاريخها بصفة عامة •

السمة الأولى : موقعها البحري ، والثانية : توسّطها بين أفريقيا وأوروبا ، وهي لهذا ، ملتقى حضارات جمّة (فينيقية ، يونانية ، ورومانية ، وقوطية ، وبيزنطية ، وعربية) •

وقد بدأت أنسابها تختلط بأنفاس المسلمين، منذ نزلها « حبيب بن أبي عبيدة » حفيد عقبة بن نافع ، ثم عودته الى أفريقيا ، والنتيجة التي تلت هذا هي استيلاء الروم ، وحرصهم على تحصين (صقلية) •

غير أن خطوات الفتح الاسلامي بدأت مع استغاثة ثائر (بصقلية) على القسطنطينية ، وهو « فيمي » الذي لجأ الى بني الأغلب ، فعهد (ابراهيم بن الأغلب) الى (أسد بن الفرات) حيث قاد أسطولا ، في شهر ربيع الأول ، سنة ٢١٢ هـ ، وجابه أهوالاً ، ذابت أمام قوة المسلمين النفسية ، وما أن فتحت (بلرم)

حتى صارت صقلية في أيدي المسلمين ، وان ظل قسمها الشرقي ، القريب من القسطنطينية عنيداً ، يؤلب (سائر القلاع المستسلمة) على المسلمين ، ثم سقطت (سرقوسة) وبعدها (طبرين) وبقي معظم القسم الشرقي يكتفي بدفع الجزية فقط .

واستعدت الجزيرة بعد ذلك ، لاستقبال قيم جديدة ، ودين جديد ، وتمتع عبيدها بحياة جديدة في ظل النظم الاسلامية التي حكمت بين الناس (بعدالة الله) مما دفعهم لتقدير الاسلام ، والإقبال على اعتناقه ، والتشرف بمصاهرة المسلمين .

ثم شهدت الجزيرة شيئاً من التنافس العباسي والفاطمي ، انتقل خلاله الحكم ، من يد الأغلبة إلى (بني أبي الحسين - الكلبيين) حيث تم ارتباط صقلية بالخلافة الفاطمية ارتباطاً وثيقاً .

وعرفت صقلية من (الكلبيين) عشرة ولاية ، طيلة خمسة وتسعين سنة ، نشطت خلالها ، القطاعات العمرانية والثقافية ، مع هدوء وأمن اجتماعيين ، عاداً على البلاد بالتمو الفكري والتقدم الحضاري ، مما مهد لصقلية أن تتزعم حركة فكرية كبرى ، تنافس مثيلتها في (الأندلس) و (مصر) و (القيروان) ، بل قدر لها أحياناً أن تحتل الصدارة ، بالنسبة لسائر المراكز الاسلامية .

يقول المؤرخ الانكليزي « سنجر » .

« ان صقلية دانت للعرب ، بعد أن كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية ، وسقطت (بلرم) سنة ٨٣١ م وكان النصر حليف الهلال (الاسلام) الذي امتد سلطانه سنة ٨٤٦ م إلى روما نفسها .

ونتيجة تفوق المسلمين في شتى القطاعات ، بدأت آمالهم تغزو الآفاق المجاورة ، حتى وصلوا الى جنوب ايطاليا ، واستسلمت (سالرنو) و (نابولي) و (مونت كاسينو) فاستعدت تلك البلاد ، لتتقبل نفحات الثقافة الاسلامية الثرية .

ثم كان انتقال الحكم من (الكلبيين) إلى (أمراء الطوائف) حيث بدأ التنافس ، وشرعت صقلية تشهد قواداً يتقاتلون ويختلفون ، فيهمز - ابن الشنة -

ويسرع بطلب النجدة من النورمان ، الذين كانوا على شوق لفتح صقلية ، فاستولوا على (مسنية) سنة ١٠١٦ م ثم هفت قلوبهم الى (بلرم) وتمت الفترة الاولى من الفتح سنة ١٠٧٢ م وبعدها بـ عشرين عاماً ، تم الاستيلاء على الجزيرة ، وقد تيسّر لملك صقلية (روجر الاول) أن يتّكئ على أعمدة الاطمئنان ، ويشرع في حكم الجزيرة ، ومعاملة المسلمين — وخاصة علماءهم — معاملة حسنة ، عادت بالخير ، لا على الجزيرة فحسب ، بل على الحضارة الأوربية بأسرها .

وهنا تجدر الإشارة ، إلى أن المسلمين ، رغم ذهاب الحكم من بين أيديهم ، لم ييخلوا على الانسانية بمواصلة ما بدأوه وأضافوا إلى ما ألتجوا من ثمار ، ما استحقوا أن يتولوا زمام الفكر قروناً عدة .

وقد ترك العرب لأهالي صقلية الأصليين عاداتهم وقوانينهم ، وحرثهم الدينية ، وحافظوا على جميع الكنائس التي وجدوها ، واهتموا بالزراعة والصناعة ، وأنشأوا مصانع الورق ، وامتدت هذه المصانع من صقلية الى ايطاليا ، واستخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص ، وعلموا أهالي صقلية صناعة الحرير ، كما اهتموا بالتجارة .

وأخرجت صقلية جملة من العلماء ، والمحدثين ، والفقهاء ، والأدباء ، والفلاسفة ، وكان في طليعتهم ، أسد بن الفرات ، وهو من أصحاب مالك ، وأسد ابن الحرث (صاحب الاسديات في الفقه) والقاضي ميمون بن عمر ، وابن حمديس الصقلي (الشاعر المبدع) .

ومن رجال صقلية ، أبو عرب الصقلي ، وابن بشرون ، وابن الفحّام ، والشريف الادريسي ، وابن طغر ، والحسن بن يحيى (المعروف بابن الجزار) وهو صاحب تاريخ صقلية .

وترك العرب أيضاً ألفاظاً عربية ، في اللغة الصقلية والايطالية ، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة من صقلية تحمل أسماء عربية ، لا سيما أسماء القلاع والمراسي والشوارع .

وفي (بالرمو) الآن قصران جليلان من مباني العرب : أحدهما قصر القبة ،
والآخر قلعة الجزيرة • وقد تحدث الرحالة العربي الشهير « ابن جبير » عن آثار
العرب في صقلية ، وخاصة مساجدهم ، وأسواقهم ، ويذكر أن « وليم » ملك
صقلية الذي سماه (غليام) كان شديد الثقة بالمسلمين الى حد بعيد ، يقول عنه :
« وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله ، والمهم من أشغاله ،
وله جملة منهم هم أهل دولته وخاصته ، وعليهم يلوح روثق مملكته » •

ومن أغرب ما ذكره « ابن جبير » عن هذا الملك ، معرفته باللغة العربية
(قراءة وكتابة) وأن شعاره (الحمد لله حق حمده) وكان شعار أبيه (الحمد لله
شكراً لأنعمه) •

تحدث « رينالدي » عن التأثيرات العربية في جزيرة صقلية فقال : إن الجزء
الأعظم من الكلمات العربية (الباقية في الايطالية) التي تفوق الحصر ، دخلت
اللغة الايطالية — لا بطريق الفتح العربي ، بل بطريق الحضارة ، التي كثيراً ما تؤلف
بين مظاهر الحياة المختلفة •

ولقد اضطرت مدينة « جنوه » أن تؤسس مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة
١٢٠٧ م ويدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة ، وفي جميع
اللغات العامية في جميع المدن الايطالية ، التي كانت تتجر مع الشرق وصقلية ،
وقد دخلت إليها مع التجارة العربية •

ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيراً منها ، والهندسة القوطية هي في الحقيقة
الهندسة العربية ، كما أن أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية — في اللغة
الايطالية — من أصل عربي •

وأثبت « أماري » المستشرق الصقلي ، أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها ،
كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية ، وقد أدّى هذا
الى ابتكار الشعر الوطني • ومنذ ذلك الحين ، بدأت العناية بقرض الشعر ، مما
أدى الى نهوض الشعر الايطالي •

ويكمل «رينالدي» هذا الحديث فيقول :

لم يساعد العرب على إنهاض الشعر الصقلي والايطالي ، بل إنهم أمدّوا قصصنا (بشكلها ومادتها) وهذا ما يؤيد ما يذهب اليه بعض المفكرين من أن (دانتى) الشاعر الايطالي ، اقتبس موضوع - الكوميديا الإلهية - من رسالة الغفران (للمعري) •

إن النفحة العربية التي هبت نسماتها الزكية على ديار الايطاليين ، علّمتهم كيف يسلكون سبل الحياة الكريمة ، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة ، وشتى العلوم ، بعد أن كانوا أميين ، وعلمتهم الصناعات المختلفة ، وأصول الزراعة والحياكة ، وشاركهم العرب في ضروب التجارة ، التي درّت عليهم الثروات الطائلة •

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى في الفاتيكان بمدينة « روما » بايطاليا ، يجد الألوف المؤلفة من الكتب الخطية القديمة ، وهي كلها من تأليف علماء العرب •

كما أشاد « ديل » بالحكم العربي في صقلية فقال :

« إن العرب حملوا معهم الى صقلية ، مظاهر فنّهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، وفسيفسائهم المعمولة من الرخام الملون ، وصورهم الجميلة ، وبهج صناعاتهم وليدة علمهم ، وكانت المصانع العربية مثالا يحاكيه الزمان فيما بعد » •

ولما سقطت (بالرم) في أيدي المسلمين سنة ٨٣١ م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء العرب المسلمين ، برزت حضارتها وفنونها ، فأصبح لها حكومة ذات مجد ورفي •

اهتم الولاة العرب بالاصلاحات ، ونشروا ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمّت فيها الخيرات ، وظل العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالي الأصليين بشيء ، فكل منهم يمارس شعائر دينه ، ويتبع أسلوب معيشته ، بل ان نساء صقلية تشبهن بنساء العرب ، فانتقبن النقب الملونة ، واتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، وتزيّن ، بكل ما تزيّن به المسلمات •

ولم يرهق الفاطميون أهالي صقلية بالضرائب، بل اكتفوا بأخذ الجزية العادلة. وقد اهتم المسلمون في القرن التاسع الميلادي بوسائل الزراعة في صقلية، وبالتقنيات، كما أدخلوا صناعة القطن وقصب السكر، وفي الصناعة اشتغلوا بالتعدين، فاستخرجوا النحاس والكبريت، كما ارتفعت التجارة في عهدهم، وقد كانت قبلهم في الحضيض، أما العمارة فقد بلغت حد الروعة، ونستدل على هذا من النادر المتبقي من مباني المسلمين في صقلية.

هذا ولم تنته الحضارة الإسلامية بانتها حكم المسلمين في صقلية، فقد وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها، ويوجد في « نورمبرج » رداء من الحرير، اعتاد ارتدائه ملوك صقلية وهو مطرز بكتابات عربية، بخط كوفي، يرجع تاريخه الى سنة ١١٣٣ م، كما شجّع ملوك صقلية ترجمة الكتب والمؤلفات العربية، واحتفوا بالعلماء والأدباء، والجغرافيين والفلكيين المسلمين.

٣ - اسبانيا :

وفي شبه جزيرة الأندلس، التي كان الرومان يحكمونها، منذ عصور سحيقة في القدم، فإن ثاني قياصرتهم، أصدر أمراً بتشديد المدن في الجزيرة (الايرية)، وبعث لهذا الغرض أربعة من أقطاب مملكته، لتنفيذ هذه الرغبة، فشيّد كل منهم مدينة بالجهة التي تولى الحكم فيها وسمّاها باسمه، وكانت هذه المدن الأربعة هي : قرطبة، اشبيلية، ماردة، سرقسطة، وظل شبه الجزيرة خاضعاً لحكم قياصرة الرومان، حتى أغار عليه قبائل الوندال، في القرن الخامس الميلادي، ومن ثم أطلق عليها - فاندالوسيا - أي بلاد الوندال، يقول المقرئ :

لم تشأ القبائل القوطية أن تترك (الوندال) ينعمون بهذه الأرض الطيبة، حتى أغاروا عليها وطردها الوندال الى أفريقيا، وكونوا لهم دولة قوية في اسبانيا، عمّرت نحواً من أربعمئة سنة، حتى جاء الاسلام، وكان آخر ملوك القوطيين « غيظشة » وهلك عن أولاد ثلاثة صغار، لم تؤهلهم سنّهم إذ ذاك لضبط الملك وتدير شؤونه، فأنحرف قائد الخيل « رودريك » - ويسمّيه العرب لذريق - بمن تبعه من رجاله، وجلس على العرش، يؤيده نبلاء القوط ورجال الكهنوت،

وسار الى قرطبة ، بعد أن كان ملوك القوط الأصليون ينزلون بـ (طليطلة) •
وهناك على الساحل الأفريقي تقع مدينة (سبته) وكانت هذه المدينة من
الناحية السياسية تخضع للحكم القوطي، ويدين حاكمها (يوليان) له بالطاعة والولاء •
وكان فضل الله عظيماً ، إذ حدثت المعجزة ، فانه كان على اسبانيا رجل اغتصب
الملك من أهله الشرعيين •

ينهض البطريق (يوليان) الى الأمير طارق بن زياد ، ويتفق معه على غزو
اسبانيا ، ويكشف له عن عورة عدوّه ، ويدلّه على مكان الضعف فيه •

ويتأهب طارق للغزو بجيشه ، ويساعده (يوليان) بمراكبه وأدلائه ، ثم
ينزل بجيش لجب فوق صخرة سمّيت باسمه (جبل طارق) ، وينتهي الأمر الجلل
الى (لذريق) ، الذي كان وقتها مشغولاً باخضاع ثورة قامت ضده في الشمال ،
فيقلل مسرعاً ، حيث تلقاه جيوش المسلمين ، عند وادي نهر (لكه) ، فيهزم وجيشه
هزيمة ساحقة منكرة ، ويختفي لذريق الى الأبد ، ولم يقف له أحد على أثر من
بعد ، وينتهي الأمر الى (موسى بن نصير) الوالي على أفريقيا ، ويأمر (طارقاً)
بالتوقف ، ريثما يلحق به ، ولكن طارقاً يخشى مغبة هذا التوقف ، فيعقد في
الحال مجلساً عسكرياً استشارياً يضم أركان حربه ، ويشير عليه المجلس بأن عملية
التوقف ربما تعطي العدو فرصة التجمع والتكتل ، فينهض طارق ويقسم جيشه
الى فرق ، ويثبتها في شبه الجزيرة •

ويلحق (موسى) بجيوش المسلمين ، ويسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه
طارق ، ويذهب الجميع في توطئة أكناف شبه الجزيرة وضمّها الى حظيرة الاسلام •
ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الأندلس الاسلامية بالمغرب الاسلامي ، في المدة
التي تلت الفتح ، وكان واليها يولّى من قبل أمير أفريقية ، وكان أول والٍ تولى
السلطة فيها بعد الفتح (عبد العزيز بن موسى بن نصير) عينه أبوه أميراً عليها ،
بعد أن رحل الى الشرق ، بناء على طلب الخليفة بدمشق ، وتزوج من مسيحية ،
فثار عليه شعبه وقتلوه ، وأمرّوا عليهم « أيوب بن حبيب » والياً على الأندلس •
وحينما سقطت دولة بني أمية في الشرق على أيدي أبناء عمومهم

« العباسيين » تناولوهم بالتقتيل وكأنتها حرب إبادة ، فشاء الله أن تكتب النجاة لشخص من بني مروان يدعى : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذي لقب بـ (صقر قريش) •

ولقد حاول الخليفة العباسي أن يقضي عليه ، ولكنه كان من الدّهاء والحيلة ، بحيث قضى على أعدائه وبعث برؤوسهم الى الخليفة العباسي (في موسم الحج) مما جعله يقول قولته المشهورة : « الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحراً » • ومن هذا التاريخ الذي تولى فيه عبد الرحمن أمر الأندلس ، بدأ دور (قرطبة) في توجيه دفّة الأمور ، وبرزت الى قمّة الوجود ، لتشارك في عواصم العالم المتحضّر — إذ ذاك — في السياسة والثقافة والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية ، وصارت قرطبة مستقر الخلافة ، وموطن الوزارة ، وكعبة الشعراء والأدباء ، وموئل أهل العلم ، ومقصد الطلاب ، ومورد الثقافة •

ولقد لقب عبد الرحمن نفسه ، بالناصر ، وترجع قصّة حياته ، إلى أنه خرج (وهو فتى) طريداً وشريداً ، يلتبس النجاة من يد أعدائه ، وزوّدته أخته ببعض النقود ، يستعين بها في تدبير شئونه ، ثم بعثت في أثره بخادم يدعى بدرأ ، لعب في حياته دوراً هاماً ، وظلاًّ يتنقلان حتى وصلا الأندلس ، حيث كان لبني أمية حزب قوي ، ولهم فيها عدد كبير من الموالى والأنصار ، ومعظمهم ممن اشترك في الفتح من أهل الشام ، الذين قامت على أكتافهم للدولة الأموية ، واستطاع هذا الفارّ من الموت بمهارته ، أن ينشئ ملكاً أموياً ، حتى كان نجاحه حافزاً للكثير من الأمويين على الهجرة الى اسبانيا ، وقد أعاد عليهم عبد الرحمن المناصب والهبّات • وازدهرت في أيامه الأندلس ، بعد أن أنفق حياته في إخماد الثورات الداخلية التي قامت ضده ، وعني بشكل خاص بإخماد أنفاس كل دعوة لها صبغة غير الصبغة الأموية ، وسار بعده بنوه وأحفاده ومن تعاقب من الأمويين ، على هذه النزعة الاستقلالية •

ونافست قرطبة في عظمتها ، القيروان وبغداد والقاهرة ، وبخارى ودمشق ، وأصبحت قبلة الشعراء والكتّاب ، والفنّانين والعلماء ، وتسمى عبد الرحمن

بـ أمير المؤمنين الناصر لدين الله - فكان أول أمير من بني أمية في الأندلس ،
ينعت بأمانة المؤمنين ، وبدأت الدعوة له بذلك ، ولما أتى بعده من بني أمية •
ونقشت ألقاب الخلافة على (السكة) وغدا أمير المؤمنين وهو في قرطبة
يمثل سلطانه سلطان المسلمين والاسلام في الغرب الاسلامي ، فوفدت اليه
السفارات المسيحية ، تلتبس المفاوضة في شتى الشؤون الثقافية والتجارية
والسياسية ، بل ظلت الدولة المسيحية أشبه بالحجة للدولة الاسلامية الى القرن
الحادي عشر •

وكانت قرطبة أشبه ما تكون بالعاصمة الكبرى لاسبانيا ، يفد اليها الملوك
والسفراء ، ويقدمون الى صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ويستجرون به ،
ويستظلون بسلطانه •

والحقيقة ، أن المصالح المشتركة ، بين بيزنطة وقرطبة ، هي التي دعمت
أواصر الصداقة بينهما ، ولم تكن المصالح المشتركة سوى مقاومة الدولة الفاطمية
والأفريقية الفتيية ، والتي ابتدأت تزعج حكومة بيزنطة في أواسط البحر الأبيض
المتوسط ، وتزعج بدورها حكومة قرطبة ، بتوغلها في المغرب الأقصى •

ولما أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية في اسبانيا كلها ، وأنشأ حكامها
مدارس للطب والفلسفة والعلوم والفنون الأخرى ، وبذلوا المال في سخاء ، إذ
كانت دولتهم قد بلغت درجة عظيمة من الثراء والتقدم ، أرسل الملك (عبد الرحمن
الثالث) (٩١٢ - ٩٦١ م) لجمع الكتب واجتذاب العلماء ، للبحث والدرس
والتأليف ، فأصبحت موطناً للعلوم ، وأصبح فيها عدد ضخم من المستشفيات
والأطباء والصيدالة ، والكيمائيين وعلماء النبات ، والرياضيات والفلك والفلسفة ،
وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مراكز للعلوم والترجمة ، من اليونانية والهندية
(وغيرها من الكتب القديمة) إلى اللغة العربية •

وفي عصر (الحكم الثالث) وهو ابن الملك عبد الرحمن الثالث ، الذي كان
مثل أبيه ، عظيم الشغف بجمع العلوم ونشرها ، وصل عدد الكتب الموجودة في
مكتبة قرطبة نحو (نصف مليون كتاب) وضع لها فهرس مكون من أربع وأربعين

كتاباً لكل منها خمسون صفحة ، وأرسل — مثل أبيه — في طلب العلماء والكتب ، من جميع مراكز العلوم ، في اليونان ، وبيزنطة ، ومراكز الحضارات الثقافية في البلاد العربية ، لشراء أحدث المؤلفات ، وكان لا يخل بدفع ثمنها مهما كان باهظاً .

وقلّد أمراء المقاطعة الأندلسية ، عبد الرحمن الثالث ، وابنه الحكم ، في هذه الأعمال العلمية المجيدة ، مثل أمير سرقوسة واشيلية وطيطة وغرناطة — قلدوا قرطبة — بمكتبتها وجامعتها ، حيث كانت تدرس علوم الطب والصيدلة والكيمياء ، ومدرّيد أيضاً ، التي اشتهرت بجامعتها ومدينتها الجامعية التي أقيمت ليعيش فيها الطلبة .

واتسم عهد الحكم بالمحبة والهدوء والسلام ، فخدمت الفتن الخارجية ، وقضي على المنازعات الداخلية ونعمت البلاد إبان حكمه بالسكينة والاستقرار ، وكان الأمير نفسه ينجح الى السلم ، ويميل بطبعه الى العلم ، فكانت هذه الأسباب جديرة بخلق البيئة الثقافية والمكتبة الثقافية .

كلمة طيبة لعالم غربي منصف :

بعد أن استعرضنا معاً (المعابر الثلاثة) التي عبرت عليها الحضارة العربية الاسلامية ، في طريقها الى أوروبا وهي : سوريا ، وصقلية ، واسبانيا ، وقبل أن نستهلّ العرض الوصفي (لمختلف الآثار الحضارية في العلوم) جدير بنا أن نقف قليلاً لنستمع الى كلمة طيبة ، لعالم غربي منصف هو : (البروفسور ادوار بروي) استاذ تاريخ الحضارات ، في جامعة السوربون في باريس حيث قال :

« ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيرّ العقول بفتوحاته السريعة ، وبتوسع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها ، نحن أمام شعب ، كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا هو يتحد في بوتقة الاسلام (الدين الجديد) الذي انطلق من الجزيرة العربية ، فاكتمحت جيوشه في بضع سنوات ، الدولة الساسانية (الفرس) وهدّت منها الأركان ، ورفرت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا ، ولم تلبث جيوشه بعد قليل ، أن استولت على معظم اسبانيا وصقلية ، وأن تقطع لأمد من الزمن — يقصر أو

يطول - بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وفي جنوبها ، ودقت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربي • وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الاسلامي ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انقرط عقدها التنظيم ، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام - الضاربة بين سيرداريا والسنغال - ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد أن أطلّ على الدنيا دين جديد ، له من الأتباع والمريدين اليوم ما يزيد على ثلاثمائة مليون انسان ، وانجلي غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ، ولا أوسع ، وعن حضارة ولا أسطع ، وعن مدينة ولا أروع ، عوّل عليه الغرب في تطوّرهِ الصاعد ورقبهِ البناء ، بعد أن نفخ الاسلام في قسم موات (من التراث الانساني القديم) روحاً جديدة ، عادت معه الى الحياة ، فنفض (أي التراث الانساني) وأشعّ وأسرى ، ولهذه الأسباب مجتمعة ، كان لا بد وأن يحتل تاريخ العالم الاسلامي ، محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من أن يفهم جيداً ، أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيّز في الزمان (فالتراث الحضاري الانساني ملك للجميع) وعلى رجل العصر أن يعرف جيداً ، أنه قبل (توما الاكويني) الذي رأى النور في ايطاليا ، طلّع (ابن سينا) - المولود في احدى مقاطعات التركستان - وأن مساجد دمشق وبغداد وقرطبة ، ارتفعت قبائها ، قبل كاتدرائية نوتردام في باريس ، بزمان ، والا ينتقص من شأن العالم العربي الاسلامي (من خلال واقعه الراهن) بل علينا اعتبار هذا التاريخ (للحضارة العربية الاسلامية) من صميم التاريخ الانساني ، المتنوع في الأزمنة والأمكنة ، والذي لا يزال على الرغم من جزئياته وخصائصه ، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء » (١) •

جميل بالانسان أن يرتفع الى مستوى الانصاف ، والوعي الانساني ، فيدرك أن التراث الحضاري الانساني ملك للجميع ، وان الاعتراف بالفضل لأهله ، شيمة الانسان الواعي المنصف •

(١) - ينظر تاريخ الحضارات العام (المجلد الثالث) فجر الاسلام ص ١٠٩ للبروفسور ادوار بروي - مارس - ونظر أيضاً - اللواء مصطفى طلاس ص ٤١ دما بعدها - طبع دمشق •

الفصل الرابع

العلوم الطبية عند العرب

الطب - الصيدلة - الكيمياء

يعد علم الطب من العلوم التي غني بها العرب عناية كبيرة ، واستطاعوا أن يكتشفوا كثيراً من النظريات العلمية ، وأن يؤلفوا كثيراً من المؤلفات الطبية ، وقد ترجمت المؤلفات العربية في الطب إلى اللغات الأوروبية ، ولقيت اهتماماً كبيراً ، وكان لهذه المؤلفات العلمية تأثير كبير في عالم الطب عدة قرون ، كانت خلالها هي المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها ، والمراجع الهامة التي يرجع إليها ، وهذه الحقيقة العلمية ، لم تكن مجال خلاف بين المؤلفين (المؤرخين) الذين كتبوا عن تاريخ العلوم ، إذ كانوا مجتمعين على القول بأن الكتب العربية في الطب ، كانت متفوّقة فكرياً وتنظيماً وتنسيقاً ، على جميع ما كتب خلال القرون الوسطى .

وقد أفاد الغربيون من المؤلفات العربية في الطب ، بعد أن ترجمت إلى اللغات اللاتينية ، وظلت هذه المؤلفات تدرّس في الجامعات الأوروبية حتى منتصف القرن السادس عشر .

الطب بعد الاسلام :

ولما ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (لسعادة الانسان والانسانية) كان طبيبه « الحارث بن كلدة » وكان أكثر اهتمامه بعلم حفظ الصحة ، فأوصى بالحجامة ، والحقن ، وعدم الاستحمام بعد تناول الطعام (١) .

(١) الحارث بن كلدة المقي - كان من الطائف ، تعلم الطب في مدرسه (جنديسابور) من أعمال بلاد فارس ، وتبرن هناك ، وعرف الداء والدواء ، وشهد أهل فارس بعلمه ، واشهر طبه بين العرب ،

وبعد انتشار الاسلام نال الطب — بكشف أطباء الأندلس وجراحيها — من السمو والتقدم أعظم ما ناله قبلهم ، وقد عرف علماء الطب في الغرب ، عن طريق مدارس العرب (في صقلية واسبانيا) بوجه خاص ترجمات لاتينية ، للكتب الطبية العربية ، وظل أطباء العرب يحتلّون أرفع منزلة وأسمى مكانة بين أطباء العالم

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بوصي بالتطبيب عنده ، وكان (للحارث) معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تمتداه ، وتحناج اليه من المداواة ، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وحفظ الصحة

من ذلك — أنه لما وفد على (كسرى انوشروان) وأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصباً قال له :

فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها وبجوبة دارها ، قال : ما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وسوء أعذيتها ؟ قال : أيها الملك ، إذا كانت هذه صمتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويمدّل أمشاجها ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ، ويميز موضع دائه ، ويحرّز عن الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

قال : فاستوى كسرى جالساً ، وحرى ماء رباضة الحلم في وجهه ، لما سمع من محكم كلامه ، ثم أمره بالجلوس ، فجلس ، فقال : كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك ، قال : فما أصل الطب ؟ قال : الأزم ، وهو ضبط الشغنين ، والرفق بالبدن ، قال : أصبت ، قال : فما هو الداء الدوي ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذي يقني البرية : ويهلك السباع في جوف البرية ، قال : أصبت ، قال : فما الجمرة التي تصطلم فيها الادواء ؟ قال : هي المخمة ، إن بقيت في الجوف ثقلت ، وإن تحللت استقيت ، قال : صدفت ، قال : فما تقول في الحجامة ؟ قال : في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه ، والنفس طيبة ، والعرق ساكنة — لسرور يفاخك ، وهمّ يباعدك ، قال : فما تقول في دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبعاناً ، ولا تنفش أهلك سكراناً ، ولا تقم بالليل عرياناً ، ولا تقعد على الطعام غضاساً ، وارفق بنفسك ، يكن أرحى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهناً لومك ، قال : فما تقول في الدواء ؟ قال : ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وإن تركها خربت ، قال : فما نقول في الشراب ؟ قال : أطيبه أهزؤه ، وأرقه أمرؤه ، وأعذبه أشهائه ، لا نشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويثير عليك في الادواء أنواعاً ، قال : فاي اللحيات أفضل ؟ قال : الضان الفتى ، والقديد المالح مهلك للأكل ، واجتنب لحم الجذور والبقر . قال : فما نقول في الفواكه ؟ قال : كلها في إقبالها ، وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت ، وانقضى زمانها . قال : فما نقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ، ينفع ما شرب منه بقدر ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله وأرقه أصفاؤه . قال : افتامر بالحقنة ؟ قال : نعم ، تراث في بعض كتب الحكماء ، أن الحقنة تنقي الجوف ، وتكسح الادواء عنه ، وإن الجهل كل الجهل . إن يأكل الإنسان ما عرف مضرته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه ، قال : فما الحمية ؟ قال : الانصاف في كل شيء ، فإن الأكل فوق المقدار ، يضيق على الروح ساحتها ، ويسدّ مسامها .

حتى القرن السادس عشر ، وظلت الكتب العربية (المترجمة الى اللاتينية) هي أساس المعرفة الطبيّة في جامعات أوروبا .

أما طريقة الفحص الطبي عند الأطباء المسلمين ، فقد ارتفعت الى أرقى أساليب الفحص الطبي الحديث ، فكان الطبيب يجسّ النبض ، ويحلّل البول ، ويتتبّع تاريخ المريض ، والعلل التي انتابته في حياته ، ويهتم بمعرفة الاصول الصحية بين أفراد أسرته ، وعاداته وطرائق معيشته ، ومناخ البلدة التي يقيم فيها ، ويفحص لون الجلد ، وملحمة العينين وحالة التنفس ، ودلالة ذلك الدقّة والعناية بالمرض ، ولهذا فقد برع الأطباء المسلمون في تشخيص الأمراض والتفريق بين المتشابه منها (١) .

وقد كان انتقال الطب الى أوروبا في فترة مبكرة ، حيث أنشئت مدارس للطب في كل من : نابولي ، ومونيليه ، وبولونيا ، واورليان ، واكسفورد ، وكمبرج ، وكلها تعتمد على المراجع العربية المترجمة الى اللاتينية ، كأساس لتدريس الطب .

ومن أهم الكتب التي ظلت عمدة للدراسة الطبية ، طيلة ستة قرون كتاب « القانون في الطب » لـ « أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا » ، المولود عام ٩٨٠ م ، في قرية (أفشنه) من قرى بخارى وتوفي عام ١٠٣٧ م .

طبع كتاب « القانون » أو - قواعد الطب - لابن سينا ، في روما عام ١٥٩٣ م واتخذ هذا الأثر الطبي الشهير ، أساساً للدراسات الطبية ، في جامعات فرنسا وإيطاليا ، خلال ستة قرون .

ويتألف هذا الكتاب من خمسة أجزاء اشتملت على : علم وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، وعلم الأمراض ، وعلم المعالجة ، والمادة الطبية (٢) .

ولابن سينا في (القانون) آراء صحيحة قيّمة ، وملاحظات على غاية من

(١) فضل الحضارة العربية الاسلامية على العالم للاسناد زكروا هاشم زكريا ص ٤٠٦ .
(٢) ويقصد بعلم المعالجة وصف العلاج وتركيبه ، كما يقصد بالمادة الطبية ، الاشارة الى اعراض المرض وتشخيصه .

الأهمية ، فقد فرّق بين التهاب الحجاب الفاصل بين الرئتين ، وبين ذات الجنب ، وأشار الى عدوى السلّ الرئوي ، وقال بانتشار الأمراض المعدية بواسطة الماء والتراب أيضاً ، وعرف التهاب السحايا ، والالتهابات المختلفة في الصدر ، ونزّاج الكبد ، ووصف اليرقان وصفاً واضحاً ، والسكتة الدماغية (موت الفجأة) وعرف العقاقير التي تنشط القلب ، وتكلم عن الآلام العصبية .

وكانت له معرفة بالطب النفساني (وقد سبق العالم النساي الشهير — سيغموند فرويد — بالعلاج بطريقة التحليل النفسي) .

فقد دعي الى عيادة فتى مريض ، حار الأطباء في معرفة علته (ويقال أن اسم البلد جرجان) . فأمر باستدعاء عريف (مختار) من عرفاء المدينة (خير بأسماء الأمكنة) وتناول يد الفتى يجسّ نبضه ويرقب وجهه ، وطلب الى العريف أن يسرد أسماء الأحياء ، في تلك الناحية ، ففعل ، حتى إذا ذكر شيئاً منها ، ازداد نبض الفتى ، فسأل العريف أن يذكر بيوت ذلك الحيّ ، فازداد نبض ذلك الفتى ارتفاعاً ، عندما ذكر واحد من بيوت الحيّ ، فطلب ابن سينا الى العريف أن يعدّد أسماء بنات ذلك البيت ففعل ، وعند ذكر واحدة منهن ، كشف الطبيب النفساني علّة الفتى ، وقال لأهله : زوّجوه من هذه الفتاة ، فهي الدواء ^(١) .

(١) أثر عن ابن سينا ، أنه نظم الشعر ، وكان شعره من النوع (الطبي) أو (الفلسفي) . أما في مجال الشعر الفلسفي ، فله وصف ، لاتصال النفس بالجسد ، بعد هبوطها من عالم الروح الشرك الكثيف : هو القصص الجسدي ، الذي تعقب مطاله المادية ، نحرر الروح وانطلاقها في رحاب النقة والايمان بالله .

وأعظم جراحى المسلمين هو (أبو القاسم القرطبي) (خلف بن العباس — الشهير بالزهرائي) •

وكان جراحاً بارعاً ، له كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » مؤلف من ثلاثة أقسام : قسم طبي ، وقسم صيدلي ، وقسم جراحي ، ويذكر (الزهرائي) تعقيم الجراح وتطهيرها بالكلي (بالنار) وبالقوابض (المواد المرّة — التي تقلّص الأجسام وتشدّها) وهو يؤكّد حاجة المشتغلين بالطب ، إلى تشريح الأجسام (ميّنة — وحيّة) •

ويقول العالم الفيزيولوجي الشهير (هالر) مؤكداً : كانت كتب أبي القاسم

يشبه فيلسوفنا النفس في أصالة صفاتها (بالحامة) في الإنس والوداعة ، والاطمئنان الى العدالة والسلم ، مرقون ذلك بالاباء والنفور من الظلم ، ولا تزال (هذه الحامة — النفس في أصالة الصفاء) في حنين إلى ملك الأصالة (إذا ذكرت عهداً بالحمى — وعاد اليها الصفاء القطري) •

ثم يتساءل (فيلسوفنا) في معرض اتصال النفس بالجسد ، عن سبب هذا الهبوط ؟ انها الحكمة الإلهية التي حجبت عن الإنسان : (ليدرك عدالة الله — لتجزي كل نفس بما تسعى) •
ليسرّ الإنسان بجمرة هذا الصراع (بين واقع ومثله الأعلى) •

- بين حاذبية الأرض (نزعات الفردية ، الانانية المفرطة ، المصلحة الشخصية) •
- ... وجاذبية السماء (منطق الثقة والايان بالله — منطق الحكمة والرحمة والعدالة) وما يؤدي الى تزكية النفس وانطلاقها في رحاب رضوان الله ، تحرراً من قيود الهوى والانانية ...
- و تكون النتيجة لهذا الصراع (السعادة — سعادة الاطمئنان لعدالة الله) لمن اعتصم بحبل الله ، وجاهد نفسه وهواه ، وألزم نفسه بمنهاج الله ، تعظيماً لأمر مولاه ... (أو الشقاء — شقاء الحرمان من عناية الله) لمن أعرض عن ذكر الله وأهمل وصاياه ، وبقي على الغفلة والجهالة ، متبعاً لهواه وكما قال تعالى :

- « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » • سورة النازعات : الآيات : ٣٧ — ٣٨ •
- أما شعر ابن سينا (في مجال الطب الوقائي) وحفظ الصحة ، فنقتطف منه الآيات التالية :

احفظ أخيّ وصيتي واعمل بها	فالطبّ معقود بنص كلامي
لا تشربن عقيب أكل عاجلا	فتفود نفسك للأذى بزمّام
واجعل طعامك كل يوم مرّة	واحذر طعامك قبل هضم طعام
واحفظ منيّك ما استطعت فانه	ماء الحياة يراق في الأرحام
فكن الحريص على العدالة دائماً	وعلى البكور ليقظلة ومنام
إن السعادة صحة وصيانته	فاحفظ رعاك الله نصح إمام

الزهرراوي ، المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين ، بعد القرن الرابع عشر ، وترانا مدينين لأبي القاسم ، بكثير من الآلات الجراحية ، التي تظهر صورها في كتبه .

ووصف أبو القاسم عملية سحق الحصة ، في المائة ، (التي عدت اختراعاً عصياً على غير حق) فأشار الى عملية الشق ، الى عين المكان الذي يشير اليه جرّاحونا في الوقت الحاضر .

وكتاب أبو القاسم في الجراحة ، طبع باللاتينية عام ١٤٩٧ م ، وحسبنا أن نعلم أن كتاب أبي القاسم الزهرراوي الأندلسي ، المؤلف من واحد وعشرين جزءاً ، في الطب والجراحة ، قد اشتمل على أكثر من (مائتي شكل) للآلات والأدوات الجراحية ، التي كان العالم يستعملها في ممارسة أعماله الجراحية ، وكانت ترجمة هذا الكتاب ، مرجع الأطباء ، وهو أحد الكتب السبعة ، التي قام عليها العلاج والصيدلة في أوروبا ، وهو أول من وفّق الى ربط الشرايين لمنع النزيف (على ما ورد في دائرة المعارف البريطانية) .

وكان أبو القاسم الزهرراوي (الجراح) هو أول من وضع أصول علم الجراحة ، حتى ساعدت مؤلفاته الجراحية على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا ، وذاعت شهرة (الفصل الثلاثين) من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» المنوه عنه آنفاً ، (وهو الفصل الخاص بالجراحة) ، في جميع أنحاء أوروبا . يقول العالم الكبير (هالر) :

ان كتب أبي القاسم الزهرراوي الأندلسي ، كانت المصدر المشترك الذي نهل منه ، وانكبّ عليه ، جميع الجراحين الذين ظهوروا بعد القرن الرابع عشر ، ولقد طبعت أول مرة ترجمة لاتينية لكتاب أبي القاسم عام ١٤٩٧ م أما آخر طبعة ، فكانت عام ١٨٦١ م .

ونلاحظ بوضوح ، أن كتاب الزهرراوي هذا ، في الجراحة ، يعادل (في مجال الدراسات الطبية) في الاهتمام ، كتاب (القانون) لابن سينا ، الذي أشير اليه آنفاً .

وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، المولود في بلدة (الريّ) من أعمال فارس (جنوبي طهران) عام ٨٥٤ م والمتوفى في بغداد عام ١٩٣٢ م والذي نعتوه بـ (جالينوس العرب) ، كان مديراً لأطباء مستشفى (الريّ) ثم مدير المستشفى في (بغداد) لبراعته في الطب ، وتنسب إليه أيضاً خياطة الجروح الباطنية بأوتار العود ، وقد ألّف كتباً عديدة كانت محوراً في دراسة الطب بالمعاهد والجامعات الأوروبية ، فترة طويلة من الزمان ، وأهمها (الحاوي) ويعتبر من أوسع دوائر المعارف في الطب والجراحة .

تكلم (الرازي) في هذا الكتاب عن أمراض الرأس (السكتة ، الفالج ، أمراض العصب واسترخائه وعن الصرع والتشنج والكزاز) ثم عن أعراض كل مرض ، ويصف العلاج الموافق له ، ثم يؤكد تشخيصه وصحة مداواته بأمثلة كثيرة من تجاربه .

وكتابه في الجدري والحصبة ، يعتبر مضمونه في مقدمة الاكتشافات ، فقد سبق غيره من الأطباء في وصف هذين المرضين ، وطبعت مقالة الرازي عن الجدري أربعين طبعة باللغة الانكليزية وحدها ، ما بين عام ١٠٧٨ - ١٨٦٦ م ، وهذه المقالة استنار بها جميع الأطباء ، في جميع الأمم .

وكان (الرازي) أيضاً أول طبيب لاحظ (تجاوب بؤبؤ العين - مع النور - ضيقاً واتساعاً) . وسجل ملاحظته هذه ، وكان يدعو الى معالجة الحمى الناشئة عن الالتهاجات ، بكمدات الماء البارد ، ويحثّ على معالجة الحمى على أساس مسبباتها .

وقد اعترف بفضله الغربيون ، وعلماء أمريكا وجامعاتها ، ومما يدل على تقديرهم للطب العربي ورجاله ، اهتمام (جامعة برنستون) الأمريكية بالحضارة الاسلامية ، فقد خصصت أفخم ناحية في أجمل أبنيتها ، لمأثر علم من أعلام الحضارة الخالدين (الرازي) ، كما أنشأت داراً لتدريس العلوم العربية ، والبحث عن المخطوطات واخراجها ، ونقلها الى الانكليزية ، ليتمكن العالم من الوقوف على آثار التراث الاسلامي ، في تقدم الطب وازدهار العمران .

لقد ألّف (الرازي) كتباً قيّمة جداً في الطب (كما ذكرنا) وقد أحدث بعضها أثراً كبيراً في تقدمه ، وفي طريق المداواة ، وقد امتازت (بما تجمعه من علوم اليونان والهند) إلى آرائه وبحوثه المبتكرة ، وملاحظات تدل على النضج والنبوغ ، كما تمتاز بالأمانة العلمية ، إذ نسب كل شيء نقله الى قائله وأرجعه الى مصدره .

لقد سلك الرازي في تجاربه (كما يتجلى من كتبه) مسلكاً علمياً خالصاً ، وهذا ما جعل لبحوثه في الكيمياء قيمة ، دفعت الباحثين الى القول : « إن الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً » .

والرازي من أوائل الذين طبقوا معلوماتهم على الطب ، ومن الذين ينسبون الشفاء الى إثارة تفاعل كيميائي في الجسم (في جسم المريض) ، ويتجلى فضل الرازي على الكيمياء بصورة واضحة في تقسيمه المواد الكيميائية المعروفة في زمانه إلى أربعة أقسام أساسية وهي :

المواد المعدنية ● المواد النباتية ● المواد الحيوانية ● المواد المشتقة .

ثم قسم المعدنيات لكثرتها ، واختلاف خواصها الى ست طوائف ، ولا يخفى ما في هذا التقسيم من بحث وتجربة ، وهو يدل على إلمام تام بخواص هذه المواد ، وتفاعلاتها بعضها مع بعض .

وكان ابن النفيس^(١) هو أول من وصف (الدورة الدموية) قبل أن يكتشفها

(١) ابن النفيس هو العلامة العربي - علي بن أبي الحزم القرشي ، ولد عام ١٢١٠م وتوفي ١٢٨٨م وهو أحد أطباء دمشق المشهورين ، كان إماماً في علم الطب ، وكتابه (شرح تشريح القانون) اهمة قصوى ، لأنه في وصفه للرئة سبق غيره ، في اكتشاف الدورة الدموية (الرئوية) الصغرى ووصفها وصفاً علمياً دقيقاً . والدورة الدموية الصغرى ، هي دورة الدم في الرئتين ، ويلفها الدم بواسطة الشريان الرئوي ، مدفوعاً من (بطين القلب الأيمن) فينتقي فيها ، باحذه الاوكسجين ، ثم يعود (بالاوردة الرئوية) إلى البطين الأيسر من القلب ، منمناً بذلك دورة تمتعها (بالصغرى) نمييزاً لها عن الدورة الكبرى ، وهي دورة الدم في كافة أنحاء الجسم .

أما أول من اكتشف الدورة الدموية الكبرى فهو (وليم هارفي) وهو عالم مسولوجي انكليزي ، ١٥٧٨ - ١٦٥٧ م درس في كمبردج ، وجامعة بادوا ، مارس الطب في لندن ، ووضع نظريته عام ١٦٦٦ م ، أعان (هارفي) في اكتشافاته الطبية فيما بعد .

« سرفينوس » البرتغالي بثلاثمائة عام ، وهو الذي أجرى التجارب والاختبارات ، وأثبت أن الدم ليس سائلا • مستقراً في الأورد والشرين ، بل هو سائل متحرك يدور في جميع أنحاء الجسم •
يقول عنه الاستاذ (جورج سارتون) أنه أول من اكتشف الدورة الدموية ، فهو بذلك الرائد للطبيب الانكليزي (وليام هارفي) الذي ينسب اليه اكتشاف الدورة الدموية •

بناء المستشفيات :

أول المستشفيات في الاسلام بناء الوليد بن عبد الملك (٧٠٦ م) في دمشق وجعل فيه الأطباء •
وفي أيام الخلافة العباسية ، كثرت المستشفيات ، في بغداد ، وفي الأمصار ، فمن بنى المستشفيات هارون الرشيد ، والمعتضد ، والمقتدر العباسي ، ثم معز الدولة بن بويه ، وأخوه عضد الدولة •

ونالت مصر في بناء المستشفيات عناية كبيرة : بنى الأمويون مستشفى في القسطاس (مصر القديمة) ثم بنى (الفتح بن خاقان) (الوزير لدى الخليفة المتوكل العباسي) مستشفى القسطاس أيضا ، ثم بنى أحمد بن طولون فيها (المستشفى الأعلى) ، كما بنى كافور الأخشيدي المستشفى الأسفل •
وقد بنى صلاح الدين الأيوبي (المستشفى الناصري) في القاهرة ، وبيمارستان الاسكندرية ، كما بنى نور الدين بن محمود الزنكي ، المستشفى النوري الكبير في دمشق (١) •

(١) بصف الرحالة المعروف (ابن جبير) المستشفى الذي بناء صلاح الدين الأيوبي ، وما رآه فيه أثناء زيارته (القاهرة) سنة ٥٧٨هـ كما يلي :

رأينا من أعمال هذا السلطان المجيدة ، المستشفى في القاهرة ، وهو قصر رحب جميل ، ومدير المستشفى مدير مقتدر عنده كل أنواع الادوية والجرجات ، ويولي المدير أمناء يسهرون على راحة المرضى ليلا ونهارا ، ويعطونهم الغذاء والجرجات الموافقة ، وللنساء رواق خاص ، وتعني بهن ممرضات ويعرف السلطان أحوال المستشفى ، فهو دائم السؤال عنه ، والبحث فيه يشدد في توفير العناية النامة الدائمة للمرضى •

الصيدلة (علم الادوية) عند العرب :

كان العرب قد جعلوا مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب ، في بغداد ومصر والأندلس ، وفي كلية طب سالرنو وهي الاولى في أوروبا اللاتينية ، لتدريس الطب والصيدلة ، بالعربية واللاتينية ، وبقيت نحو تسعمائة عام ، الى أن أصدر نابليون عام ١٨١١ ، قانوناً لتنظيم كلية الطب في سالرنو .

وظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب لأول مرة ، في أواخر القرن الحادي عشر عندما أمر الامبراطور « فريدريك الثاني » بألمانيا ، بعدم ممارسة الطب أو الصيدلة إلا باذن خاص . وفتح فريدريك أبواب مملكته للعلماء العرب ، ودعا الكثير منهم ، ومن غيرهم من علماء أوروبا والشرق ، لتدريس العلوم الطبية ، في كلية طب سالرنو ، وجامعة نابولي التي أنشأها .

ومن الكتب التي كان على الصيادلة دراستها (في سالرنو) دستور طبي للصيادلة ، به الطرق التي يجب اتباعها في تحضير العقاقير ، وذكر فيه طريقة استعمال الاسفنج للتخدير (وهي مزيج من خلاصة الأفيون والبنج واليبروح ، ونباتات أخرى ذات تأثير مخدر) تجمع وتجفف في الشمس ، ثم تنقع في ماء

وقد تفنن أطباء العرب في أساليب معالجة المرضى ، حتى اهتموا الى المعالجة بالموسيقى ، لقد كانت الاجواء الموسيقية في (بيمارستان - فاس) تروح عن المرضى ، وتسليهم عن آلامهم (ومعنى كلمة بيمارستان - بيت المريض) وكذلك الامر في (بيمارستان - النوري بدمشق) ، فقد كانوا يجلبون القصاص (وهو الذي يتحدث بالقصص والحكايات) الى قاعات المرضى فيه .

وكانوا يجعلون لمن يخرج من المشافي من المرضى عند برقه ، كسوة ، ومن مات ، جيز وكفن ودفن . ورتب في المستشفى مختلف الأطباء (الجراحون ، المجربون ، الكحالون ، أطباء العيون) كما رتب الفراهيون (الأذنون والمستخدمون) والفراشات ، لخدمة المرضى واصلاح أماكنهم وغسل ثيابهم ... وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تخصص بهم ، فجعلت فاعة للرمد (أمراض العيون) وقاعة للجرى ، وقاعة للنساء ، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس في الطب ينتفع بها الطلبة . وقد جعل السلطان (المارستان) سبيلا لكل من يصل اليه ، في سائر الاوقات ، من غني أو فقير . ولم يقتصر أيضا فيه على من يقيم به من المرضى ، بل رتب لمن يطلب - وهو في منزله - ما يحتاج اليه ، من الاشرية والأغذية والادوية .

ورتب على ذلك كله الأطباء الماهرين ، والشهود المبرزين ، والنظار العارفين ، لكل من هو في معالجته موثوق بعذاله ، مسلم له في معرفته ، غير مقصر في نصرته وخدمته .

ساخن ، وعند الاستعمال (تملأ الاسفنجة من السائل) ويقطر المحلول في فتحتي أنف المريض •

ويعتبر هذا أول استعمال للتخدير ، في الجراحات والآلام المرضية •
وظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب ، وفتحت صيدليات تحضر (التذاكر) الوصفات الطبية ، ويقسم الصيادلة اليمين ، على أن يكونوا أمناء في تحضير العقاقير بدقة •

وحددت الدولة أثمان العقاقير ، ووضعت رقابة شديدة ، فإذا خالف (الصيدلي) أو (الرقيب) الذي يقوم بالتفتيش عليه ، تلك القوانين ، وارتكب أي غش في أنواع العقاقير ، عوقب بعقوبات قاسية ، قد تصل الى الاعدام ، وذلك لحماية الشعب •

والعرب هم الذين وضعوا أسس صناعة (الصيدلة) ، فكانوا يجلبون العقاقير من الهند ، ومن غيرها ، ثم راحوا يصنعون مختلف العقاقير ، ويعالجون بها المرضى ، ويدرسونها ويؤلفون الكتب فيها •

ولم يقف تنظيم الطب والصيدلة عند العرب الى هذا الحد ، فقد فرضوا على الأطباء أن يكتبوا ما يصفوا للمريض من أدوية على ورقة خاصة ، كانت تسمى بأسماء مختلفة : التذكرة ، الصفة ، النسخة ، وسميت أخيراً (الوصفة الطبية) •

وقد أراد (مجمع الصيدلة في انكلترا) أن يختار أعظم اثنين ، تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل ، فوقع اختياره على (جالت) اليوناني ، و (ابن سينا) الطبيب العالمي الشهير •• وهذا الاقرار بفضل العرب والمسلمين أدلى به :

● السير هيولستن (رئيس الاتحاد الدولي للصيدلة) في المؤتمر الصيدلي العربي الذي أقيم في القاهرة عام ١٩٦٢ م •

● والدكتورة شوارتزه (وزيرة الصحة بجمهورية ألمانيا الاتحادية) في افتتاح المؤتمر الدولي - للبهارسيا - بالقاهرة ، حيث شهدت بذلك في قولها :
« ان الغرب لن ينسى أبداً أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وان مؤلفات ابن

سينا ، والزهرائي ، والرازي ، كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرّس في جامعة (بالرمو) التي تضم أشهر مدرسة للطب في العالم الغربي ، وكانت هذه الكتب ، قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية •

ويشهد بذلك (الدكتور غريسيب) مدير جامعة برلين ، ورئيس فرع الطب فيها حيث قال في حفل (أقامه الطلاب المسلمون - بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف) :

« أيها الطلاب المسلمون ، والآن قد انعكس الأمر ، فنحن الأوروبيين يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم ، فما هذه العلوم الا امتداداً لعلوم آبائكم ، وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر ، طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم ، ما زال موجوداً بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندهم ، فارجعوا الى الماضي لتؤسسوا للمستقبل ، ففي قرآنكم علم وثقافة ، ونور معرفة ، وسلام عليكم يا طلابنا إن كنا في الماضي طلابكم » •

وكان العرب يخصّصون قسماً خاصاً من المستشفيات التي أسسوها - منذ أيام الوليد بن عبد الملك - لتدريس علوم الطب والصيدلة ، وأعدّ جزء خاص للصيديليات وتحضير العقاقير وصرفها للمرضى •

وللعرب فضل كبير على فن الصيدلة ، ولعلمهم أول من اعترف بالصيدلة كسنة وعلم مستقل بذاته ، وعرفوا الصيدلة بأنها :

« العلم الباحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل ، ومعرفة منابتها (صينية أو هندية ، أو فارسية أو مصرية) ومعرفة زمانها (بأنها صيفية أو شتوية أو ربيعية) ومعرفة جيدها من رديئها ، ومعرفة خواصها الى غير ذلك » •

وعرضه وفائدته ظاهران ، والفرق بين علم الصيدلة وعلم النبات ، أن الأول (بالعمل أشبه) والثاني (بالعلم أشبه) وكل منهما مشترك بالآخر •

وكان الصيدالة لا يمارسون عملاً في المستشفيات إلا إذا كان معروفاً عنهم الأمانة والكفاءة ، ويعطون التراخيص ، بعد تقييد أسمائهم في سجل خاص بهم ، كما كان لكل صيدلية (أمين) يتسلم ما بها ويحافظ عليه .

وقد ترك لنا عدد من أطباء العرب وصيادلتهم ، والدارسين للنباتات والأعشاب الطبية ، والعقاقير (على سائر أنواعها) كتباً ، تقدم صوراً واضحة ، لما كان عليه العلاج بالعقاقير والأعشاب والطرق الطبية الشائعة الاستعمال ، توضح لنا مهنتي الطب والصيدلة ، حتى أواخر القرن الماضي .

ورسموا لنا صوراً لصيدلياتهم العربية الخاصة في عواصم حضارتهم ، وقد ارتدى الصيدلاني ثياباً بيضاء ، ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء ، ومن ورائه (الأرفف) الممتلئة بالأوعية والقوارير .

وكانوا يستخرجون السكر من قصب السكر ، ويصنعون منه الشراب ، كما أنهم كانوا ذوي خبرة في استعمال أملاح معدنية كثيرة ، كأملح الزئبق والرصاص والحديد والصودا والبوتاس ، كما أنهم كانوا يحضرون في الجزء الخاص بالمعمل (من الصيدلية) الزيوت العطرية والكحول .

وقد خلف لنا العرب الكثير من كتب الصيدلة مثل :

تذكرة ابن داود : وهو كتاب ضخيم معروف ، لدى محبي البحث في العقاقير العربية القديمة ، كما أنه كان من مراجع الصيدالة في القرون الماضية ، ويشمل عقاقير وأعشاباً ، ووصفات طبيّة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية ، ولا ابن داود ، كتب أخرى غير (تذكرة أولي الألباب) المنوه عنها آنفاً ، منها كتاب «البهجة والدرّة المنتخبة فيما صحّ من الأدوية المجرّبة» و «غاية المرام في إصلاح الأبدان» .

وفجأة ، وفي عام ١٩٦٤ م بدأ العلماء في أوروبا وأمريكا ، يعيدون قراءة (تذكرة أولي الألباب) في محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض ، ويبدو أن (ابن داود) كان صادقاً فيما كتبه ، وذلك ان شركات الأدوية (في ألمانيا والدانمرک،

وهولندا وإيطاليا وأمريكا) طلبت شراء بعض النباتات التي وردت (في كتاب التذكرة المنوه عنه) بما قيمته مليون جنيه مصري ، ومنها ورق السكران ، لاعداد البنج الموضوعي و (بذر الخلّة) الخاص بأدوية القلب ، وبذور البقدونس وورق البرفوف (لعلاج احتباس البول) كما أشير الى أن (شرش الوردنيا) مفيد في النزيف الدموي •

ومن كتب الطب الشعبي المشهورة أيضاً كتاب « منهاج الدكان ودستور الأعيان » لأبي المنى - داود بن أبي النصر ، من علماء القرن السابع الهجري •

وفي الفصل الأول منه (نصائح قيّمة) لمن استصلح نفسه ، في أن يكون مقلداً لعمل هذه (المركّبات) كأن يكون على غاية من الدين والثقة ، والتحرّز والخوف من الله أولاً ومن الناس ثانياً حيث يقول :

اعلم وفقك الله لطاعته وأرشدك الى مرضاته ، أن الله خلق للانسان عقلاً ، وجعله كالسراج يفرق بين الخير والشر ، والحسن والقيح ، وجعله مخيراً في ذلك ، وان المبدأ منه تعالى ، فاذا أراد الله بالانسان خيراً ، أجرى الخير على يديه ، فأعانه على فعله (ويسر له أسبابه) ، وإذا كان غير مستحق لذلك ، تخلت عنه العناية الإلهية ، ففعل الشرور وقوبل عليها في الدنيا والآخرة (لأن الجزاء في شريعة الله من جنس العمل) •

والآن - فاحرص يا أخي أن تكون في نفسك أولاً تقوى الله تعالى (تعظيم أمره) والخوف والاحلال لعدالته ، خوف محبة في ذاته ، لا خوف عقابه ، فان أجرك يكون عظيماً ، ويكون جانبك من الناس سليماً ، واعلم بأنه لا ذنب أعظم من ظلم الناس ، وأخذ أموالهم بغير حق ، لا سيما من كان ضعيفاً أو مسكيناً ، كمثل مريض قد أشرفت نفسه على الهلاك ، فيستدعي طبيباً حاذقاً ، فيكتب له ورقة تطمئن بها جوارحه ، على أنها يكون بها برؤه ، مع عناية الله تعالى واذنه ، واتكل فيها على الصيدلاني ، فقد رجع الأمر اليك ، فلا إثم إن فرطت الا عليك ، فهل تستحسن أنت لو كنت مريضاً أن تفرط في حقك ، وأنت تعلم هذا التفريط

مؤدٍ الى إتلاف المال والروح ، وأنت تعلم قدر العقاب من الله تعالى على هذين
الذنين ، وفي هذا القدر من التنبيه (على ما ينبغي) كفاية ، لمن كان ذا بصيرة ولبّ
نير فتذكره - يا أخي - كل يوم وعشاء ، واحفظه ولا تنسه ، والله الموفق .

وكتاب شعبي ثالث اسمه (الرحمة في الطب والحكمة) وجاء فيه وصف
الأعشاب والتركيبات واستعمالاتها وعلاج الأمراض ، مثل : داء الثعلبة في الشعر ،
والبهاق وأوجاع الظهر والمفاصل ، وضيق النفس ، وعلاج الحروق من النار ، أو
الشمس ، وعلل الكبد والطحال ، وطرق الفصد والحجامة ، وحصى المثانة ،
والبول الدموي ، وعلاج البواسير .

وقد استنبط المسلمون العلاج ، فأنشأوا الصيدليات ، ويقال أنهم أول من
أسّس مدرسة للصيدلة ، كما كان لهم قصب السبق في عدة تراكيب كيماوية ،
كالكحول ، وماء الفضة ، والحامض النتري ، وزيت الزّاج (الحامض الكبريتي)
واخترعوا أصول التقطر ، وطبّقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة .

وقد كانت الصيدلة مهنة مستقلة ، لها أصولها وتقاليدها ، ولم يكن في
مقدور الصيدلي أن يعمل إلا بعد اجتيازه امتحاناً ، ثم يقيد اسمه بالجدول الخاص
بالصيدلة ، مع حصوله على ترخيص بالعمل .

وبلغ العلماء المسلمون في هذا المجال أيضاً منزلة كريمة ، وما زالت تأليفهم
الكيماوية تشهد بذلك ، أما المؤلفات الكيماوية الأوروبية ، فانها تشيد بفضل
المسلمين ، ولا يزال كثير من المصطلحات الكيماوية الأوروبية ، يحمل الاسم العربي .

وقد طبّقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ، ولا سيما استخراج المعادن ،
وصنع الفولاذ ، والدباغة ، كما اهتموا الى صنع البارود والأسلحة النارية ،
وصنعوا الورق من الأسمال القطنية الصعبة الكثيرة التراكيب .

يقول الاستاذ (مير هوف) :

« ان علم الصيدلة العربي استمر في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر » .

وكان جابر بن حيان (المولود في طوس سنة ٧٣٧ م - والمتوفى حوالي سنة ٨١٣ م) أول من استحضر الحامض الكبريتي ، بتقطيره من الشبّة ، وسماه : (زيت الزّاج) كما أنه أول من كشف الصودا الكاوية وأول من استحضر ماء الذهب ، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة ، بالحلّ بواسطة الحامض ، ولا تزال هذه الطريقة تستخدم حتى الآن ، في تقدير عيارات الذهب في السبائك الذهبية وغيرها .

وهو أول من لاحظ ما يحدث من رواسب « كلورور الفضة » عند إضافة محلول ملح الطعام الى تترات الفضة ، وينسب اليه استحضار مركبات أخرى ، غير التي مرّت ، ككربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، واستعمل ثاني أوكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج ، ودرس خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها ، وقد استعمل بعضها فيما بعد ، في تحضير الاوكسجين ، ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية عظيمة في عالم الصناعة ، فبعضها يستعمل في صنع المفرقات ، وبعضها الآخر في السماد الصناعي، والصابون، والحرير الصناعي .

وبحث (جابر) في السموم ، وله فيها كتاب : (السموم ودفع مضارّها) ، ولعل من أروع ما كتب في هذا الموضوع ، وهو من أندر المؤلفات ، ابتاعه (قبل ثلاثين عاماً) أحمد باشا تيمور ، وكتب عنه بشيء من التفصيل .

وقد سار (جابر) في معالجة بحوث الكتاب على طريقة علمية ، لا تختلف في جوهرها ، عما هو جار الآن ، فأتى فيه على أسرار وأقوال فلاسفة اليونان ، في السموم وأفعالها ، كما ضمّنه آراء جديدة ، وتقسيمات ، لأنواع السموم وأدويتها ، وتأثيرها وأفعالها في أجسام الحيوانات ، مما لم يصل غيره إليه .

ولهذا الكتاب أهمية كبرى عند علماء تاريخ العلوم ، وذلك لما له من وثيق العلاقة بالطب والكيمياء ، وسنأتي على شيء من أقسامه ومحتوياته ، وهو يتبدى كما يلي :

» بسم الله الرحمن الرحيم - قال أبو موسى جابر بن حيان - : قد ارتسمت

— أطل الله بقاءك — ما أمرت به ، وأحدثت من الشرح ، ما علمت أنك من الفهم بحسبه ، و انتهيت الى إرادتك ، وأتيت على حاجتك ، وأرجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك ، وتكون به راضياً ، ولأدبك كافياً »

قال بعضهم : ان السمّ جسم كوني ذو طبائع غالبية ، مفسدة لمزاج أبدان الحيوان وقال آخر : إنه مزاج طبائع غالبية ، لدواب الحيوان بذاته ، وقال بعضهم : بأنه مزاج قوّة ، مزاج غالب ، مفسد ومصلح ...

فهذه آراء الناس في حدّه (أي في تعريفه) ، فأما غرضنا في هذا الكتاب ، فهو الإبانة ، عن أسماء أنواع السموم ، وكذا أفعالها ، وكميّة ما يستقى منها ، ومعرفة الجيد من الرّديء ، ومنازل صورها ، والأعضاء المخصوصة المقابلة لجوهريّة خواصها ، وأذكر مع ذلك ، السمّ الذي يكون نافذاً بفعله في سائر البدن والمهلك بجملته .

وينقسم الكتاب الى فصول خمسة :

الاول : في أوضاع القوى الأربع ، وحالها مع الأدوية المسهلة ، والسموم القاتلة ، وحال تغيّر الطبائع ، والكيّموسات المركبة .

الثاني : في أسماء السموم ، ومعرفة الجيد من الرّديء ، وكمية ما يستقى من كل واحد منها ، وكيف يستقى ، ووجه إيصالها الى الأبدان .

الثالث : في ذكر السموم العامة الفعل في سائر الأبدان ، والتي تخص بعض أبدان الحيوان دون البعض ، والتي تخص بعض الأعضاء من أبدان الحيوان دون بعض .

الرابع : في علامات السموم المسقاة ، والحوادث العارضة منها في الأبدان ، والاندثار فيها بالخلاص ، والمبادرة الى علاجه .

الخامس : في ذكر السموم المركبة ، وذكر الحوادث الحادثة منها .

السادس : في الاحتراس من السّموم قبل أخذها ، فإذا أخذت لم تكد تضرّ ، وذكر الأدوية النافعة من السموم إذا شربت من قبل ، بعدم الاحتراس منها .

ويتبين من الكتاب أن (جابراً) قسم السموم الى : حيوانية ، ونباتية ،
وحجرية ، وذكر من السموم الحيوانية : مرارة الأفاعي ، ومرارة النمر ،
ولسان السلقفاة ، الأرنب البحري ، والعقارب

ومن السموم النباتية : قرون السنبيل ، والأفيون ، والشيلم ، والحنظل ،
والشوكران ...

ومن السموم الحجرية : الزئبق ، والزرنيخ ، والزجاج ، وبرادة الحديد ،
وبرادة الذهب ... وقد أسهب في وصف كل هذه السموم ، وأتى على عملها
وأثرها في أجسام الحيوانات .

ويمتاز (جابر) عن غيره من العلماء ، بكونه في مقدمة الذين عملوا
التجارب ، على أساس علمي ، هو الأساس الذي نسير عليه الآن ، في المعامل والمختبرات .
لقد دعا (جابر) الى الاهتمام بالتجربة ، وحث على إجرائها ، مع دقة
الملاحظة ، كما دعا إلى التأني وترك العجلة ، وقال : ان واجب المشتغل بالكيمياء ،
هو العمل وإجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل إلا بها ، وطلب من الذين يعنون
بالعلوم الطبيعية ، أن لا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن
يعرفوا السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليمات جيداً « لأن لكل صنعة
أساليبها الفنية » على حدّ قوله ، وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأني باستنباط
النتائج ، واقتفاء أثر الطبيعة ، فيما تريده من كل شيء طبيعي ، وفوق ذلك ، طالب
المشتغل بالكيمياء ، أن يكون له أصدقاء مخلصون ، يركن إليهم ، يحملون مزاياه
وصفاته ، من صبر ومثابرة وشدة ملاحظة ، وعدم الوقوف عند الظواهر ، ولهذا
لا عجب ، إذا كان قد وفق في الكثير من العمليات : كالتبخير ، والتقطير ،
والتكليس ، والإذابة ، والتبلور ، والتصعيد ، وغيرها من العمليات الهامة في
الكيمياء ، فوصفها وصفاً هو في غاية من الدقة وبيّن الغرض من إجراء كل منها .
وضع (جابر) عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل ، وردت في كتاب
« الفهرست » لابن النديم ، ومن كتبه التي ترجمت الى اللاتينية « كتاب الجمع »

و « كتاب الاستتمام » و « كتاب الاستيفاء » و « كتاب التكليس » ♦

ولقد تركت هذه الكتب الأربعة وغيرها ، أبلغ الأثر عند العلماء والفلاسفة ، حتى أن بعضهم رأى فيها من المعلومات : « ما هو أرقى ما يمكن تصوّره صادراً عن شخص عاش في القرن التاسع للميلاد » ، مما يدلّ على قيمة هذه الكتب ونفاستها ، من الناحية العلمية والكيمائية ♦

هذا بعض ما قام به (جابر) في العلم ، ولا شك أنه بهذه الإضافات ، والطريقة العلمية التي سار عليها في بحوثه وتجاربه ، قد أحدث أثراً بعيداً في تقدم العلوم ، وخاصة الكيمياء ، فأصبح بذلك أحد أعلام العرب ، ومن مفاخر الإنسانية ، إذ استطاع أن ينتج ، وأن يبدع في الاتّاج ، مما جعل علماء أوروبا يعترفون له بالفضل والسبق والنبوغ ♦

★ ★ ★

الفصل الخامس

العلوم الرياضيّة والطبيّة

عند العرب

الحساب - الجبر - الهندسة - العلوم - البصريات

لم تقتصر الثقافة الاسلاميّة على الجوانب النظرية (كعلوم الدين والأدب والفلسفة) وانما تناولت الجوانب العلمية التجريبية ، وأسهمت فيها إسهاماً كبيراً ، وأسدت للحضارة الانسانية فكراً علمياً ، وثروة من النظريات والآراء والأفكار ، اعترف بقيمتها المؤرخون ، وأشادوا بدورها الفعّال ، في تنمية الفكر العلمي ، الذي قاد المجتمع البشري الى حضارته الحالية .

أما علم (الرياضيات) فقد لقي اهتماماً خاصاً وكبيراً من العلماء المسلمين (من أمثال الخوارزمي والبتاني والبيروني) ويقول : (أ . دو هينولد) :

« يجب عدّ العرب مؤسّسين حقيقيّين للعلوم الطبيعية » .

وبالرغم من ضياع كثير من مؤلفات العلماء المسلمين ، في الفيزياء ، فإن القسم الباقي منها ، أثار إعجاب العلماء الغربيّين ، وجعلهم يعترفون بأصالة الدور العلمي العظيم ، الذي ساهمت به الحضارة الاسلاميّة ، في العلوم الطبيعيّة والتجريبية .

ومن أشهر العلماء المسلمين الذي عرفوا في هذه العلوم « محمد بن الحسن ابن الهيثم » وقد كتب « ابن الهيثم » كتباً ، ومقالات متعددة ، شملت موضوعات متنوعة ، في الرياضيات ، والفلك والطبيعات والبصريات ، والجبر والهندسة ، إلا أن شهرته تقوم على الجهود التي بذلها والدراسات التي قدّمها عن « علم الضوء » والمعروف بالبصريات .

وقد اعتمد في هذه الدراسات على أسلوب علمي تجريبي ، واستطاع من خلاله ، أن يقدم دراسات قيّمة وهامة (١) .

● الرياضيات عند العرب :

عرّف العرب العلم الرياضي بأنه : علم غرضه إدراك المقادير ، وأطلقوه على الحساب ، والجبر والمقابلة ، والمثلثات ، والهندسة ، والفلك

● العرب وعلم الحساب :

عرفوه بأنه علم الأعداد ، واشتقوا اسمه ، من كلمة الحساب المصدرية ، ومعناها العدد .

اطّلع العرب على حساب الهنود ، فأخذوا عنه (نظام الترقيم) ، وهذبوه ، وكونوا منه سلسلتين :

● عرفت احداها بالأرقام الهندية - وهي التي تستعمل الآن - .

● وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية - جاءت تسميتها بالغبارية - لأن أهل الهند ، كانوا يأخذون غباراً لطيفاً ويسطونه على لوح ، ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية .

ولقد قسم العرب (الحساب) إلى :

● غباري : وهو الذي يحتاج فيه الى استعمال أدوات : كالقلم والورق .

● هوائي : وهو الحساب الذهني ، الذي لا يحتاج فيه إلى أدوات .

استعمل العرب (الصفر) في الترقيم ، كما استعملوه في (المنازل الخالية من الأرقام) ، ووضعوا علامة الكسر العشري ، واستعملوا النظام العشري (أي القيم الوضعية للأرقام - الآحاد والعشرات والمئات) .

(١) أشاد الأسناد ، الدوميلي ، في كتابه (العلم عند العرب) بكتاب (المناظر) - لابن الهيثم - الذي ترك آثاراً كبيرة في البحوث التي قدمها عدد من العلماء الغربيين ، وقد نرحم هذا الكتاب الى اللاسه مرات متعددة ، بنظر ص ٢٠٦ .

● العرب وعلم الجبر :

عرّف - الشيخ بدر الدين المارديني - الجبر ، في شرحه على (لامية ابن الهائم) بقوله :

« علم بأصول يتعرّف فيها على مقادير مجهولة : مسمّاة بأسماء خاصة ، ويتوصل به ، إلى استخراج كمية المطلوب : من معلوم مفروض : بينهما صلة » .
وعرّفوه أيضاً : « علم من العلوم الرياضية ، تستخرج به المجهولات ، باستخدام حروف وأرقام وعلامات » .

اشتغل العرب بالجبر ، فجعلوه علماً منظماً ، وهم أول من أطلق لفظة (الجبر) على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الأفرنج لفظة (الجبر) . وكذلك هم أول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة .

لقد وجد المأمون ، في أوائل القرن التاسع الميلادي ، ميل العلماء الى التوسع في الجبر ، فكلّف أحد الرياضيين المنتسبين الى بلاطه ، وأعني به (محمد بن موسى الخوارزمي) ، أن يضع كتاباً في الجبر والمقابلة ، يكون سهل المنال ، لينهل منه علماء العرب ، وما كاد ينشر هذا الكتاب ، حتى استفاد منه علماء العرب ، وعلماء أوروبا على السواء ، واعتسّدوا عليه في بحوثهم ، وأخذوا عنه كثيراً من النظريات .

وقد نشر الكتاب المذكور ، الدكتور علي مصطفى مشرفة (عسيد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول) ، والدكتور محمد موسى أحمد ، عن مخطوط ، محفوظ في (اكسفورد) في مكتبة (بودلين) وعلّق عليه .

ولقد سبق الغربيون العرب الى نشر هذا الكتاب ، والتعليق عليه ، وكان ذلك عام ١٨٣١ م .

ظهر الخوارزمي في عصر المأمون ، وكان ذا مقام كبير عنده ، فأحاطه بضروب من الرعاية والعناية ، وولّاه منصب « بيت الحكمة » كما جعله على رأس بعثة علمية الى الأفغان ، بقصد البحث والتنقيب .

برز (الخوارزمي) في الرياضيات والفلك ، وكان له أكبر الأثر في تقدمهما

وارتقائهما ، فهو أول من استعمل علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وفي قالب منطقي علمي ، كما أنه أول من استعمل كلمة (الجبر) للعلم المعروف بهذا الاسم ، ومن هنا أخذ الأفرنج هذه الكلمة واستعملوها في لغاتهم ، وكفاه فخراً أنه أول من ألّف كتاباً في الجبر ، في علم يعد من أعظم أوضاع العقل البشري ، لما يتطلبه من دقّة وإحكام القياس •

ولهذا الكتاب قيمة تاريخية وعلمية ، فعليه اعتمد العلماء العرب في دراستهم عن الجبر ، ومنه عرف الغربيون هذا العلم •

وكذلك لهذا الكتاب شأن عظيم في عالم الفكر والارتقاء الرياضي ، ولا يخفى ما لهذا الفرع الجليل من أثر في الحضارة ، من ناحية الاكتشاف والاختراع ، يعتمدان الى حد كبير على المعادلات والنظريات الرياضية •

وفي هذا الكتاب الفريد ، أشار الخوارزمي في المقدمة الى الدوافع التي تدفع العلماء الى وضع الكتب ، وكان فيما ذهب اليه يخالف العادة المتبعة عند كثير من المؤلفين في عصره ، وما تلاه من العصور ، فقد كان مجدّداً في الفكرة التي أوردها وصاغها في عبارات بسيطة ، لا تكلف فيها ، قال في بيان الدوافع :

« ولم يزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية ، يكتبون الكتب ، مما يضيفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة ، نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة ، ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره ، ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ، ويحملونه على أنفسهم من المشقة ، في كشف أسرار العلم وغامضه ، إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله ، فورثه من بعده ، وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ، ما كان مستغلقاً فأوضح طريقه ، وسهّل مسلكه ، وقرّب مأخذه ، وأما رجل وجد في بعض الكتب خللاً ، فلمّ شعثه ، وأقام أزره ، وأحسن الظن بصاحبه ، غير رادّ عليه ، ولا مفتخر بذلك في فعل نفسه » •

وكذلك أشار في المقدمة ، الى أن الخليفة المأمون ، هو الذي طلب اليه وضع

الكتاب ، وهو الذي شجّعته على ذلك ، كما بيّن أيضاً شأن الكتاب ، والفوائد التي يجنيها الناس في معاملاتهم التجارية ، وفي مسح الأراضي ، وموارثهم ، ووصاياهم ويقول في هذا كله :

« وقد شجّعنا ما فضّل الله به الامام « المأمون » أمير المؤمنين ، مع الخلافة التي حاز له إرثها ، وأكرمه بلباسها ، وحلّاه بزینتها من الرغبة في الأدب ، وتقريب أهله وإدنائهم ، وبسط كفه لهم ومعوته إياهم على إيضاح ما كان مستبهماً ، وتسهيل ما كان مستوعراً » •

على أنني ألّفت من كتاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً ، حاصراً للطيف الحساب وجليله ، لما يلزم الناس من الحاجة اليه ، في موارثهم ووصاياهم ، وفي مقاسمتهم ، وأحكامهم وتجاراتهم ، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم ، من مساحة الأراضي ، وكري الأنهار ، والهندسة ، وغير ذلك من وجوهه وفنونه ، مقدّماً حسن النية ، راجياً لأن ينزله أهل الأدب — بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم — منزلته ، وبالله توفّيقي في هذا وفي غيره ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم •

ولسنا بحاجة الى القول ، أن المجال لا يتسع (في هذا البحث) لشرح فصول كتاب الخوارزمي والتعليق عليه • ولكتاب الجبر هذا شأن تاريخي كبير ، إذ كل ما ألّفه العلماء والرياضيون فيما بعد ، كان مبنياً عليه (تقريباً) فقد بقي عدة قرون ، مصدرراً اعتمد عليه علماء العرب في مختلف الأقطار ، في بحوثهم الرياضية ، كما أنه المنبع الذي استقى منه فحول علماء أوروبا في القرون الوسطى •

وقد نقله الى اللاتينية (روبر اوف شستر) ، وكانت ترجمته أساساً لدراسة كبار العلماء ، أمثال : (ليونارد اوف بيزا) الذي اعترف بأنه مدين للعرب بمعلوماته الرياضية ، و (كراون) و (تارتا كليا) و (لوقا باصولي) وغيرهم •

ولا يخفى أنه على بحوث هؤلاء تقدمت الرياضيات ، وتوسعت موضوعات الجبر العالي ، وقد نشر الكتاب (فريدريك روزن) كما نشر ترجمته في لندن

عام ١٨٣١ م •

وفي سنة ١٩١٥ نشر (كاربنسكي) ترجمة للكتاب المذكور (عن ترجمة شستر) إلى اللاتينية •

ولهذا الكتاب شروح كثيرة ، ظهرت في العصور التي تلت عصر الخوارزمي ، لكبار رياضيي العرب وعلمائهم ، فقد اعتمدوا عليه ، وأخذوا عنه كثيراً ، ومنهم من استعمل نفس المعادلات التي وردت فيه في مؤلفاتهم ورسائلهم •

وإن من أكبر المآثر التي جاد بها العرب على الحضارة ، نقلهم الحساب الهندي ، وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة في العالم ، ويعود الفضل في تناول الأرقام الى الخوارزمي وغيره من رياضيي العرب ، فلولا مؤلفاتهم في الحساب ، لما عرف الناس الأرقام وقدروا فوائدها ومزاياها •

ونرى إتماماً لموضوع الأرقام ، ولما لها من أهمية في تاريخ الحضارة ، أن تأتي على نبذة موجزة عن تاريخ الترقيم واستعمال الصفر •

إن النظام الذي تتبّعه الآن في الترقيم مبني على أساس القيم الوضعية (أحاد ، عشرات ، مئات) وبوساطته يمكن ترقيم جميع الأعداد ، وإجراء الأعمال الحسابية بسهولة كبيرة •

ولقد بقيت الأمم في القرون الخالية (كالمصريين ، والبابليين ، وغيرهم) محرومة من هذا النظام وكانوا يجدون صعوبة في إجراء الأعمال الحسابية •

ولما نهض العرب نهضتهم العلمية أيام العباسيين ، اقتبسوا فيما اقتبسوه من الهنود ، الأرقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمي عند الهنود ، ومن الغريب ، أن في بلاد الهند أشكالاً متنوعة ومختلفة للأرقام ، ولكن العرب بعد أن اطلعوا على هذه الأشكال ، كوّنوا منها ، سلسلتين عرفت إحداها باسم « الأرقام الهندية » وعرفت الثانية باسم « الأرقام الفبائية » •

ففي بغداد والجانب الشرقي من العالم الاسلامي ، عمّ استعمال الأولى

(أي الأرقام الهندية) وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا ، وشاع استعمال الثانية (أي الأرقام الغبارية) في القسم الغربي من العالم الاسلامي (في الأندلس وأفريقيا والمغرب الأقصى) وهذه الأرقام هي المستعملة الآن في أوروبا ، وهي المعروفة بالأرقام العربية •

ولم يظن أحد - قبل الهنود - لاستعمال الصفر ، في المنازل الخالية من الأرقام ، وقد أطلقوا عليه لفظة (سونيا) ومعناها (فراغ) واستعملوا النقطة (•) كعلامة للصفر ، وقد أخذها العرب عنهم ، واستعملوها في معاملاتهم ، ويقال أن الهنود لم يلبثوا أن عدلوا عن استعمال النقطة ، وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة (0) •

ونرجع الآن الى (الخوارزمي) فنقول إنه وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه ، من حيث (الترتيب ، والتبويب ، والمادة) وقد نقله الى اللاتينية (اولارد أوف بات) • وهذا الكتاب هو أول كتاب دخل أوروبا ، وقد بقي زمناً طويلاً ، مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي عليه يعتمدون في بحوثهم الحسابية ، وقد يعجب القارئ إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم (الغورتمي) نسبة الى الخوارزمي ، ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت أوروبا فيما بعد ، عرفت أوروبا الأرقام العربية (الهندية) •

● علم الهندسة :

قال ابن خلدون (في المقدمة) : واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله ، واستقامة في فكره ، لأن براهينها كلها بيّنة الانتظام ، جليّة الترتيب •

ومن فروع الهندسة ، المساحة ، وهو فن تحتاج اليه في مسح الأرض (قياسها) ويحتاج اليه في توظيف الخراج (توزيع الضرائب) على المزارع والقدن وبساتين الغراسه ...

● العرب والهندسة :

إن اليونان لم يتركوا في الهندسة (القديمة) زيادة لمستزيد ، ولم يستطع

أحد بعد اقليدس ، الذي دوّن علم الهندسة (٣٣٠ - ٣٢٠ ق م) ، أن يزيد على هذا العلم شيئاً أساسياً .

أعظم أفضال العرب على الهندسة أنهم اهتموا بها حينما أهملتها الشعوب ، ثم حفظوها من الضياع ، وناولوها للأوربيين في زمن باكر ، فلقد أخذ الأوربيون الهندسة اليونانية عن العرب ، لا عن اليونان ، ونقلوها الى اللغة اللاتينية .

ولقد كان اهتمام العرب بالناحية العلمية من الهندسة أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية ، تشهد بذلك المباني والقصور التي نهضت في المشرق والمغرب .

ويعترف « سميث » في كتابه (تاريخ الرياضيات) أن البيروني ^(١) ، كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات ، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، أصله من فارس ، ومولده في بيرون (عاصمة خوارزم) في التركستان سنة ٩٧٣ م وتوفي فيها عام ١٠٤٨ م . وقد رحل البيروني عن موطنه وهو لا يزال شاباً يافعا ، وتوطدت علاقته بابن سينا ودرس علوما عديدة ولغات مختلفة ، رحل الى الهند فحلل معه الحكمة والفلسفة الاسلامية ، وفي الهند أحاط بكنوز العلم عند الهنود ، وتعرف على آدابهم وفلسفاتهم بعد أن درس اللغة السنسكريتية واتعنها ، كما درس عقائدهم وعاداتهم وعلومهم ، وضمتها كتابه العظيم « تحقيق ما للهند في مقولة مقبولة » ويقول الاستاذ نفيس أحمد - الاساذ بجامعة كلكتا بالهند :

يعد البيروني أحد عظماء العالم في التاريخ ، وهو يحتل مكانة فريدة بين علماء المسلمين ، إذ هو عالم ، مؤرخ ، طبيعي جيولوجي ، فلكي ، رياضي ، ويتمتع البيروني بحاسة جغرافية حاذقة .
مؤلفات البيروني : أما عن مؤلفاته ، فقد أدرج البيروني بياناً بمعظمها ، في مخطوطه « الفهرس » ومن أهمها : « القانون المسعودي » وهو يعد أعظم موسوعة في علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات ، وينتهج فيه المنهج التقدي الموضوعي .

وللبيروني عدة مخطوطات علمية منها مخطوط « راشيكات الهند » وكلمة (راشيك) معناها (موضح) وكلمة (راش) معناها (برج) أي برج مراقبة النجوم والكواكب السماوية . . . كما كان للبيروني كتاب : (الرسائل المتفرقة في علم الهيئة) - وقد قامم دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند بطبعه سنة ١٩٤٨ .

ومن أهم كتب البيروني في علوم المعارف والفلازات : « الجواهر في معرفة الجواهر » وقد دام بتحقيق بعض فصوله المستشرق الألماني « ادوار سخاو » ونشر في لندن عام ١٨٧٨ .
أما المستشرق الألماني « شاخنت » فيقول . كان البيروني يتمتع بشجاعة فكرية فائقة ، وكان مولعا بالاطلاع العلمي أشد الولع بميدان عن الأوهام ، محبا للحقيقة ، متسامحا ، مخلصا لأبحاثه العلمية إخلاصا نادرا . . .

ومآثرها في العلوم ، وكذلك يعترف الدكتور سارتون بنبوغه وسعة اطلاعه
فيقول : كان البيروني باحثاً ، فيلسوفاً رياضياً ، ومن أصحاب الثقافة الواسعة .
وللبيروني رسالة سامية كانت تتجلى في ثنايا مؤلفاته وكتبه ، ومن سياحاته
وسلوكة ، فهو يرى في وحدة الاتجاه العلمي ، وكأنه كان يدعو إلى إدراك وحدة
الاصول الانسانية والعلمية بين الشعوب (وأن التراث الحضاري الانساني ملك
للجميع) .

ويمكن الخروج من أقواله ورسائله ، أنه يؤمن بإنسانية العلم ، وبالوحدة
الشاملة التي يؤدي إليها العلم فيوحد بين العقول ، ويزيل التنافر بينها ، ويقرب
بعضها من بعض ، ويدعو الى التفاهم على أساس ، المنطق (السليم) ، والحقيقة
العلمية (المجردة) .

وللبيروني مآثر كثيرة ، أوضح في بعض مؤلفاته كيف أخذ العرب التقييم
عن الهند ، وكيف انتقلت علوم الهند الى العرب ، كما نجد فيها تاريخاً وافياً
لتقدم الرياضيات عند العرب .

وقد يكون كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) من أشهر كتبه وأغزرها
مادة ، وقد ترجم المستشرق الألماني « ادوار سخاو » هذا الكتاب الى الانكليزية ،
وطبع عام ١٨٧٩ م في لندن ، كما توجد نسخة عربية لهذا الكتاب مطبوعة في
(ليبزغ) عام ١٨٧٨ ، وفيه مقدمة باللغة الألمانية للعالم الألماني الشهير « سخاو » ،
عن البيروني ، وأقوال المؤرخين العرب القدماء في مآثره في العلوم .

وللبيروني كتاب « تاريخ الهند » وقد ترجمه « سخاو » الى الانكليزية ،
وطبع الأصل في لندن عام ١٨٨٧ م وفيه تناول البيروني لغة أهل الهند وعاداتهم
وعلمهم ، والبيروني ذو مواهب جديرة بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية ،
والفارسية والعبرية عدا العربية .

وقد احتفلت مؤتمرات عديدة في العالم الغربي بمناسبة مرور ألف عام على
مولده ، فأصدرت أكاديميات العلوم (السوفياتية ، والأوربية ، والهندية) مجلدات

دراسية تذكارية ، اعترافاً بفضله على العلم والثقافة الانسانية، كما شاركت في ذلك (هيئة اليونسكو) في الأمم المتحدة ، فنشرت منذ سنوات عديدة دليلاً (بليوجرافيا) للقيم الثقافية العربية ، حوى بين دفتيه تعريفاً بالكثير من أعمال أبي الريحان البيروني - الخالدة على مرّ الدهور •

● العرب وعلم المثلثات :

ويسمى أيضاً - علم الأنساب - وهو فرع من فروع الرياضيات ، يبيّن النسب بين أضلاع المثلث وزواياه ، وكان القدماء يستخدمون هذا العلم في قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة ، ودراسة الفلك والاهتداء في الملاحة (السفر في البحر) •

وبما أن هذا العلم قد نشأ متصلاً بالفلك اتصالاً وثيقاً ، فإن تاريخه يرجع - كرجوع تاريخ علم الفلك - الى الألف الثالث قبل الميلاد •

يقول المسيو شال :

وعلم المثلثات من العلوم الرياضية ، التي عني العرب بها كثيراً ، لما كان من تطبيقه على علم الفلك ، وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوا عليه من تحسينات كثيرة ، اكتسب بها شكلاً جديداً ، وصار صالحاً لتطبيقات ، كان الأغارقة لا يقدرّون عليها إلا بشق الأنفس (١) •

وللعرب يرجع الفضل الأكبر في جعل علم المثلثات علماً مستقلاً بين العلوم الرياضية الأساسية ، ويعتبره الكثيرون علماً عربياً صرفاً •

ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراعات والاكتشافات ، وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية •

● العرب وعلم الفلك (علم الهيئة) :

شغف الانسان بجمال النجوم ، فتتبّع حركاتها ، ثم راقب ازدياد القمر

(١) ينظر كتاب مبادئ الثقافة الاسلامية للدكتور محمد فاروق نبهان ص ٥٧ •

ونقصانه ليلة بعد ليلة ، كما راقب ميل الشمس (اختلاف مطالعها ومغاربها ، وخط سيرها في السماء) شهراً بعد شهر ، فاتخذ من الشمس والقمر والنجوم دلائل ، لحساب الأيام والشهور، والفصول والسنين، وعلامات للتنقل بين الأماكن البعيدة. وقد عرّف العرب (علم الهيئة) بأنه العلم الذي يبحث عن الأجرام السماوية، من حيث الكيفية والوضع والحركة اللازمة لها .

وقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد عاشوا تحت سماء صافية ، لامعة النجوم .

يعد الخليفة المأمون أول من اهتم بعلم الفلك ، وجعل بغداد مركزاً للعلم ، وأقام المأمون عنده جماعة من فحول علماء الهيئة، وأمر بترجمة كتاب (المجسطي)^(١) . كان لجميع المدن الكبرى في الامبراطورية الاسلامية مراصد تقريباً ، وكان أشهرها مرآصد : بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وطليطلة ، وسمرقند .

وفي سنة ٩٥٩ م قاس أبناء المؤرخ (موسى بن شاكر) الثلاثة (محمد وحسن وأحمد) عرض بغداد فقيّدوه بـ (٣٣) درجة و (٢٠) دقيقة ، أي برقم يصح باضافة عشر ثوان تقريباً ، وقد رصدوا انحراف (سمت الشمس) ووضعوا تقاويم لمنازل السيارات .

الجداول الفلكية : قد سميت الجداول الفلكية بـ (الأزياج) ، وهي جداول بنيت على قوانين عديدة ، تبين حركة كل كوكب ، ويعرف منها مواقع الكواكب في أفلاكها ، ومنها أيضاً تعرف تواريخ الشهور والأيام ، والتقاويم المختلفة ، وهذه أشهر الأزياج :

زيج ابراهيم الفزاري ، زيج الخوارزمي ، زيج الشامي للطوسي ، زيج الشامل لأبي الوفاء .

ويرجع الفضل الى العرب في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم ، وجعله

(١) اقدم كتاب وصل لنا ما وضعه الفلكيون في علم الهيئة ، معرب عن اليونانية ، ومعناه (الاكبر) الفه (بطليموس) وعربه (حنين ، بن اسحق) .

علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب •

ونحن إذا أردنا أن نبحث عن المواطن الأصلية التي نبغ فيها الفلك كعلم مؤسس على المنطقين التجريبي والرياضي ، يتحتم علينا أن نستعرض ما وصل اليه هذا العلم في الحضارات الثلاث القديمة : (حضارة الصين) و (حضارة الهند) ثم (حضارة حوض البحر الابيض المتوسط) •

● حضارة الصين :

عزيت الى الصينيين القدماء ، أرصاد كثير من الظواهر الفلكية ، لا سيما المذنبات ، والخسوف والكسوف ، وأنهم كانوا يعرفون الدورة الشمسية القمرية ، المعروفة الآن بدورة (ميثون) •

● الحضارة الهندية :

أما ما ينسب الى الهنود في هذا المضمار ، فقد جاء في كتاب قديم اسمه (السندهانت) الذي اتخذه العرب دستوراً في مستهل نهضتهم العلمية ، في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وفي خلافة أبي جعفر المنصور •

● حضارة البحر المتوسط :

يقصد بها تلك الحضارات التي انبثق فجرها في حوض وادي النيل ، وحوض ما بين النهرين (دجلة والفرات) وفي جزر اليونان ، ثم في مدن الاغريق القديمة ، وجزر البحر الابيض المتوسط ، وذلك لأن تلك الحضارات كانت معاصرة بعضها لبعض في نشأتها ، وانتقلت مراكزها من آسيا الصغرى الى اليونان ، ومن اليونان الى مدرسة الاسكندرية •

وفي المرحلة الأخيرة ، بدأ علم الفلك يؤسس على قواعد تجريبية وحسابية ، ثم استكمل ملامحه الواضحة الاولى (كعلم ذي كيان) ما لبث أن علا بنيانه شامخاً بين العلوم الطبيعية كافة •

ويعدّ نصير الدين الطوسي ، المولود في (طوس) عام ١٢٠١ م والمتوفى في بغداد عام ١٢٧٣ ، من أعلام العرب ، في الرياضيات والفلك •

لمع (الطوسي) في الدرس والبحث والابتكار ، وكانت له مكانة عند الخلفاء ، وأولي الأمر من الأمراء والوزراء ، فكان المقدم عندهم ، وصاحب الرأي لديهم • وقد استطاع الطوسي أن يكسب منزلة عالية عند (هولاكو) وقد عينه (أميناً) على أوقاف الممالك التي استولى عليها •

وهنا تجلّت براعة الطوسي في أبهى صورها ، وتجلّى حبه للعلم ، ورغبته في البحث والدرس ، فاستغلّ الأموال التي تحت تصرفه ، وأنشأ بها مكتبة كبيرة ، وبني مرصد (مراغة) الذي اشتهر بآلاته وراصديه ، أما المكتبة فقد احتوت على كل نفيس ونادر ، وكانت الأولى من نوعها في العالم ، ويربو عدد كتبها على أربعمئة ألف مجلد •

وأما المرصد ، فكان يشتمل على آلات كثيرة ، بعضها لم يكن معروفاً عند الفلكيين ، وقد جمع فيه الطوسي جماعة من كبار الحكماء ، وأصحاب العقول النيرة من سائر الأنحاء ، فمن أعيان هذا المرصد : (المؤيد العرضي) من دمشق ، و (الفخر المراغي) من الموصل ، و (النجم ديران القزويني - ومحي الدين المغربي) من حلب •

وفي هذا المرصد استطاع الطوسي إخراج أكثر مؤلفاته ، وأزيجه في الفلك ، التي كانت من المصادر المعتمد عليها ، في عصر الإحياء في أوروبا • ويتجلّى في مؤلفاته (في الهيئة) أنه أضاف إليها إضافات هامة ، فقد تمكن من إيجاد ، مبادرة الاعتدالين ، ومن استنباط براهين جديدة لمسائل فلكية ، كما حاول أن يوضح بعض النظريات •

وقد ترجم « كارادي فو » بعض الفصول من كتب الطوسي الى الافرنسية ، وكذلك ، كتب « ثانري ودرابر » عن الطوسي ، وعن بحوثه في الكرة السماوية ونظام الكواكب •

وللطوسي مؤلفات قيّمة في الرياضيات ، ولعلّ كتاب (شكل القطاع) أجّلّها ، ومن يطالع هذا الكتاب ، يجد فيه ما لا يجده في أنفُس الكتب الحديثة

في (المثلثات) ولهذا الكتاب أثر كبير في المثلثات وارتقائها • وتتجلى لنا عظمة (الطوسي) وأثره في تاريخ الفكر الرياضي ، إذا علمنا أن المثلثات هي (ملح) كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية والهندسية ، وأنه لا يمكن لهذه ، أن تستغني عن المثلثات ومعادلاتها •

وخلاصة القول أن مؤلفات (الطوسي) ورسائله في الرياضيات والفلك ، تدل على أنه خصب القريحة ، قوي العقل والفكر ، صبور ، ذو روح علمي صحيح ، ورغبة صادقة في البحث عن الحقيقة •

● التقويم العربي :

يدخل في إطار البحث عن تاريخ الرياضيات عند العرب ، البحث عن التقويم العربي •

كان للعرب في الأحقاب الأولى شهور قمرية هي : المؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصوان ، وحنين ، ورنى ، والأصم ، وعادل ، وناثق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وقد نجد هذه الأسماء مخالفة لما أوردنا ، ومختلفة الترتيب •

ثم انه قبل الاسلام بمائتي سنة ، في زمن (كلاب بن مرة بن لؤي) أحد أجداد الرسول الكريم ، وضعت لها الأسماء المعروفة بين ظهرائنا - الآن - وهي : المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة •

وقد جاء ذكر عدد الشهور ، في سورة التوبة - من القرآن الكريم - :

● « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ^(١) » •

أما الحساب (الهجري) فوضعه الخليفة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه ، بالاتفاق مع وجوه الصحابة الكرام وتوافق الهجرة (من مكة الى المدينة) يوم

(١) الأشهر الحرم أربعة - ثلاثة سرد (متناهي) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو (رجب) •

(١٤ أو ١٥) من شهر تموز (يوليو) سنة ٦٢٢ للميلاد .

قال الجبرتي : ان أول واضع لعلم التاريخ في الاسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك حين كتب أبو موسى الأشعري الى عمر ، أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ، لا ندري على أيّها نعمل ، فقد قرأنا صكاً محله (شعبان) فما ندري أيّ الشعبانين ؟ (الماضي أم الحاضر) .

وقيل رفع لعمر صك محله - شعبان - فقال : أي شعبان هو ؟ أهذا الذي نحن فيه أم الذي هو آت ؟... ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم وقال : إن الأموال قد كثرت ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ؟ فقال له الهرمزان : (وهو ملك الأهواز) ، وقد أسر عند فتح فارس ، وحمل إلى عمر وأسلم على يديه - : إن للعجم حساباً يسمنونه ، (ماه روز) ويسندونه إلى من غلب عليهم من الأكاسرة ، فعربوا اللفظ (ماه روز) بـ (مؤرخ) ومصدره - التاريخ - واستعملوه في وجوه التعريف ، ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك فقال لهم عمر : ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون به ، وتصير أوقاتهم فيما يتعاملونه من المعاملات مضبوطة ، فاتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الاسلام ، من لدن هجرة النبي الكريم ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد بخلاف وقت ولادته ، ووقت مبثته ﷺ .

● العلوم الطبيعية عند العرب :

العلوم الطبيعية هي علوم الواقع والتجربة ، وقد حاول الانسان من قديم أن يكشف أسرار الكون ، وأن يستخدم قوى الطبيعة ، وتفنّن في ذلك قدر طاقته ، حيث استطاع الاهتداء الى خصائص كثير من الظواهر الطبيعية ، وتوسّع في البحث والدرس ، وتأثّى في الملاحظة والتجربة ، واستعان بالآلات والأجهزة ، ثم تمكّن أخيراً من وضع أسس كثير من العلوم التي تتحكّم في الطبيعة .

هكذا شغل الانسان منذ القدم ، بالكون ومظاهره ، فاستوقفته السماء بكواكبها ، والأرض بما فيها من جبال وأنهار وبحار وكذلك الظواهر

الطبيعية التي أثارت كوامن تفكيره ، كالرعد والبرق ، فحاول تفسيرها ، ومعرفة حقيقة أمرها •

وقد ساهمت الحضارات الانسانية المتعاقبة في درس ذلك وبحثه ، وإقامة صرح العلوم الطبيعية ، وما أن عرف العرب التراث العلمي اليوناني ، حتى أقاموا المراصد ، ودرسوا علم البصريّات - لأول مرة في التاريخ - دراسة (علمية - تجريبية) على يد ، محمد بن الحسن بن الهيثم (المولود ٩٦٥م والمتوفى ١٠٣٨) • وهو من عباقرة العرب الذين ظهوروا في القرن العاشر للميلاد ، في البصرة ، ومن الذين نزلوا مصر ، واستوطنوها ، ترك آثراً خالداً في الطبيعة والرياضيات ، ولولاه لما كان علم البصريّات على ما هو عليه الآن ، ولا أظن أنني بحاجة الى القول ، أن البصريّات من عوامل تقدم الاختراع والاكتشاف ، وأن كثيراً من آلات البصر والكهرباء مرتكزة في صنعها على قوانين ومبادئ تتعلق بعلم الضوء •

وقد ثبت أن (كبلر) أخذ معلوماته في الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره في الجو ، من كتب ابن الهيثم ، واعترف بهذا العالم الافرنسي الشهير « فياردو » ، ويقول أحد الباحثين من علماء أمريكا :

« إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريّات القليلين المشهورين في العالم كله ... » •

وقد بقيت كتبه منهلاً ينهل منه فحول العلماء في أوروبا من أمثال : كبلر ، وروجر بيكن ، وغيرهم ، وسحرت بخوثة في الضوء « ماكس مايرهوف » وأثارت إعجابه الى درجة جعلته يقول : « ان عظمة الابتكار الاسلامي تتجلى في البصريّات » •

ومن الثابت أن كتاب (المناظر) لابن الهيثم ، من أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الضوء ، وأرفعها قدراً وهو لا يقل - مادة وتبويباً - عن الكتب الحديثة العالية ، إن لم يفتق بعضها في موضوع انكسار الضوء ، وتشريح العين ، وكيفية تكوين الصور على شبكة العين •

وقد ثبت للاستاذ - مصطفى نظيف - بعد مراجعة مخطوط ابن الهيثم في المناظر ، أن ابن الهيثم قد توافرت فيه مميزات التفكير العلمي الصحيح ، وأنه وجد بين العرب من سار في بحوثه في الضوء ، على الطريقة العلمية الصحيحة ، وقد سبق (روجر بيكون)^(١) في ذلك ، إذ توفرت في بحوثهم جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية ، ولما كان لكشف العرب للطريقة العلمية من الأحداث الهامة رأيت^(٢) ، أن أوصل البحث بإيجاز في شرح هذا الكشف ، معتمداً على الدراسات التي قام بها الاستاذ مصطفى نظيف - لمخطوط المناظر - .

ان العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي هي : الاستقراء والقياس ، والاعتماد والملاحظة أو التجربة والتمثيل .

ولقد أدرك ابن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالأخذ والقياس والتمثيل ، وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة ، على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة^(٣) .

ففي كتاب المناظر ، عند البحث مثلاً في كيفية الإبصار ، واختلاف العلماء فيه يقول :

« ونبتدىء بالبحث باستقراء الموجودات ، وتصفّح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حالة الإبصار ، وما هو مطّرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه به ، من كيفية الاحساس » .

(١) لقد درس الراهب الانكليزي (روجر بيكون) المنوفى سنة ١٢٠٩ م علوم العرب والاسلام ، وقال : ان الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية ، هي طريقة علماء الاسلام من العرب (شاهد واختبر) أي شاهد الاشياء في حالانها المختلفة واجر عليها الجارب ، وهؤلاء وامالهم هم الرعيل الاول من طلاب العلم - من اوربا - تقاوا الى لغاتهم (عن أسانذهم المسلمين والعرب) ثروة علمية ، كانت بمثابة البذرة والنواة ، التي أنبتت شجرة الحضارة في اوربا .

ويذكر المسيو (رينان) في كتابه (الاسلام والعلم) ترجمة المهندس علي يوسف ص ٣ : ومن عجب بعد أن انتقل المنهج التجريبي من فرنسا الى انكلترا ، حيث أخذ به (فرنسيس بيكون) ومن بعده (جون ستوارت ميل) نسب حديثاً الى علماء الغرب ، وتقاسى الكتاب نشأته في الحضارة الاسلامية .

(٢) المتكلم هو الاستاذ مدري حافظ طوقان ، في كتابه (نراث العرب العلمي) .

(٣) ينظر كتاب الحصار العربية الاسلامية للدكتور المرحوم أحمد شوكت الشطي ، ص ٥ .

ثم تترقى في البحث والمقاييس ، على التدرّج والتدريب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفّظ من الغلط في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرّيه وتنصفّه ، استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، وتحرّى في سائر ما نميزه وننتقده ، طلب الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرّج واللفظ ، إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، وتظهر — مع النقد والتحفظ — الحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات ، وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان ، من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمدّ العون في جميع الأمور •

ومن أقواله هذه تتجلّى لنا الخطّة التي كان يسير عليها في بحوثه ، وأن غرضه في جميع ما يستقرّيه ويتصفّحه ، استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة ، ويبيّن أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي ، فقواعده التجرّد عن الهوى ، والانصاف بين الآراء ، فيكون قد سبق علماء هذا العصر ، في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي الحديث ، وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة ما يثلج الصدر — على حدّ تعبيره — وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من روّاد الحقيقة العاملين على إظهار الحق ، فاذا وصلوا الى ذلك ، فهذا غاية ما ييغون ويؤملون •

وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتّبعها في بحوثه وكشفه الضوئية ، قد سبق (يكون) في طريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك سما عليه ، وكان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً •



الفصل السادس

العلوم الاجتماعية عند العرب

العرب والجغرافية :

إن لفظ (الجغرافية) يعدّ دخيلاً في اللغة العربية وهو يعني (رسم الأرض) ، أما منطلق المعنى لهذا العلم في اللغة العربية فهو (علم تقويم البلدان) بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى .

كان من المشكلات الأولى التي شغلت العرب مسألة (إدارة البلاد - التي أعقبت الفتح الاسلامي) وهي مسألة كثيرة التعقيد ، لارتباطها بالطريقة التي تمّ بها الفتح ، وكانت المحاولات الأولى تدور حول التعرف على البلاد ، وطرقها وخارجها ، ومن ثمّ ، كان كتاب المسالك والممالك - وهو أقدم الكتب الجغرافية - تقريراً عن جباية المملكة العباسية ، في أواسط القرن الثالث الهجري .

وليس من المصادفات ، أن مؤلفه « ابن خرداذبة » كان من متولي البريد والخبر ، بنواحي الجبل بفارس ، وكذلك كان كتاب « الخراج وصناعة الكتابة » لمؤلفه ، قدامة بن جعفر ، الذي يبيّن الطرق والمسافات ، فضلاً عن قيمة جباية المملكة .

والاسلام شجّع الكتابة الجغرافية :

أولاً : عن طريق الحج ، وكان أثر هذه الفريضة كبيراً ، في إثارة الكتاب الرحالة ، إلى تدوين ما لاحظوا أو رأوا ، كابن جبير ، وابن بطوطة .

ثانياً : طلب العلم ، هي الناحية الثانية التي شجّع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية ، فقد كان المسلمون ينتقلون في سبيل طلب العلم والمعرفة ، من قطر

إلى آخره ، وان علماءهم ليجرّصون على تدوين مشاهداتهم ، ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها .

وان المكتبة العربية الجغرافية تضم انتاج حوالي ثلاثين من علماء العرب والمسلمين الذين وصلت آثارهم إلينا - غير الذين لم يبق من كتابتهم شيء - .
وقد تأثرت الأبحاث الجغرافية في عهدها الأول ، بما وصل إليه اليونان من قبل ، شأن بقية الأبحاث التي أخذها العرب عنهم .

وبلغ تاريخ البحث الجغرافي النضج ، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان الاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، يمثلون درجة عالية في البحث ، المبني على الاختبار الشخصي ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل ، والتأليف الجغرافي الناضج ، الذي استمر ثلاثة قرون ، وكانت تظهر فيه في أول أمره آثار فارس ، لكنه لم يلبث أن خلصت عروبه ، والاتجاهات التي نلمسها ، فيما خلفه لنا كتاب هذه الأزمنة الثلاثة :

- أولها : عناية شديدة بأقاليم العالم الاسلامي والأقطار المجاورة ، على نحو ما نراه ، عند : البلخي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي .
- ثانيها : نوع التخصص في قطر واحد ، فقد كتب (الهمداني) صفة جزيرة العرب ، وكتب (البيروني) عن الهند ، وترك لنا (ابن فضلان) وصفاً لبغاريّ الفولغا ، زار بلادهم في وفد الخليفة المقتدر .
- وأما الاتجاه الثالث : فقد بدأ في كثرة المعاجم الجغرافية ، التي وجدت طريقها الى المكتبة الجغرافية ، منذ القرن الخامس للهجرة .

و (البكري)^(١) ، يعرفنا بكتابه بقوله :

« هذا كتاب « معجم ما استعجم » ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والآثار ،

(١) أبو عبيد عبد الله البكري ، من كبار الجغرافيين في الأندلس ، توفي عام ١٠٩٤ م .

والمياه والآبار ، منسوبة محدّدة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيّدة » •

و (ياقوت الحموي) في طليعة أصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق ، فكتابه (معجم البلدان) معجم كبير عام للعالم الاسلامي كله ، هو خزانة علم وأدب ، وتاريخ وجغرافية ، إذا ذكر بلداً ، أورد شيئاً من تاريخه ، ومن اشتهر فيه من الفقهاء والأدباء والشعراء ، هذا بالإضافة إلى مقدمة وافية عن علم الجغرافية ، والمعجم دقيق في معلوماته ، منظم في طريقته •

يبدأ كتاب « معجم البلدان » بمقدمة ، ثم بخمسة أبواب ، فيها معارف عامة تتصل بعلم الجغرافية ، ثم كلام عن صورة الأرض ، وان الأرض كرة في وسط الفلك ، ثم الكلام عن المصطلحات الجغرافية ، وقياس المسافات ، والألفاظ اللغوية والفقهية المتعلقة بالزكاة ، والجباية (الضرائب) ثم تأتي معارف تاريخية عامة ، تتعلق بديار الاسلام ، وبغير ديار الاسلام •

بعد ذلك يأتي متن الكتاب ، أو القسم الجغرافي على الحصر ، وفيه أسماء الأماكن ، منسقة على أحرف الهجاء ، يورد (ياقوت) اسم المكان ، متبوعاً بطريقة لفظه واشتقاقه اللغوي ، ثم ينتقل (في الكلام عن الأماكن الكبيرة والمشهورة) إلى تعيين موقع المكان ، فإلى وصف دقيق مفصّل له ، وللمعالم التي هي فيه ، كالمساجد والقلاع ، وإذا كان المكان مسرحاً لحادثة تاريخية ، وفى تلك الحادثة حقّها من السرد والوصف ، ثم يذكر ، من نشأ من ذلك المكان من العلماء والأدباء ، وقد يصف الأحوال الاجتماعية ويورد في أثناء ذلك عدداً من القصص والطرائف •

وتمتاز هذه الفترة ، بأن الخريط الذي رسمها هؤلاء الجغرافيون ، كانت تناجاً عربياً خالصاً ، وقد أحصى (ميلر) مائتين وخمساً وسبعين خريطة للعالم الاسلامي تعود الى ذلك العصر ، هذا باستثناء خريط « الادريسي » (الآتي ذكرها فيما بعد) •

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات ، لعلاقتها بالرحلة

والتجارة والبريد وهذه عندهم صحيحة دقيقة ، والمستعمل عندهم (الفراسخ والأميال) للقياس ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل يقل عن الكيلو متر قليلاً ، ويستعملون للمسافات الطويلة ، وحدة للسير ، هي اليوم . فسوريا مثلاً طولها (مسيرة) خمسة وعشرون يوماً .

وقد انتقد (المقدسي) كتب من سبقه من الجغرافيين : فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ، ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك إليها ، ومنهم ****

وهنا نلاحظ (المقدسي) الجغرافي ، العالم الدقيق ، الذي يريد أن يكون البحث دائماً ، مبنياً على الدرس والاختبار ، منظماً ، مبوّباً ، وافياً .

ولما جاء « أبو الفداء » تناول - في مقدمة كتابه « تقويم البلدان » - من تقدّمه من الجغرافيين بالنقد ، فأظهر أن : (ابن حوقل ، والادريسي ، وابن خرداذبة) لم يحققوا الأسماء وغيرهم ، لم يحقق الأطوال ، أما هو ، فقد جمع بين التحقيق في الأسماء والأطوال .

والواقع أن كتابه ، يصبح أن يعتبر تاريخاً انتقادياً ، لكتابة الجغرافية العربية إلى عصره ، (القرن الثامن للهجرة) .

وثمة مؤلف جغرافي آخر ، حريّ بالالتفات ، ذلك هو (الادريسي) (١) صاحب كتاب : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كتب هذا الكتاب بالعربية ، في صقلية ، في بلاط ملكها ، (روجر الثاني) سنة ١١٥٤ م .

(١) والشريف الادريسي ، المتوفى سنة ١١٦٠ م ولد في (سببه) في شمال المغرب ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ودرس في جامعة قرطبة ، ثم جاب شمال أفريقيا وآسيا الصغرى وغيرهما ، ثم دعاه - زميله في الدراسة - (روجر الثاني) ملك صقلية وجنوبي إيطاليا - وكان بلاطه عربى السمات - فلبى طلبه ، وألف له كتابه القيم (السابق الذكر) ورسم صورة الأقاليم على كرة من العضم الخالصة ، عظيمة الجرم .

ومدّ رحمه كتابه الى اللاتينية ، وترجمت كل أمّة ما يعينها منه ، وطبع القسم الخاص منه في اسبانيا مع ترجمته ، سنة ١٧٩٩ م وعن هذا الكتاب أخذت أوروبا (علم الجغرافيا) في القرون الوسطى ، واستمرت تنسعه ثلاثة فروع كامله .

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة ، هي التي سمّاها (ميلر) المدرسة العربية النورماندية ، فقد كان بلاط (روجر الثاني) ملتقى الحضارتين (الاسلامية والغربية) وموئلا للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي ، والخرط التي رسمها الادريسي ، كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا (للأوروبيين) مدة طويلة بعد عصره .

ولا يصحّ - في مجال الانصاف - أن ننسى (شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي)^(١) الذي كان يلقب بـ (أسد البحر) في القرن الخامس عشر الميلادي ،

(١) يرجع نجاح العرب في تجديد المعرفة العلمية ، وازدانة الشيء الكثير اليها ، الى اعتمادهم على الملاحظة والتجربة ، أي على المنهج العلمي في البحث وهي طريقة - لا شك - بأن الأوروبيين قد أخذوها من العرب .

الا أن هناك من الأوروبيين والمستشرقين خاصة ، من يدعي بأن العرب لم يكن لهم مجال واسع في علم البحار ، وأنهم أقرب الى البر في أسفارهم ، منهم الى ارتياد البحار . حقيقة الأمر ، أن العرب عرفوا البحر والأسفار فيه (مغرب الخليج) كما تشير كتب التراث والآثار وعلم الأجناس (قد وصلوا الى بلاد الصين والهند) ، وما يعرف اليوم باندونيسيا ، قبل الميلاد ، واستمرت رحلاتهم بعد ذلك ، وأصبح العرب سادة المحيط الهندي ، كما أصبحوا سادة البحر المتوسط ، إبان عهد الدولة العربية الاسلامية ، والدولة العثمانية بعد ذلك .

ونشير هنا الى شهادة مؤرخ برتغالي قديم هو (خودي باروش) ممن ارتّخوا لرحلة (فاسكودي جاما) في كتابه الكبير عن آسيا ، حيث يعترف بخصوصية جزر البحرين ، بأن جميع ما كتب عن هذه المنطقة في كتبنا الجغرافية مستمد من المعلومات الجغرافية العربية والفارسية .

وفي العشرينات من هذا القرن ، اكتشف مخطوط عربي قديم يرجع عهده الى القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) كانت مكتبة المخطوطات في (باريس) قد حصلت عليه في عام ١٨٦٠ م من أستاذ جزائري ، تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية في (باريس) في ذلك الوقت .

وفي الثلث الأول من هذا القرن قام المستشرق الفرنسي (جبريل فران) بالتحقيق في قيمته العلمية ، فنشره بين سنوات ١٩٢١ - ١٩٢٣ م بطريقة التصوير الفوتوغرافي ، ويحتوي هذا المخطوط على تسعة عشر مؤلفا في الملاحة الفلكية وفنون البحر .

ويعتبر هذا المخطوط في الواقع أهم وثيقة في الجغرافية الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق ، وتتمحور أهميته ، في أنه أفلم الوثائق الجيدة التي وصلتنا ، والتي دونت عن الملاحة وفنون البحار ، في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي الإفريقي وبلاد الصين بلغة من اللغات ، كما أنه يرد فيه لأول مرة اسم علم جديد (هو علم البحر بمعناه الواسع) مما نصرفه اليوم باسم (الإرتقيانوغرافية) الجغرافيا الملاحية ، ولهذا اثره الكبير في تاريخ العلوم ، وهذه الوثيقة تلقي كثيرا من الضوء على ما بلغه العرب من تقدم ، في فنون البحر والملاحية حتى القرن الخامس عشر ، وعلى مدى تأثير البرتغال بالعصر العربي ، والتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام ، وفي المحيط الهندي

فانه كان المرشد (لفاسكو دي جاما) في رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨ م والكشف عن الطريق إليها .

بشكل خاص ، كما تشير شهادة المؤرخ البرتغالي (باروش) السابقة ، وفضلا عن ذلك فان هذه الوثيقة تحتوي على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التي تعتبر في حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية ، وفي وقت ينلطف فيه العرب الى التعريب للعلوم .

هذه الوثيقة ، من صاحبها ١٥٠٩ . انه الملاح العربي الشهير (أحمد بن ماجد) من عمان ، على الخليج العربي .

مولده ونسبه - هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن رويك ابن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي ، المكنى بالمعلم ، أو بالمعلم العربي أو (بأسد البحر) .

وينحدر (ابن ماجد) نفسه من أسرة ربانية ، فقد كان أبوه ربانا يلقب بـ (ربّان البرّين) بر العرب وبر المحم ، وقد روى هو الآخر تجاربه الملاحة ، في مصنف ضخّم هو (ارجوزته الحجازية) التي تضم أكثر من ألف بيت ، في وصف الملاحة بالبحر الأحمر ، وكان جده هو الآخر ملاحا مشهورا . وقد اختلفت في تحديد سنة ولادته ، الا أن الدكتور أنور عبد العليم أثناء دراسته لمؤلفات ابن ماجد ، حدد سن ميلاده عام ٨٢٨ هـ . وكما اختلف في ميلاده ، كذلك اختلف في وفاته ، إلا أن الدلائل تشير الى أنه ناهز الستين عاما ، وتولى قيادة المركب منذ صباه ، وكان على علم بمطالع النجوم الملاحة ومضاربها ، والأمر الذي اشتهر به (اضافة الى علمه الفزبر وكتبه العديدة) هو ، ارشاده فاسكو دي جاما في رحلته الى الهند ، وهذا ما تشير اليه المصادر البرتغالية والعربية ، وقد اعترفت الحكومة البرتغالية نفسها بهذا الأمر مؤخرا ، فأقامت له نصبا تذكاريّا في « ملبندى » اعترافا بفضله .

مؤلفات ابن ماجد :

١ - أهم مؤلفاته (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) ويعتبر هذا الكتاب من المؤلفات النادرة ، وهو يقع في ١٧٦ صفحة ، بكل صفحة منها ٩١ سطرا ، وهو مكنوب بخط واضح ، ويحتوي على مقدمة واثني عشر فصلا وفائدة ، يرجع تاريخه الى ٨٩٥ هـ ، يبحث عن بعض الأساطير البحرية ، والابرة المغناطيسية ، ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، والطرق البحرية في المحيط الهندي ، وخطوط عرض بعد مرافئ هذا البحر ، وبحر الصين الغربي ، والعلامات والاشارات ، الموجودة في البحار ، والتي ستهدي بها الطيور ، وسواحل الهند الغربية ، والجزر العشر الكبرى ، وهي : جزيرة العرب ، وجزيرة قمر ، ومدشكر ، وسومطرة ، وجاوة ، وفورموزة ، وسومطرة ، وسيلان ، وزنجبار ، البحرين . ثم يبحث عن الرياح الموسمية الملائمة للسفر مع تواريخها وفقا لحساب الفرس ، ثم يختتم هذه المباحث بوصف للبحر الأحمر .

٢ - حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، وهي أرجوزة تزيد عن ألف بيت .

٣ - أرجوزة في معرفة القبلة في جميع الأنظار ، وهي نحو خمسمائة بيت .

٤ - قصيدة (المكية) موضوعها الطرق البحرية من (جدة) الى (رأس فرتك) .

٥ - أرجوزة تسمى (بالسفالية) وصف فيها ، نوادر من القياسات والمجاري ، وسكان الأرض ،

وكان لسيادة المسلمين البحرية أثرها العظيم في الحياة الاقتصادية والتجارية في منطقة البحرين (الأسود - المتوسط) وربما أهم من استفاد من هذا التحول الاقتصادي (شمال أفريقيا - صقلية) ويعود الفضل في ذلك على سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط ، وبالأخص سيطرتهم على الطريق الشمالية ، الدائرة الى الشام ومصر ، عن طريق (صقلية وكريت وقبرص) •

عني بنشرها وتحقيقها ووضع فهرسها (تيودور شوموفسكي) وطبعت بمطبعة المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧ م •

والجدير بالذكر ان (ابن ماجد) يذكر ان الربان يجب عليه ان يلم ببعض العلوم حتى يكون ربانا ماهرا يمكن الاعتماد عليه وأهم هذه العلوم كما يراها :

- علوم رباضة وفلكية ● قواعد الملاحة الأساسية ● معرفة حالة البحر والانواء والرياح
 - ارساد جوية وبحرية ● المام بالآلات الرصد والقياس وطرق استعمالها وصيانتها (كالبوصة والريح) .
 - قسطا من علوم الجغرافية الملاحية (الاثيانوغرافية) الطبيعية والبيولوجية ، تعينه على فهم خواص المياه والاحياء البحرية، والطيور التي يستدل بها على قرب السواحل، وطبيعة القاع وحس الأغواص .
- كما يلخص الصفات التي يجب ان يتحلى بها الربان ، في الفترات التالية .
- « وبنبغي للمعلم ان يعرف الصبر من الواني ، وبفرق بين العجلة والحركة ، ويكون عارفا بالاشياء ، عزاما ، لبنا في دونه ، عادلا لا يظلم احدا ، مقبلا على الطاعة لربه ، متقيا لله تعالى ، لا يفضب التحار ، كثير الاحتمال على الهمة صبورا مقبولا بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، ادبيا لبيباً ، والا فليس هو معلم بالقاعدة » •

رحمه الله ، فانها حكم وأقوال تنم عن مصرفته وسياسة عميقة للرحال ، ولكانه كان مدركا ما سبلحق علمه وجهوده من جهل ، حين ختم قصيدته المسماة « ضريبة الضرائب » بقوله :

فان تجهلوا قدرتي في حياتي فانما سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدرتي

وهذا ما حدث بعد نصف قرن من وفاته ، من احساء لتراثه ، على يد الاميرال التركي (سيدي علي بن حسين) ، وفي القرن العشرين ، على أيدي مستشرقين من أقطار مختلفة - أمثال - كراسوفسكي، وشوموفسكي ، ومن فرنسا أمثال المستشرق (جبريل فران) ومن سويسرا، دي سويسر، وبروكلمان... وغيرهم ممن أجهدوا أنفسهم في التعرف على هذا الربان العربي ، ودرايه ومؤلفاته ، كما خصصت (هيئة المؤتمر الدولي الأول لتاريخ علوم البحار) الذي عقد في اماره (ماناكو) في ديسمبر - كانون الاول - ١٩٦٦ ، بحثاً ، القى في المؤتمر ، عن ابن ماجد وأعماله •

اما المصادر العربية التي تشير الى رحلة - فاسكو دي جاما - تذكر اسم ابن ماجد صراحة ، وانه هو المرشد الذي زاد أسطول (دي جاما) ، فقد اهدى المستشرق الفرنسي (جبريل فران) عام ١٩٢٢ الى ذلك ، في مخطوط (لقلب الدين النهرأوى) يرجح تاريخه الى عام ١٥٦٦ م بعنوان (البرق اليماني في الفتح العماني) والذي يذكر فيه (ابن ماجد) انه كان هو المرشد الحقيقي ل (فاسكو دي جاما) الى بلاد الهند •

وأصبحت تونس مركزاً تجارياً هاماً ، وعلى الأخص (مدينة القيروان) ، وبعد عام ٩٥٨ م سيطر حكام تونس على أهم الطرق التجارية ، وكانت الدناير المغربية من أهم العملات في عالم البحر الأبيض المتوسط ، حتى القرن الحادي عشر الميلادي •

أما الاسكندرية — فقد كانت نهاية الطريق التجارية الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، يأتيها العديد من تجار المغرب ، وبعض تجار البندقية ، وربما بعض تجار القسطنطينية •

وأما طرابلس الشام ، وبيروت وصور ، وغيرها من الموانئ على طول الساحل — فقد دبّ فيها النشاط ، لفتح البحر في وجه التجارة الاسلامية ، غير المقيدة •

ودخل التجار الشاميون ميدان البحر مرة أخرى (وإن ظل مداهم التجاري أضيق من تجار الغرب) إذ أنهم اقتصروا بصورة رئيسية على المتاجرة مع مصر والقسطنطينية ، والظاهر أن الازدهار في كل من الصناعة والتجارة كان عظيماً في تلك المدن ، من أمثال دمشق وحلب وبيت المقدس •

وكانت (قرطبة) تحت حكم عبد الرحمن الثالث ، من أعظم مدن العالم الاسلامي ، وقد اشتهرت بمكائنها العلمية والثقافية الضخمة •

والجدير بالذكر ، أن أعظم مناطق البلاد تقدماً ، إنما كانت في الجنوب والجنوب الشرقي (في مواجهة البحر الأبيض المتوسط) مما يؤكد الدور الذي لعبته تجارة هذا البحر ، في اسبانيا •

وقد تكون (اسبانيا) شأنها شأن شمالي أفريقيا ، قد أصابت ثروة كبيرة من ذهب السودان ، وخاصة المناطق ، التي كانت طريق القوافل الغربية ، تحمله إلى (سجلمانة) ومنها عبر البلاد المراكشية •

وجملة القول أن سلطة المسلمين البحرية ، على البحر المتوسط ، كان لها أثر عظيم هام ، إنها لم تؤد إلى إنعاش التجارة الدولية فحسب ، وإنما أدت كذلك

إلى إنعاش الشام ومصر وازدهار اسبانيا وصقلية وشمال أفريقية ، وزادت الصلات التجارية بين الشرق والغرب في أثناء الحروب الصليبية ، فكانت المدن الإيطالية ذات شأن خطير فيها ، وفي الهدن (ج - هدنة) التي تخللت الحروب الصليبية كانت قوافل المسلمين تجتاز الأراضي التي يحتلها الصليبيون ، بدون أن يعترضها حائل ، حيث يشترط في المعاهدات المعقودة (أمان القوافل) في سيرها •

ولما كثرت العلاقات التجارية بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوروبية ، وضعت أنظمة المبيع في البلاد الإسلامية بطريقة خاصة ، وكان العشر معدّل ما تأخذه الجمارك من تلك البضائع •

وأدى نمو العلاقات التجارية بين المسلمين والنصارى ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، إلى ايجاد (قناصل) من الشعوب الغربية ، تكون (للقنصل) صفة سياسية وتجارية معاً •
البريد (١) :

البريد كلمة عربية ، أخذت من الكلمة اللاتينية (فيرداس) ومعناها (دابة البريد) أو حصان البريد ، وثم ناقل البريد ، ثم تطورت بعد ذلك فأصبحت تدل على النظام نفسه ، ثم أطلقت آخر الأمر على المرحلة بين مركزي بريد •

وجاء في (صبح الأعشى) (٢) : ثم اختلفت فيه (البريد) - فقيل : انه عربي ، وعلى هذا ذهب الخليل ، إلى أنه مشتق من (بردت الحديد) إذا أرسلت ما يخرج منه •

وقيل : من أبردته ، إذا أرسلته ، وقيل من برد إذا ثبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار • وذهب آخرون إلى أنه (فارسيّ معرّب) وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناها (مقصوص الذنب) ، وذلك أن ملوك الفرس كانت من عاداتهم ، أنهم إذا أقاموا بغلا في البريد قصوا ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد •

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٠ ص ٦٠٩ •

(٢) القلقشندي . صبح الأعشى ١٤٠ : ص ٣٦٦ - ٣٦٧ •

وأما (البريد) في الاصطلاح ، فهو أن يجعل خيل مضمّرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها — وقد تعب فرسه — ركب غيره ، فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة •

ويقال أن أول من وضع البريد في الاسلام (معاوية بن أبي سفيان) وذلك حين استقرت له الخلافة فوضع البريد ، لتسرع اليه أخبار بلاده ، من جميع أطرافها ، ثم عمّم عبد الملك بن مروان البريد في الدولة الاسلامية • فلما كانت خلافة هارون الرشيد ، رتب البريد على ما كان عليه أيام بني أمية ، وجعلت البغال في المراكز ، وكان للبريد ديوان كبير في بغداد ، مزوّد بمحطات على طول الطريق •

وقد ساعدت معالم الطرق التي أقامتها الحكومة ، التجار في أسفارهم ، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية ، إلا أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة ، وليس لنقل مراسلات الجمهور ، وكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسّس على الأعداء ، وقد اهتم العباسيون بهذا النظام ، واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم •

وفي عهد الملك الظاهر بيبرس (وقد اجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات) ارتقى نظام البريد ، حيث وضع له نظاماً يكفل ارتباط جميع أنحاء مملكته ، بشبكة خطوط من البريد البري والجوي (الحمام الزاجل) وكان مركز هذه الشبكة (قلعة الجبل بمصر) حيث كان يتفرع منها أربع طرق بريّة ، يمتدّ إلى (قوص) والآخر إلى (عيذاب) وثالث إلى (الاسكندرية) ورابع إلى (دمياط) ومنها إلى (غزة) ، ومن هذا المكان تتفرع سائر الخطوط ، وتصدر المراسم السلطانية إلى أنحاء مملكته ، وترد اليها الرسائل من الولاة ، وأصبح البريد في عهده يرد على مصر ، مرتين في الاسبوع •

وزوّد (بيبرس) مراكز البريد ، بكل ما يحتاج اليه المسافرين ، من زاد وعلف ، كما راعى توفر المياه أو وجود قرية بجوارها ، وأعد لكل منها خيولاً ، ولا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطاني •

وكان يشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الانشاء ، فقد عهد اليه حفظ
ألواح البريد ، (وهي من فضة مخلدة) بديوان الانشاء ، تحت أمر كاتب البريد
بالأبواب السلطانية ، فاذا خرج بريدي الى جهة من الجهات أعطي لوحاً من تلك
الألواح يعلقه في عنقه ، ويذهب الى جهة قصده ، وتذعن له أرباب المراكز بتسليم
خيل البريد ، ثم يعيد ذلك اللوح الى ديوان الانشاء •

وكانت توجد بالمملكة الاسلامية محطات للبريد تسمى (السكك) وهي
مزودة بالخيول والراكبين ، على مسافات معينة ، كل ثلاثة أميال أو فرسخين ،
وربما كان راكب البريد يركب الطريق كله •

وكان بين المغرب والمشرق ، شبه تبادل دولي في البريد ، فكان (بريد الترك)
يصل الى (يوشحان الأعلى) وهو حدّ الصين ، وكان (بريد آسيا الصغرى)
يوصل الرحلة الى (القسطنطينية) وكان لهذا البريد (سكة) كل ثلاثة أميال •

وكان أهم طرق البريد (من بغداد الى الموصل) و (من بغداد الى الشام)
وأما الطريق الرئيسي الى المشرق ، فكان يسير خلف بغداد ، وأما البريد الى
المغرب ، فكان يخرج من مصر السفلى في طريق ، يسير جنوباً أول الأمر — وكان
يسمى طريق السكة — ثم عدل عنه بعد ذلك الى طرابلس ومنها كان يقصد ، الى
القيروان رأساً ، وبعد يسير بجذاء الساحل •

وكانت الأميال (معلّمة) وطول المسافة (من القيروان الى السوس الأدنى)
على المحيط الأطلسي ، القان ومائة وخمسون ميلا ، وكان الطريق ، هو الطريق
الرئيسي الذي يصل الأندلس بالشرق ، وكان هناك طريق آخر جنوبي ، يمرّ
بالوحدات الداخلية والكفرة ، ويتّجه الى السودان الغربي متجهاً الى (غانة ،
واودغشت) فعُدل عنه — في القرن الرابع الهجري — الى طريق سجلماسة •

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة ، وكان يحمل فيه الى جانب الرسائل ،
أشياء تبعث للسلطان مما يحتاج الى سرعة الايصال • وأما وسائل البريد فهي :

● **الجمال والأفراس :** وربما بلغت قافلة البريد أربعين أو خمسين جملاً •

● السفن في البحار

● استعمال ماء النهر أحياناً : فيضعون فيها الخرائط من الجلد مكتوباً عليها اسم صاحبها •

● الرجال العدّاءون : وخاصة في المدن الكبيرة ، كبغداد •

● وأخيراً ، الحمام الزاجل : فيربطون ورقة ، يعلقونها (بعد تمرين الحمام على السير على مواقع يعلمونها) •

وأول شاهد تاريخي على استخدام الحمام في الدولة الإسلامية ، لنقل الأخبار ، وقع عام ٢١٢ هـ إبان عهد المعتصم العباسي •

وأسهب (الجاحظ) أحد العلماء المعاصرين للمعتصم ، في كتابه (الحيوان)^(١) ، الحديث عن الحمام الزاجل وتدريبه فقسّم أنواع الحمام الى حمام عادي ، وحمام رسائلي ، (وهو الزاجل) كان يختار حسب أسس وأوصاف معروفة ، ويراعى في تدريبه أساليب مقررة ، فكان يشترط في ذلك النوع من الحمام ، اعتدال العنق ، واستدارة الرأس من غير عظم ولا صغر ، ولحوق بعض الحوافي بعضها ببعض ، وقصر الساق والذنب •

كذلك كان يراعى في الحمام الزاجل ، صفاء البصر ، وثبات النظر ، وشدة الحذر ، وحسن التلفت ، وخفة النهوض وال الطيران والعلو في الجو ، مع مدّ العنق وقلة الاضطراب ، وحسن القصد في غير دوران • وأتقن معرفة ذلك كله أناس من (العراق) لا تتقاء أجود أنواع الحمام الزاجل ، وأحسنها أصولاً وأنساباً •

وجملة القول ، ان العناية بالحمام كانت ظاهرة منتشرة في أرجاء العراق والشام في القرن الثالث الهجري ، وكانت الرسائل تصل إذ ذاك في نظام وسرعة ، حتى ان الرسالة كانت تصل (من الرقة ، والموصل ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة) إلى بغداد ، في يوم وليلة •

واستخدم (بيبرس) الحمام الزاجل في إرسال رسائله ، وكان له (أبراج

(١) ينظر الجاحظ • كتاب الحيوان ٣ : ص ٢٦٩ - ٢٧٢ •

القلعة) ومراكز معيَّنة ، في جهات مختلفة ، كمراكز البريد البري ، لكنها تزيد عنها بالمسافة ، فاذا نزل بها الحمام ينقل (البراج) ما على جناحه ، إلى طائر آخر ، ليوصله الى المنزلة التي تليها •

وكان (الايجاز) من أهم مميزات الرسائل ، التي ينقلها الحمام الزاجل (لغة البرقيات) وكانت الرسالة تشدّ تحت جناح الحمامة ، أو إلى ذيلها •

وقد جرت العادة أن تكتب الرسالة (من صورتين) (ترسلان مع حمامتين) تطلق احدهما بعد ساعتين ، من اطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت احدهما أو قتلت ، أو افترسها الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الأخرى •

وقد جرت العادة أيضاً ، ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ، ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي ، وكان حمام البريد السلطاني يميز بعلامات خاصة ، كبصم منقاره ببصمات خاصة ، أو قصّ ريشه بطرق معروفة ، فاذا وصل إلى (قلعة الجبل) ببطاقة ، تولى السلطان قطعها بنفسه •

● رحلات العرب :

دعا الاسلام — فيما دعا اليه — إلى الحركة والسير في مناكب الأرض ، سعياً وراء الرزق ، والعلم والدعوة إلى الخير والمحبة ••• قال تعالى :

● هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور • سورة الملك آية ١٦ •

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه :

سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه	وانصب فان لذيد العيش في النصب
اني رأيت وقوف الماء يفسده	إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة	لملّها الناس من عجم ومن عرب

كان هذا ما حدا بالرحالة العرب ، منذ فجر التاريخ الاسلامي ، إلى العمل الدائب ، على نشر لواء الاسلام وتعاليمه في كل أرض وطئت أقدامهم ، بقصد

التجارة والسعي وراء الرزق حيناً ، والرحلة والمشاهدة حيناً آخر ، ومع أن جهودهم كانت تتسم بالفردية ، إلا أنها مهّدت طريق الدعاة ، إلى الدعوة إلى سبيل الله ، إلى دعوة الناس للدخول في دين الله أفواجاً .

وكانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي ، في عصوره الزاهرة ، فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين ، ورحل الناس في طلب العلم ، إذ كان العلم منتشرة مراكزه في أنحاء العالم الاسلامي ، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم .

ورحل القوم في سبيل الاتجار ، إذ كانت الأسواق الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون بضائعهم وسلعهم ، إلى حيث يرجون الربح الوفير ، أضف إلى ذلك رحلة الرسل ، المترددين بين الملوك والأمراء ، كل هذه نماذج من الرحلة ، عرفها العرب والمسلمون ، وقد شجّعهم على الاستزادة منها ، خضوع العالم الاسلامي برقعة الواسعة ، لدولة واحدة بادىء الأمر ، فلما ذهبت الوحدة السياسية ، بقيت وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع ، فاحتفظوا بالصلة . ولما توسع الاسلام ، ودخل بلاداً جديدة ، وصار للمسلمين ملك واسع ، هناك كثرت الرحلات التجارية بين أجزاء العالم الاسلامي ، ولم يتبدى الاهتمام بالرحلات لذاتها ، وتدوينها ، إلا في القرن الرابع الهجري .

ومن المقدمين في هذا الباب (المسعودي)^(١) صاحب كتاب (مروج الذهب) .

(١) كان أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، رحالة ، جغرافياً ، مؤرخاً ، ننقل في بلاد كثيرة ، وروى مشاهداته العجيبة فيها ، له كتابه المعروف (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وهو موسوعة جغرافية تاريخية ، انتهى من تأليفها وتنسيقها عام ٩٥٦ م ونهج فيها نهج العلماء ، فذكر جميع المصادر التي اطلع عليها ، ونقد ما يستحق النقد فيها بالإضافة إلى تحقيقاته العلمية ، ووصفه الكثير من مناظر الطبيعة ، إذ وصف زلزال عام ٩٥٥ م وتحدث عن مياه البحر الميت ، واثبت ملوحتها ، وعن طواحين الهواء التي شاهدها في (سجستان) .

والمسعودي ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، وقضى — ما يقارب من ربيع قرن — يطوف العالم الاسلامي وما جاوره — مثل الهند — سجل مشاهداته في كتابه (مروج الذهب) .

أما (البيروني) فقد ترك لنا كتابيه : (الآثار الباقية عن القرون الخالية) و (تاريخ الهند) ، وظهر في القرن الرابع الرحالة (المقدسي) ، وقد وضع قوانين الرحالين وقواعد السفر في كتابه : (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، ومن الرحالين المشهورين (ابن جبير الأندلسي) و (ابن سعيد المغربي) وياقوت الحموي (صاحب معجم البلدان) .

وقد دون كثير من رحالي العرب أخبار أسفارهم وتنقلهم ، فذكروا المدن التي هبطوها ، والمسافات التي اجتازوها ، والصعوبات التي تغلبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزرعها ، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها ، وأتوا على وصف حياة السكان ، فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح ، وعابوا مافيه من ضعف . وهذه النقذات التي نعثر عليها في مذكرات السائح ، هي التي نميزها عن الكاتب الجغرافي ، فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ، ويحاول أن يشتمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها ، أما الرحالة ، فينقل ما يشاهد ، فتكون صورته جزئية .

وظلائع الرحالين « سليمان السيرافي » و « ابن فضلان » و « المسعودي » فالأول من أهل القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) أما الآخران ، فمن رحالي القرن الرابع الهجري .

كما حفل القرن الثاني عشر (السادس) بعدد كبير من الرحالين العرب ،

وفي آخر سنة عاشها ألف كتابه (التنبيه والإشراف) الذي لخص فيه أعماله العلمية ، وضمنه تجارب حياته الأمر الذي أكسبه شهرة عند العلماء والمحدثين . ولقد شغل العلماء القربون بالمسعودي أكثر من غيره فترجم المستشرق (دي غويه) كتاب (التنبيه) عام ١٨٩٤ ، ولخصه وشرحه (سلفتر دي ساس) وكتب عنه المؤرخ (مياد) و (فريدريك ويتريش) المستشرق الألماني ، و (بروكلمان) و (ك - فيله) الانكليزي وبراون . في كتابه الطب عند العرب) و (كاراديفو) في كتابه (مفكر الاسلام) .

الذين أفاد منهم التاريخ كثيراً ، فيما دونوا ووضعوا ، منهم : الادريسي ، وابن جبير ، والهراوي ، وأسامة بن منقذ .

وكان أسامة بن منقذ أميراً فارسياً ، من أهل الشرق العربي ، وقد تنقل في مصر وسورية وبغداد ، وقد أدخلناه في عداد الرحالين ، لأن كتابه « الاعتبار » نسيج وحده في الأدب العربي ، ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة ، في تاريخ الفروسية ، ولد أسامة بقلعة شيزر في سنة ١٠٩٥ م .

ويمثل القرن الثالث عشر (السابع) ثلاثة من كبار الرحالين : عبد اللطيف البغدادي ، وابن سعيد الأندلسي ، والعبدوي المغربي .

كذلك كان (ابن بطوطة)^(١) ، في القرون الوسطى ، ورحلاته المشهورة حول العالم الاسلامي . وابن بطوطة بدأ رحلته سنة ١٣٢٥ م من طنجة ، فاجتاز شمالي أفريقية ومصر والشام والعراق ، وجزيرة العرب ، ثم عرج على القسطنطينية وايران والهند والصين ، وزار بعض الجزائر ، مثل ، سومطرة وجاوه ، ثم عاد الى مراكش بجزراً ، وبعد عودته زار الأندلس وجنوبي افريقية ، حتى وصل الى مدينة (تمبكتو) وكتب هذا كله في رحلته الممتعة التي ترجمت الى عدة لغات^(٢) .

أما الرحالة (عبد الباسط بن خليل) فقد ولد في (ملطية - المغرب) عام ١٤٤٠ م وشغف بدرس الفقه والأدب ، وألف كتاب « الروض الباسم في حوادث العصر والتراجم » وشغف بالرحلات من أجل العلم ، وخاصة الطب ، وكان له الصفة (التجارية) وقد يسّر له ذلك الاتصال التجاري ، التعرف على أهل الطب والعلم ، فأتاح له ذلك أن يوسع دائرة معارفه ، ويوطّد صداقاته مع فئات من جميع أنواع الناس ، وساعده على ذلك ، أنه لم يكن تاجراً فحسب ، ولكنه عالماً بالفقه والطب الحديث وشاعراً .

(١) هو محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللوني الطنجي ، ولد بمدينة (طنجة) في مراكش عام (١٣٠٤) م ووفى بمراكش عام ١٣٧٧ م .

● أملى (ابن بطوطة) رحلته على الادب - محمد بن جزي الكلبي - فانهى من كتابتها

لم يدوّن (عبد الباسط) رحلته ، على أنها وحدة ، مثلما فعل ابن جبير ، وابن بطوطة ، أو سواهما ، ولكنه ضمّنها كتابه « الروض الباسم » فكان يدوّن أجزاءها ، حيث تعرض في كتابة التاريخ ، وحريّ بالذكر أن الروض الباسم ، مصدر رئيسي للتاريخ المغربي ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

● كشف القارة الأمريكية :

وقد كان للمؤلفات الاسلامية أثر في توجيه الفكر العالمي الى نتائج عملية ، من أعظم النتائج في تاريخ العالم ، قديمه وحديثه ، واحد هذه النتائج التي لا شك فيها ، كشف القارة الامريكية .

ان الروايات التاريخية عن افتتاح العرب للمحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات، كما كانوا يسمونه ، متعددة متواترة ، لا موجب للشك فيها ، وبعضها يذهب الى القول بوصول الملاحين العرب الى الشواطئ الامريكية ، وبعضها يصف الجزر التي بلغوها ، وصفاً يطابق المعلوم عن الجزائر الموجودة في هذه الأيام .

عام ١٣٥٦ م وأطلق عليها : « دحة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثيرة ، من البلاد التي زارها (ابن بطوطة) إذ يعد أول من ذكر شيئاً عن استعمال وري النقد - من الصين - وعن استخدام العمم الحجري ، وكان صادقاً في أغلب أوصافه ، حتى ان المستشرق الكبير « دوزي » أطلق عليه الرحالة الأمين ، وأعاد ابن بطوطة علم الجغرافيا ، بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والنضاريات ، والجغرافية البشرية ، والسكان والعادات والتقاليد . وقد وحه الانتظار الى رحلته ، وقد طلت هذه الرحلة موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين ، ونقلها القس - صموئيل لي - الى اللغة الانكليزية ، وطبعت في لندن عام ١٨٢٩ م ، ونقلها « وبغريموي » و سنكوينتي ، الى الفرنسية ، وطبعت في باريس عام ١٨٥٩ في خمس مجلدات ، فيها فهرس أبجدي ، وترجمها المستشرق (مزيك) الى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢ .

ولها ترجمة تركية أسبها (تقويم ورائع) . وتحوي الرحلة كثيراً من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات في الحيوان والنبات ، وحسب الكتاب ان يشهد بفضل (على العلم والأدب) الرحالة الشهير والعالم الكبير « سنيزن » فنقول ما معناه .

« أي سائح أوربي يمكنه ان يفتخر ، بأنه قضى من الزمن ما فضاء - ابن بطوطة - في البحث لكشف المجهول ، من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وحمل مشاق الأسفار ما نحمله بصبر وشجاعة وثبات ، بل إبة أمة أوربية كان يمكنها - منذ خمسة قرون - أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية ، وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة ، والدقة في الكتابة ، ما لهذا الرحالة العظيم ؟ »

ومن القرائن التي يستدل منها على وصول العرب الى القارة الأمريكية (قبل كولومبس) ما يلي :

« أعلن الدكتور (هوى لين) أستاذ النبات بجامعة بنسلفانيا بأمريكا ، في المؤتمر (١٧١) للجمعية الشرقية الأمريكية ، أنه بعد بحث سبع سنوات يؤكد أن العرب كشفوا أمريكا الشمالية عام ١١٠٠ م ، قبل كولومبس بثلاثة قرون (١) .

ونشرت ذلك (مجلة العربي - الكويتية) في عدد (يوليو) تموز عام ١٩٦١ م . وأضاف الدكتور (هوى لين) ، أنه أقام نظريته على أسس علمية ، من بحوث في علم النبات والتربة ، وأسس تاريخية أيضاً .

أما الأمر الذي لا شك فيه فهو أن الفكرة التي نهضت بكولومبس (مكتشف القارة الأمريكية) الأخير إنما كانت فكرة عملية مستمدة من المؤلفات الاسلامية ، وأجدرها بالذكر في هذا المقام ، كتب الفلك والجغرافية ، فلولا اقتناع كولومبس باستدارة الأرض ، لما خطر له أن يصل الى الهند من طريق الغرب ، ولم تكن في إيطاليا وإسبانيا يومئذ مؤلفات تشرح هذه الفكرة الا المؤلفات العربية الاسلامية .

● التواريخ العربي الاسلامي :

يزدان التاريخ العربي الاسلامي بأعلام من المؤلفين المسلمين ، الذين تركوا لنا صفحات مجيدة ، وأشهرهم : (الطبري ، وابن الأثير ، والمقري ، والهمذاني) .

● الطبري : ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري سنة ٨٣٩ م ، في بلدة (آمل) من مدن اقليم طبرستان الفارسي ، وتوفي في بغداد سنة ٩٢٢ م وقد كان مؤرخاً وفقيهاً ، وعالمًا توحيدياً ، نال من الصدارة العلمية ، ما لم يتفق لأحد أكثر منه ، بفضل ما تم له من علم وأدب وفضل ، ويعده المسعودي أعظم ممن ظهر قبلاه ، قال المسعودي :

« وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، الزاهي على المؤلفات ،

(١) ينظر مقدمة كتاب (الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام) للاساذ علي علي منصور ص ٤١ وما بعدها .

والزائد على الكتب والمصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائده ، وكيف لا يكون كذلك ، ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السنن والآثار » •

ويعد كتابه « التاريخ » من الكتب الأساسية لتاريخ العرب ، ولا سيما ما هو خاص فيه بمنشأ الاسلام ، ويشتمل تاريخه على ما لا يحصى من المعارف الثمينة ، في اللغة والطباع وأخلاق العصر ، وعلى ما ينتهي في سنة ٩١٤م - من الأنباء • و « تفسير القرآن » للطبري ، هو كتاب اتفق له ، ما اتفق لتاريخه من الصيت البعيد •

● ابن الأثير : ولد ابن الأثير في (ما بين النهرين) سنة ١١٦٠ م ، وعرف ابن الأثير مواصلاً للطبري ، ووضع خلاصة واضحة رشيقة ، لأثر هذا الاستاذ الضخم ، وأضاف اليه أخباراً مستقاة من منابع أخرى ، وألف فضلاً عن ذلك « تاريخ اللغة الأتابكية في الموصل » •

وتقوم مزية (كتاب ابن الأثير) الرئيسية في نظر الأوربيين ، على ما يحويه من أخبار كثيرة في القسم الغربي - من عالم الاسلام - ، وقد استفاد مسيو (ميشيل اماري) من تاريخ ابن الأثير كثيراً في تأليف كتابه الكبير عن (سلطان العرب في صقلية) •

وقد اقتطف مسيو (١ • فانيان) من تاريخ ابن الأثير ، ما هو خاص بأفريقية الشمالية واسبانيا •

● المقري : أحمد بن محمد المقري ، ولد في أواخر القرن السادس عشر ، وتوفي في القاهرة سنة ١٦٣١ م وهو أهم مؤرخي اسبانيا الاسلامية •

نشر كتابه الكبير « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » ب (ليدن) بين عامي ١٨٥٥ - ١٨٥٩ ، ويعد (المقري) مترجماً للأحوال أكثر منه مؤرخاً ، فقد أفرد جزءين من أثره ، إفراداً تاماً ، للأعيان والعلماء من المسلمين الذين ذهبوا

من الأندلس الى المشرق ، ومن المشرق الى الأندلس •

وما فطر عليه هذا الكاتب ، الحادّ الذهن ، من حب للاطلاع حمّله على تناول موضوعات شتّى ، فكتابه منجم حقيقي للأخبار عن مختلف بقاع اسبانيا ، وحياة أهلها وطبائعهم وأخلاقهم ، وما كتبت به تراجمه - الغنيّة بالجزئيات والأماليج الجذّابة - بأسلوب رشيق دقيق ، تشهد بوجود حياة ذهنية وقادة ، وخاصة في المدن الكبرى : كقرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، وما ورد من تفصيلات عن سير الفقهاء والأطباء والأدباء ، أمر يفوق الثمن ، في تصوير مجتمع الأندلس الاسلامي الزاهر •

● **الهمداني :** ويعدّ الهمداني فضل الله رشيد الدين الهمداني ، من أعظم مؤرخي فارس إن لم يكن أعظمهم •

كان رشيد الدين مؤرخاً من الطبقة الاولى ، وكان كاتباً معتدلاً الأسلوب ، ألّف « تاريخ المغول » عملاً بأمر (غازان خان) وأضاف الى ذلك موجزاً عن تاريخ الأمم الأخرى ، ووصفاً للبقاع التي عرفها المغول ، وتمّ هذا الأثر الكبير - المؤلف من أربعة أجزاء - في سنة ١١٣٠ م حاملاً اسم « جامع التواريخ » •

ونختم بحثنا عن (العلوم الاجتماعية عند العرب) بعلم من أعلام الحضارة العربية الاسلامية هو : عبد الرحمن بن خلدون •

لما فتح المسلمون الأندلس ، كان مع جيوش الفتح رجل يمني (من عرب حضرموت) اسمه خالد بن الخطاب ^(١) • سكن في (قرمونة) ثم انتقل إلى (اشبيلية) حيث عرف باسم خلدون ، ولما اشتد خطر الاسبان على اشبيلية سنة ١٢٢٧ ، هجرها آل الخطاب ، إلى ثغر (سبته) في المغرب •••

أما ابن خلدون نفسه (وهو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ••• بن خالد الخطاب) • فقد ولد في تونس عام ١٣٣٢ م ، وتلقى علومه

(١) تكون صيغة (فخلون) في العربية غير الفصيحة (للنصير والحب) ، أما في الاسبانية ، مزاد الواو والنون للتعظيم •

على أبيه ، وعلى نفر من علماء تونس ، فحفظ القرآن العظيم وتفسيره ، والحديث والفقه ، واللغة والنحو ، ثم توسع في الأدب والمنطق وعلوم الفلسفة .

حضر الى القاهرة ، وتولى منصب (كبير القضاة) للمذهب المالكي ، في عهد الملك الظاهر برقوق ، وتوفي بها سنة ١٤٠٦ م .

ذكر المؤرخون لابن خلدون كتباً مختلفة : في الحساب ، والمنطق والتاريخ ، يهمنها كتابه المشهور في التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .

ويهمن من هذا الكتاب - الجزء الأول - المعروف بمقدمة ابن خلدون - واليك أقسام هذا الجزء الأول :

أ - الديباجة : ص (٣ - ٩) : وفيها يذكر ابن خلدون ، أنه طالع كتب المؤرخين ، فوجدها بعيدة عن التحقيق ، فوضع هذا الكتاب ، وجعله مشتملاً على البحث في العمران (الاجتماع) ، ثم على تاريخ العرب والمشرق ، ثم على تاريخ البربر والمغرب .

ب - المقدمة (مقدمة الجزء الأول) : ص (٩ - ٣٥) : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط ، وذكر شيء من أسبابها .

ج - الكتاب الأول : ص (٣٥ - ٥٨٨) : في طبيعة العمران (الاجتماع البشري) : في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحضر ، والكسب ، والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل ، وهو ستة أبواب :

١ - الباب الأول - في الجغرافية البشرية والطبيعية (أثر البيئة في أبدان البشر وأخلاقهم وأحوالهم ، وفي ما ينشأ من العمران) ص ٣٥ - ١١٩ .

٢ - الباب الثاني - في العمران البدوي (وفيه موازنة بين أهل البدو وأهل الحضر ، وذكر خصائصهم ، ثم فيه كلام عن العصية والتغلب والملك) ص ١٢٠ - ١٥٣ .

٣ - الباب الثالث - في الدولة (كيف تنشأ الدول وتتطور ، قوة وضعفاً ،

وما تحتاج اليه من المناصب ، ومن وسائل الدفاع في البر والبحر ، مع كلام مفصّل
عن الضرائب والجباية (ص ١٥٤ — ٣٤٢ •

٤ — الباب الرابع — في العمران الحضري خاصة (نشأة المدن ، وبناء الهياكل
العظمية لها ، تم الرفاهية في المدن ، والجاه والصنائع ، ثم خراب الأمصار حينما
تنقرض الدول القائمة فيها) ص ٣٤٢ — ٣٨٠ •

٥ — الباب الخامس — في المعاش ووجوهه (وما يعرض في ذلك كله من الأحوال
والكسب ، من وظائف الدول ، ومن الفلاحة والتجارة والصناعات) ص ٣٨٠ — ٤٩٢ •

٦ — الباب السادس — في العلوم وأصنافها ، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه
(وما يعرض في ذلك كله من أحوال) ص ٤٩٢ — ٥٨٨ •

● خصائصه :

امتاز (ابن خلدون) بسعة اطلاعه على ما كتب الأقدمون ، وعلى أحوال
البشر ، وكان قادراً على استعراض الآراء ، ونقدها ، دقيق الملاحظة في أثناء ذلك
كله ، مع حرية في التفكير ، وانصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرايه •

وقد كان لتجاربه الواسعة (في الحياة السياسية والادارية وفي القضاء) الى
جانب أسفاره الكثيرة المترامية بين الأندلس وشمالى أفريقية ، وغربها الى مصر
والحجاز والشام ، أثر بالغ في تكوين خصائصه •

ثم إن (ابن خلدون) مفكر متزن ، لا يميل مع الهوى ، بل تراه يقيّد
استنتاجاته كلها ، بما هو مشاهد في الاجتماع الانساني ، أو بما عرفه أو بلغه من
الأحوال ، أو بما تضافرت عليه الأدلة •

والحقيقة التي لا مجال لانكارها ، هي أن (ابن خلدون) يعتبر من أعظم
عباقرة الفكر الذين أنجبته أمتنا العربية ، فقد وضع أسس علم جديد لم يفكر
فيه أحد من فلاسفة اليونان في العصور القديمة ، ولم يهتد اليه أحد من مفكري
أوروبا — قبل القرن التاسع عشر — ذلك هو (علم المجتمع) •

وتعدّ مقدمة ابن خلدون ، أولى المؤلفات في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، فقد كان مبتكراً في هذين الميدانين بكل معنى الابتكار ، وهذا الابتكار يعطيه مكانة ممتازة بين سائر مفكري العرب •

ثم ان ابن خلدون قد عرّف التاريخ بأنه « علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني » أما انه علم من علوم الفلسفة — فلأنه يقتضي تحليل الحوادث ، وربط بعضها ببعض ، مع تمييز الخبر الصادق من الخبر الكاذب ، ومع الترجيح بين الأسباب •

وأما أن موضوعه الاجتماع الانساني — فلأن التاريخ يجب أن يتناول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من فاعليات الحياة (من سياسة وحرب ، وصناعة وتجارة ، وعلم وفن ، ومن حركات اجتماعية عامة ، أو دينية ، أو اقتصادية ، أو فكرية) ومن أجل ذلك ، وجب أن يكون المؤرخ ملماً بعلوم كثيرة ، فان كان لا يعرف إلا (رواية الأخبار) كان قاصّاً فقط •

● فن التاريخ (المؤرخون السابقون) كما يراه ابن خلدون :

« أما بعد — فان فن التاريخ ، من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، إذ هو في ظاهره ، لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيه الأقوال ، وتضرب فيه الأمثال ، وتطرف فيه الأندية إذا غصّها الاحتفال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات (الحوادث التاريخية) ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق » •

لماذا ألف ابن خلدون كتابه :

« فأنشأت في التاريخ كتاباً ، به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً ، وفصلته في الإخبار والاعتبار باباً باباً وأبدت فيه لأولية الدول والعمران (نمط الحياة الاجتماعية) عللاً وأسباباً ، وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الانساني ، ما يمتّعك بعلم الحوادث وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها » •

والتاريخ (على العموم) علم نظر وتحقيق لأحداث الماضي ، يشير الى عللها وأسبابها ، هو رقيب الحياة يسجل الأحداث ، ويحفظها لمن لم يطلع عليها ، ليقرأ في ضوءها حكمة الماضي ، ويستمد منها العظة للحاضر ، ويخطط في هديها للمستقبل الأفضل .

نظرة الغربيين الى ابن خلدون :

قال (روبرت فلنت) : من وجهة علم التاريخ : يتحلّى الأدب العربي ، باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى ، يستطيعان أن يقدموا اسماً ، يضاهي في لمعانه (ابن خلدون) ويتابع كلامه هذا فيقول :

« إن من يقرأ المقدمة باخلاص ونزاهة ، لا يستطيع إلا أن يعترف بأن (ابن خلدون) يستحق لقب (مؤسس علم الاجتماع وفلسفته) » .

وفي هذه المقدمة يتجلى اتساع أفق التفكير عند ابن خلدون ، وغزارة علمه ، فقد اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر ، مادة لدروسه ، وحاول أن يفهم هذه الظواهر ، وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتّب من سيرها وتفاعلها ، قوانين اجتماعية عامة ، وهذا ما جعل الباحثين يقولون بتفوّق ابن خلدون على (ميكيا فيلي) ، تفوقاً عظيماً في التفكير ، ونوع النّسّاج ، وفي نظريات العصبية وإعمار الدول وخواصّها ، ومعالجتها من النواحي الاجتماعية ، مما حدا بالعالم الاجتماعي (جمبلوفيتش) أن يصرح بأن فضل السبق يرجع الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بكثير من النظريات والآراء ، التي وردت في كتاب الأمير ، لـ (ميكيا فيلي) . وقد قارن (كلوزيو) ، بين ابن خلدون ، وميكيا فيلي ، فقال في هذا الصدد :

« إذا كان ميكيا فيلي ، يعلمنا وسائل حكم الناس ، فانه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر ، ولكن العلامة التونسي ابن خلدون ، استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية ، كافتصادي وفيلسوف راسخ ، مما يحملنا بحق ، على أن نرى في

آثره من سموّ النظر ، والسرعة النقدية ، ما لم يعرفه عصره » •

أما (موتسكيو) فهو من أشهر رجال الفكر والقلم ، الذين نبغوا في القرن التاسع عشر ، في فرنسا ، وقد شغل مقاماً ممتازاً في فلسفة التاريخ ، وعلم التاريخ ، من جرّاء الأهمية التي يعزوها الى العوامل الاقتصادية في تكوين طبائع الأمم ، وتسيير وقائع التاريخ ، حتى ان بعض الباحثين يرى أن (موتسكيو) أول من ربط علم الاقتصاد بعلم التاريخ ، وأنه أول من شارك هذين العلمين في أمر تفسير الحادثات الاجتماعية وتعليلها •

ولكن الاستاذ ساطع الحصري تنتهي دراساته إلى القول ، ان ابن خلدون سبق موتسكيو ، فقد جاء في المقدمة ما يشير الى العلاقات القوية التي تربط الاحوال الاجتماعية بالحياة الاقتصادية في تطوّر الدول ونموّ الحضارة ، وعلى هذا فان القول :

« إن شرف ادخال عنصر الاقتصاد في علم التاريخ يعود الى موتسكيو ، ما هو إلا افتئات على الواقع والحقيقة ، وان هذا الشرف يعود في حقيقة الأمر إلى ابن خلدون ، الذي سبق موتسكيو في هذا الشأن مدة تزيد عن ٣٥٠ سنة... »

وفوق ذلك فقد امتاز ابن خلدون على موتسكيو ، بعمق التفكير ودقّة النظر ، التي أظهرها في علاقة التاريخ بالاقتصاد ، وهو يدرك التطورات والتقلبات التي تصيب المجتمع ، وأن أهم عامل في هذه التطورات والتقلبات هو الاقتصاد ، وقال : ان الفقر هو الذي يجبر الناس الى النهب والحرب •

ويرى ابن خلدون أن حوادث التاريخ مقيّدة بقوانين طبيعية ثابتة (وكما ذكرنا) أن ظاهر التاريخ تسجيل الأحداث ، ورواية الأخبار ، أما باطنه ، فهو نظر وتحقيق ، وتعليل لحوادث التاريخ ومبادئها ، وكذلك هو علم بكيفيّات الوقائع وأسبابها •

ويرى (ابن خلدون) في العقل ، أنه قبس من نور الله ، ميّز به الانسان على المخلوقات ، وان الانسان يستطيع أن يستنبط سنّة الله في خلقه ، بقوة هذا

العقل ، كما أنه يستطيع أن يستفيد من تلك السنن الثابتة ، في جلب المنافع ودفع المضار ، في حياته الخاصة والعامة ، وفي تقرير سياسة عقلية ومنهج للسلوك مناطها (الايمان بعدالة الله - واهب الحياة والارادة الحرة للانسان) ، ولهذا يمكن القول بأن ابن خلدون من الذين يعتمدون على العقل ويثقون به ، ولكن الى حد ، فهو لا يسترسل في الاعتماد على العقل استرسالاً كلياً ، بل انه يرى ، ان نطاق مدركات العقل محدود بحدود طبيعية لا سبيل الى اجتيازها بالمحاكمات النظرية وحدها ، إذ العقل البشري عاجز عن ادراك ما يقع وراء المحسوسات (من أمور التوحيد ، ومسائل المعاد ، وحقائق صفات الله ، وسائر الأمور الروحانية) (١) .

وفي المقدمة - فقرات ملحوظة - يسكن الخروج منها ، بأن عقلية ابن خلدون تستاز بصفات أبرزها : دقة الملاحظة ونزعة البحث والتصميم ، والقدرة على الاستقراء ، ولسنا بحاجة الى القول إننا لا نستطيع الاسترسال في الكلام عن المقدمة ومزاياها ، فهذا يحتاج الى مجلد ضخم ، ولكننا نختم بحثنا باعترافات لكبار علماء الغرب ، مشفوعة بخلاصة موجزة عن نظرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ .

قال (دي فو) في كتابه (مفكرو الاسلام) :

« ان نزعة الاهتمام بالبحث ، في كل شيء ، في أسباب النشوء والتطور ، وأسباب الحدوث والتقدم ، تضع ابن خلدون (كاتب القرن الرابع عشر) في

(١) ... والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده ، في الوصول الى عقيدة سليمة راسخة ، وفكرة كلية واضحة ، نفس هذا الوجود وتحل الفاظه ، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه ، وأهملوا جانباً هاماً من الفطرة الانسانية هو جانب الشعور والوحدان ، جانب القلب ، كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً ما كان أحوجهم اليه ، وما أضل سببهم بغيره ، هو باب الوحي .

ان العقل مهما أوتي من الدكاء ، والقدرة على التجربه والقياس والاستنتاج ، محدود بحدود الطاقة البشريه مفيد بقود الزمان والمكان ، والوراثه والبيئة ، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين ، يسدده اذا أخطأ ويهديه اذا صُلِّ ، ويرده الى الصواب إذا شرد ، وهذا السند هو الوحي ، الذي هو أساس الدين . (بصنم دآلف العلوب ، ووحده الرأي والهدف ، بالاضافه الى تحقيق العدالة ، وشمول الرحمة والسعادة ،

ينظر كتاب - الايمان والحياة - للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠٦ .

مصافٍ أرقى العقليات في أوروبا الحالية» •

وقال الاستاذ (فارد) الأمريكي ، في كتاب علم الاجتماع النظري :

« كانوا يظنون أن أول من قال وبشّر بالهتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو (فيكو) ، في حين أن ابن خلدون ، كان قد قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة ، قبل هؤلاء بمدة طويلة » •

أما (تويني) الاستاذ بجامعة اكسفورد في كتابه (دراسة في التاريخ) فيعدّ ابن خلدون من العباقرة ، ويرى في مقدمته دلائل ساطعة ، على سعة النظر ، وعمق البحث ، وقوة التفكير ، ويتابع أحكامه في ابن خلدون فيقول :

« إن ابن خلدون — في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام — قد أدرك وتصوّر ، وأنشأ فلسفة التاريخ ، وهو بلا شك أعظم عمل من نوعه ، خلقه أي عقل ، في أي زمان ومكان » •

ونختم هذا البحث بعرض موجز عن نظرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ •

● نظرة الاسلام الشاملة الى فلسفة التاريخ :

ان ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة (في القرآن الكريم) تلك أن مساحة كبيرة من سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعاداً واتجاهات مختلفة ، وتندرج بين العرض المباشر ، والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص (للسنن التاريخية) التي تحكم حركة الجماعات (عبر الزمان والمكان) مروراً بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وتبلغ هذه المسألة (أي التاريخية) حداً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم ، بحيث أن جلّ سوره ، لا تكاد تخلو من عرض (لواقعة تاريخية) ، أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنّة ، تتشكّل بموجبها حركة التاريخ •

ان القرآن الكريم لا يقدم قصصه ومشاهداته لمجرد ترف ذهني ، بل انه

يأتي بمعطياته التاريخية ، من أجل أن يحرك الإنسان نحو غاية الاسلام (نحو الحكمة والرحمة والعدالة الإلهية) ويبعده في الوقت ذاته (فرداً وجماعة) عن مزالق الشقاء ، التي أودت (ويمكن أن تودي) بمصائر عشرات الأمم والشعوب ، لتكتبها جادة الصواب وطريق العدالة ، وانحرافها عن منهاج الله ، الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ، ليمثلوا إرادته ، ويحققوا مراده ، في سعادة الإنسان والانسانية ، في الحاضر والمستقبل • قال تعالى :

● « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين • هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين • ولا تهنوا ولا تعزنوا وأتتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (١) •

ان أي حدث تاريخي ، إنما يأتي (في الأصل) تعبيراً عن إرادة الله ، التي تصوغه (في الواقع) من خلال إرادة الانسان ، وقد منحه الله الحرية لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي ، ربطاً بين الماضي والحاضر ، وبحثاً عن المستقبل الأفضل • حرية مسؤولة عن هندسة السلوك (وصياغة الحدث التاريخي) ولا بد أن يكون الجزاء في شريعة الله من جنس العمل •

وعندما يستخدم الانسان حريته لصياغة الحدث التاريخي ، وتوجيه المصير ، إنما يمارس نشاطه ، معتمداً على ما ركّب في وجوده من قوى العقل والإرادة ، والانفعال والحسّ والحركة ، في حدود قدراته وخبراته وامكانياته الذاتية ، والمؤثرات البيئية ، وفي حدود التخطيط الإلهي الشامل (النظام العام الكوني للحياة) والتي تعتبر إرادة الانسان الحرّة منظوية في مضمونه •

والنتيجة التاريخية (التي ترتبها المشيئة الإلهية - على التجربة الفردية والجماعية) إنما تأتي منبثقة عن طبيعة التجربة (وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون) متشكّلة بشكلها ، حاملة بصماتها ، وهذا هو العدل الإلهي ، بمفهومه الشامل

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٣٨ - ١٣٩ •

الدقيق (١) •

هذه نظرة الاسلام الشاملة الى (فلسفة التاريخ) نظرة واعية محققة ، تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، تؤدب المؤمن على مواجهة مسؤوليات الحياة ، بقوة العلم وبقظة الايمان (٢) ، إيماناً بعدالة الله (٣) وحرصاً على صياغة السلوك

(١) ينظر كتاب - التفسير الاسلامي للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل •

(٢) قال الله تعالى :

• يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ان الله خير بما تعملون •

سورة الحشر : ١٨

(٣) ان الايمان بعدالة الله (في مكافأة المحسن - أو مؤاخذة المسيء) هو ذروة الايمان ، ومحور العقيدة ، ولا بأس ان يعلم المؤمن في هذا المجال ، بان الله تعالى ، سبق في علمه وإحاطه الأزلية ، مقادير الاشياء ، وأحوالها التي ستكون عليها بحيث يكون ايحادها بعد ، (مقرونة بأسبابها) طبقاً لما أحاط به علمه ، وسبق به كتابه ، قال الله تعالى :

• ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ، من قبل ان نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ، لكي لاتأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم سورة الحديد : ٢٢ •

• وعنده معاتج الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين • سورة الانعام : ٥٩ • وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ يعضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا اصغر من ذلك ولا أكبر

إلا في كتاب مبين • سورة يونس : ٦١

• ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب إليه من جبل الوريد • سورة ق : ١٦ (والكتساب المبين) الوارد في الآيات الكريمة ، هو اللوح المحفوظ ، الذي ذكره القرآن الكريم ، مشيراً الى التخطيط الإلهي الشامل (والنظام العام الكوني للحياة) (الذي يشع بعديل الله الشامل - وعلمه المحيط) •

وقد أخبرنا الله سبحانه مسبقاً عن ذلك ، حتى تؤمن بالقضاء والقدر (بعدالة الله الشاملة وعلمه المحيط) فلا يصيبنا الحزن والياس (إذا واجهنا قدر المؤاخذة) ولا العرج المفرط (في حال المكافأة) لأن كلا الحالين ينطوي على الأثر السيء بمستقبلنا الصحي (نتيجة للهيجان المصادم - سلبي أو إيجاباً) فالايان يدعوننا للصدور في مواجهة الأحداث ، كما يهيب بنا لتصحيح الاتجاه وتعديل السلوك على ضوء المنهاج الإلهي •

وتأكيداً لهذه المعاني (بعدالة الله الشاملة - وعلمه المحيط) يقول الله تعالى :

• إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم • سورة الرعد : ١١

• لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب • • الرعد : ٣٩

• فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون • الصافات . ١٢٢ - ١٢٣

• فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره • ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره • الزلزلة : ٧ - ٨

وفق منهاج ربّاني ، يرقى بالحياة (الفردية والاجتماعية) نحو التطور والازدهار

لقد أدركنا بوضوح مفهوم الايمان بعدالة الله ، بالقضاء والقدر ، خيره وشره من الله تعالى ،
خيره (في مكافأة المحسن) وشره (في مؤاخذة المسيء) .

وقد يزعم الانسان (جهلا بشرية الله) أنه لا بد من وقوع القدر (ولو منقطعاً عن أسبابه)
وحيث ، لا فائدة من اكتساب العلم النافع ، أو ممارسة العمل المتحر ، ولا من جهاد النفس والهوى ،
ولا من أية محاولة للوصول الى المقاصد المشروعة : من طرقها الممهدة ، التي جرت بها سنة الله في
الوجود ، إذ لا بد (بهذا الزعم الباطل) من وقوع الحدث التاريخي (القدر) سواء أوفعت
أسبابه أم لم تقع !!

إن من زعم هذا ، فقد أخطأ الفهم لسرعة الله ، وشوّه (في نفسه) الايمان بعدالة الله ، وفكك
معنى القدر ، وآمن ببعضه ، ولم يؤمن بالبعض الآخر !! ذلك ، إن الله تعالى (وهو الحكم العدل)
وسع كل شيء رحمة وعلماً ، وسع كرسيه السموات والأرض ، كما علم الأشياء ، علم أسبابها
ونائجها وأحوالها وطروفها ، وربط بعضها ببعض في علمه ، ومجموع ذلك هو القضاء والقدر (وفل
إن شئت - النظام العام الكوني للحياة - الذي تمتزج في معناه ، عدالة الله الشاملة وعلوه المحبط) .
فاذا أراد الله أمراً ، يسر له أسبابه الموصلة إليه (في علمه) حتى يقع على الوجه الذي علمه .

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، حين سألته الجهنمي فقال :

« يا رسول الله ... فيم العمل ؟ ... » ويعني بذلك (في مواجهة القضاء والقدر) فقال (ص) :
مشيراً الى سنة الله في الكون (العقيدة منطلق السلوك - والجزاء من جنس العمل) .

● « إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة ... وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار ... »
مؤكداً بذلك قول الله تعالى .

● فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى . « سورة (والليل اذا يفتشى) الآية : ٥ - ٦ »

● « ان الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون .
أولئك ماؤاهم النار بما كانوا يكسبون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ،
ينجيهم من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . » سورة يونس الآيات : ٦ - ٩

لقد قررت شريعة الله بوضوح وصراحة ، ان الرزق مرتبط بالسعي ، وان الامن مقرون بتحقيق
العدالة وحراستها ، وان النصر مع الصبر (والصمود) .

وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولية وعملية ، توجهنا الى ممارسة الاسباب ، وإتيان
البوت من أبوابها ، فقد لبس الرسول الكريم الدروع في الحروب ، وحمر الخنادق ، واستعمل العيون
والحرّاس ، واستنصر بالحلفاء ، واستعان بالأصحاب ، وتداوى وأمر بالتداوى ، وكان يدخر لقوب
أهله ما يكفيهم عاماً : وأمر بالانقصاد في العيش ، والشورى في الرأي ، والتعاون على البر والتقوى .

ومن جوامع الكلم وفصل الخطاب (في هذا المعنى) قوله صلى الله عليه وسلم (فيما يرويه مسلم
في صحيحه) « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على
ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء ، فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن
قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتتح عمل الشيطان .

• والتكامل •

(ينظر كتاب - من روائع الأدب النبوي للدكتور محمد كامل الدقس ص ٢١٢ وما بعدها)
فالمؤمن مكلف بتنفيذ أمر الله (علما بشرية الله - وعلا بطاعته) يأخذ بالأسباب ، ويفتنم
الفرص ، ما وسعته الطاقة ، وحالته الظروف يرجو معونة الله ، ويتلمس عنايته ، ويتمثل عداله
في مثل قوله تعالى :

• « ولكن البر من اتقى » سورة البقرة : ١٨٩ (وهذه الآية تعني أن العناية الإلهية
منطلقة تعظيم المؤمن لأمر الله) •

• « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ،
ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ،
والموفون بمعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » أولئك الذين
صدقوا وأولئك هم المتقون » سورة البقرة : ١٧٧ •

- وهذه الآية الكريمة - نصف التقوى وتعظيم أمر الله ، في ميدان الأخلاق والعلاقات الاجتماعية -
كما يذكر المؤمن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه الإمام مسلم :

• « كل شيء بفضاء وقدر ، حتى العجز والكيس »
• « الكيس ، من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز ، من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على
الله الأمانى » •

أجل - حين يسلك المؤمن سبيل البر والخير والتقوى (والمكاشاة) ، فهذا السلوك داخل في مضمون
القضاء والقدر (والنظام العام الكوني للحياة) ، كما أن سلوك الإنسان (الغافل) سبيل المؤاخنة
(وانبعاث الهوى) لا يخرج عن مضمون القضاء والقدر (والعدالة الإلهية الشاملة) ، ولا بد أن يكون
الجزاء ، في شريعة الله ، من جنس العمل • قال تعالى :

• « فاما من ظنى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى • » النازعات : الآيات : ٣٧ - ٤١ •
لقد أعطانا القرآن الكريم ، درساً بليغاً (عقب غزوة أحد) ، في معنى القضاء والقدر ،
محللاً أسباب الفشل والهزيمة •••• قال تعالى :

• « أولما أصابتكم مصيبة ، قد أصبتم مثلها ، فقلتم أئى هذا ؟ ••• قل هو من عند أنفسكم إن
الله على كل شيء قدير • » آل عمران : الآية : ١٦٥

ومعنى الآية الكريمة : أولما أصابتكم مصيبة (في قتل سبعين من المسلمين في غزوة أحد) •

قد أصبتم مثلها (يوم بدر ، حين قتلتم من عدوكم سبعين ، وأسرت سبعين) •

قلتم أئى هذا (من أين جاءت هذه المصيبة ، وهذه الهزيمة ؟ !!) •

قل هو من عند أنفسكم (أي بسبب إهمال الرماة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم) •

هذه حيوية الاسلام ونظيرته الشاملة الى أحداث التاريخ ، يدعونا الى يقظة العلم والايمان في
(المنطلق) ، كما يدعونا الى الاطمئنان الى عدالة الله - بعد وقوع القدر - صموداً في مواجهة الأحداث ،
لنستدرك التقصير ، ونصحح الانحسار ، ونستأنف السلوك السوي المنسجم مع عدالة الله •

إن الايمان بعدالة الله (بالقضاء والقدر حيره وشره من الله تعالى) يوقظ في المؤمن شعوره بالمسؤولية ،
نحو نفسه ونحو الآخرين ، وهو الذي جعل من أمتنا العربية خير أمة أخرجت للناس تامل بالمعروف
ونتهى عن المنكر وتؤمن بالله •

الفصل السابع

العلوم العقلية عند العرب الفلسفة

تقديم :

امتاز الانسان عن الحيوان ، بموهبة العقل (القوة المفكرة — المتطورة)
التي وهبها الله تعالى إياها ، تكريماً له ، وتنويهاً بشأنه ، قال تعالى :

● « ولقد كرّمنا بني آدم » سورة الاسراء : آية : ٧٠

قال ابن عباس : كرّمهم سبحانه ، بالعقل .

والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وهو أيضاً ميزان التعادل (التوازن)
في الانسان ، وسرّ الله فيه وعلاقته القائمة بينه وبينه ، به تعرفه (أي تدرك حكمته
ورحمته وعدالته) وتعرف نفسك (حيث خلقتك فسوّاك فعدلك) وتعرف مبدأك
ومنتهاك ، وتعرف مكانك في الوجود الذي أنت فيه .

وعقل الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه ^(١) ، العقل قبس من
نور الله ، مناط التكريم والتكليف (والمسؤولية) في الانسان ، أودع الله فيه
خصائصه المميزة وقوانينه المنظمة (كمرکز قيادة في الذات الانسانية) تمكّن
الانسان من التلاؤم مع واقعه ، وتنمية مواهبه ومكاسبه ، وتنسيق علاقاته
بالآخرين ، تحقيقاً لغاية وجوده .

ومن أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت أنظار الباحثين والدارسين

(١) انظر - تعريف العقل للشيخ محمد عبده - كتاب اصول التربية الاسلامية للدكتور
سعيد اساعبل علي ص ٣٠ .

(الاشارة بالعقل) ، وتوجيه النظر الى استخدامه بما يفيد وينفع ، فدعا القرآن الى تقدير العقل والرجوع اليه ، فيما اختص به من تفكير ، ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى حتى أنه ليكرر الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام •

وقد وردت مادة « عقل » بصيغة المضارع « يعقلون » تعقلون ، نعقل ، في خمسين آية من آيات القرآن الكريم •

ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة ، مستخدماً لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه أو تشير اليه ، من قريب أو بعيد : من التفكير ، والنظر ، والتدبر ، والرأي ، والحكمة ، والعلم ، والفقه ، والرشد ، والبصر ، الى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها ، مما يعتبر احياءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان •

والقرآن الكريم ، لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم ، والتنبيه الى وجوب العمل بمقتضاه والرجوع اليه ، ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه (التي يشرحها علماء النفس في العصر الحديث) بل تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف خصائصها ، وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ، في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل (في العقل الوازع) ولا (في العقل المدرك) ولا (بالعقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح) ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية ، كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة •

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الانساني (بكل ما احتواه من هذه الخصائص) فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، تحقيقاً لتنمية القوى الواعية لدى الانسان المؤمن ، الذي اتصل تفكيره بشريعة الله ، واتصلت إرادته (سلوكه في الحياة) بمراد الله (بمقتضى حكمته ورحمته وعدالته) فاذا هو الانسان (المدرك لغاية وجوده) الواعي لمعنى (خلافة الله في الأرض) يمثل القوى الدافعة للحركة الحضارية ، يسير بالحياة ، ويرقى بها

نحو التطور والازدهار والتكامل •

وستتابع — معاً بإذن الله — نظرة الاسلام الشاملة إلى فاعية العقل ونشاطه ،
بعد أن نستعرض علماً من أعلام الفكر والفلسفة الاسلامية •

بعد هذه — الاشارة العابرة — الى تعريف العقل ، ونظرة الاسلام اليه ،
سنأتي على استعراض صور جذابة من صور النشاط العقلي عند المسلمين
(الفلسفة الاسلامية) بالحديث عن علم من أعلامها هو (الفارابي) •

ولد (أبو النصر الفارابي) محمد بن محمد بن طرخان ، في بلدة (فاراب)
في بلاد الترك ، من أرض خراسان ، وذلك عام ٨٧٢م وتوفي في دمشق عام ٩٥٠م •
وقد جمع الى الفلسفة العربية ، الرياضيات والموسيقى ، وكان يتقن مع
(العربية) التركية ، والفارسية ، واليونانية •

كان منتجاً أبعد حدود الانتاج ، أخرج الى الناس من المؤلفات والرسائل
ما يزيد عن المائة أهمها : (آراء أهل المدينة الفاضلة) و (المدخل الى علم
الموسيقى) و (احصاء العلوم والتعريف بأغراضها) و (المدخل الى علم المنطق)
و (تحصيل السعادة) •

وقد سار في عرض أكثرها على أسلوب ممتاز ، بالقصد في اللفظ ، والعمق
في المعنى ، مع دقة في التعبير ، وقوة في التماسك ، وحسن الانسجام والنظام في
التأليف ، وربط المواضيع ربطاً محكماً منطقياً •

ومن المؤسف حقاً أن تضيع أكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن ، وقد سلم
منها القليل ، ومن هذا القليل ترجم الأوروبيون ما وقع في أيديهم •

وأثنى (روجر بيكون) على الفارابي وعلى بعض مؤلفاته ، وكان نبزاً
لحكماء الشرق والغرب ، وسراجاً وهّاجاً يستضيئون بنوره ، ويسيرون على
هدهاء ، ولا يزال رجال العلم والفلسفة في أوروبا وأمريكا يهتمون به الى اليوم •

اشتهر بالمنطق ، واهتم بشرح آراء المعلم الأول (أرسطو) وبيان فلسفته ،

وتقريب فهمه إلى معاصريه ، مما جعل له عند العرب مكانة مرموقة حتى لقبوه بـ (المعلم الثاني) بعد أرسطو (المعلم الأول) قد جعل الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة ، ومن المؤرخين من سماه : (فيلسوف الاسلام) ، أما (ابن خلكان) فقد ذكر أنه (أكبر فلاسفة المسلمين) •

واطلع المؤرخون في أوروبا وأمريكا على فلسفة الفارابي ، ودرسوها وتأثروا بها ، وخرجوا بالقول أن الفارابي مؤسس الفلسفة العربية ، وقال : (دي فو) :
إن الفارابي شخصية قوية وغريبة حقاً وهو عندي أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحه كانت أكثر تدفقاً وجيشاناً ، ونفسه أشد تأججاً وحماساً ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله منطق مرهف بارع ، ولأسلوبه مزية الإيجاز والعمق •

وكان للفارابي أثر بليغ في الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى ، يدلنا على ذلك آثاره التي نجدتها في مصنفات هؤلاء ، التي تناولت آراء الفارابي ونظرياته ، بالناية والاهتمام بها ، (شرحاً وتعليقاً) •

وقد اشتهر بتفسيره لكتب (أرسطو) لا سيما فيما يتعلق بالمنطق ، وهو يعدّ في هذا المضمار من أعظم المفسرين ، ولكن فضله لا يقف عند التفسير ، ولا عند التمهيد للنهضة الفلسفية في الاسلام ، بل ان أنظاره المبتدعة ، وبحوثه في الحكمة (العلمية والعملية) لم يتهيا بعد للباحثين كل الوسائل لتفصيلها تفصيلاً وافياً « • • • • » •

ويرى كثيرون أن اهتمام الفارابي بالمنطق بهذا الاهتمام العظيم ، قد أثر في التفكير عند العرب ، وتقدم به خطوات ، فقد اعتبره آلة للفلسفة ، وأداة يمكن بواسطتها الوصول إلى التفكير الواضح الصحيح ، وقد قال في هذا الشأن مايلي :

« وأقول ، ولما كانت الفلسفة انما تحصل بجودة التمييز ، وكانت جودة التمييز انما تحصل بقوة الذهن على ادراك الصواب ، كانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذه ، وقوة الذهن إنما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق ،

أنه حقّ يقين فنعتقده ، وبها نقف على الباطل أنه باطل يقين فنجتنبه ، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ، ونقف على ما هو حق في ذاته وقد أشبه بالباطل فلا نغلط فيه ولا نخدع ، والصناعة التي بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق ، وقد انتهى الفارابي الى تعريف المنطق بالمعنى التالي :

« المنطق هو العلم الذي نعلم به الطرق التي توصلنا الى تصوّر الأشياء ، والى تصديق تصوّرها على حقيقتها » •

وفي نظر الفارابي قانون للتعبير بلغة العقل الانساني عند جميع الأمم ، فنسبة صناعة المنطق الى العقل والمعقولات ، كنسبة صناعة النحو الى اللسان والألفاظ ، فكل ما يعطينا علم النحو من القوانين في الألفاظ ، فان علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات وعلم النحو انما يعطي قوانين تخصّ ألفاظه أمة ما ، وعلم المنطق انما يعطي قوانين مشتركة تعمّ ألفاظ الأمم كلها » •

ولقد أنصف (ابن صاعد) في كتابه « طبقات الأمم » الفارابي ، فاعترف بأنه بزّ في صناعة المنطق أقرانه ، وأربى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها وكشف أسرارها ، وقرّب تناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها ، في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » •

وتعرّض الفارابي لنظرية المعرفة ، وقد أودع بعض عناصرها متفرقة في كتبه ورسائله ، فمن عناصر نظرية المعرفة الصحيحة — عند الفارابي — كما جاء في كتاب الدكتور عمر فروخ عن الفارابي وابن سينا ، المباينة ، أي اختلاف شيء من آخر ، في ناحية تشعر بها الحواس ، كالاختلاف في الحجم والملبس واللون والطعم والرائحة ، ومنها المعرفة ببادئ الرأي ، أي معرفة هذه الأشياء (معقولة في نفوسنا) وقد استقرت منذ الطفولة الأولى ، ومنها التخيل ، أي قياس ما لا نعرف على ما نعرف » •

وكان الفارابي يؤمن بالمنطق وبفوائده وأثره البالغ في الحياة العقلية ، وكيف أنه يمكن بالمنطق معرفة الآراء صحيحتها وفاسدها ، سواء أكانت منّا أم

من غيرنا ، وإدراك الزلل أو الصواب ، وقد قال الفارابي في هذا الشأن : « فإننا إن جهلنا المنطق لم نقف (من حيث نتيقن) على صواب من أصاب منهم ، كيف أصاب ؟ ومن أيّ جهة أصاب ، وكيف صارت حجّته توجب صحة رأيه ... ولا على غلط مهم أو كيف غلط ، ومن أيّ جهة غلط أو غلط ، وكيف صارت حجّته لا توجب صحة رأيه ... فيعرض لنا عند ذلك ، إما أن نتحيّر في الآراء كلها ، حتى لا ندري أيها الصحيح وأيها الفاسد ؟ وإما أن نظن أن جميعها على تضادها حق ، أو نظن أنه ليس في شيء منها حق ، وإما أن نسرّع في تصحيح بعضها وتزييف بعضها ... » •

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه مذهبه الفلسفي كله ، فيما يتعلق بآرائه في الإلهيات والنفس الانسانية ، وفي الأخلاق والسياسة ، ويقول الاستاذ العقاد في صدد هذا الكتاب : « ويمتاز الفارابي من بين فلاسفة الاسلام ، بأنه عالِمُ البحث في السياسة ، من الناحية الفلسفية الخالصة ، فالتفكير السياسي في نظام الدولة ، وتصوّر المثل الأعلى للحكم ، ووضع الموازين الخلقية ، والمقاييس السياسية ، وتحديد الغاية من الحاكم والمحكوم ، ونقد المجتمع الذي يؤدي إلى الشرور والمفاسد ، كل هذه من الوسائل التي انفرد الفارابي بالبحث فيها ، والتي تدل على قوة الشخصية واستقلال الرأي ... إلى أن يقول (أي الاستاذ العقاد) والمدينة الفاضلة اسم أطلقه الفارابي على (المثل الأعلى للحكم) ويريد به المدينة التي تحقق لأعضائها السعادة القصوى في الدارين ... (الدنيا والآخرة) » •

وفي الواقع ، ان مدينة الفارابي هذه ، ليست كما يتصور بعض المؤرخين ، صورة مصغّرة لجمهورية أفلاطون اليوناني (على الرغم من بعض المشاركات والتشابه بينهما في الأصول) ولكن اختلافاً كبيراً في الفروع والتفاصيل ، فلقد استعان الفارابي بفلسفة اليونان ، واستعان بالاسلام وأحكامه ، وأضاف إلى هذا كله تجاربه وخبراته ، فكانت مدينته الفاضلة مدينة جديدة ، أحسن فيها الاختيار والاقتباس ، وأحسن فيها المزج والاستنباط ، فظهرت فيها قواعد سامية وأصول

علمية ، يجدر بكل أمة السير عليها والاقتراب منها •

من هذه القواعد والأصول ما يتصل بالأمة وأنها جسم واحد ، لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون ، وتوزيع الأعمال وتنسيقها ، على أساس الاستعدادات والمواهب والقابليات ، وإن الدولة لا تتقدم ، ولا تسير نحو السعادة قدماً ، إذا لم يكن على رأسها الحكماء والفلاسفة ، المعروفون بكمال العقل وقوة الإرادة ، وخصوصية الإدراك والخيال ، وخصال أخرى سردها (الفارابي) على الوجه التالي :

« ويجب أن يقوم بإدارة المدينة المثالية رئيس عادل ، حائز للخصال الآتية : أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لما يقال له ، جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه ويسمعه ، ولما يدركه ، جيد الفطنة ذكياً ، وإذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له ، محباً للتعليم والاستفادة ، منقاداً له ، سهل القبول ، لا يؤلمه تعب التعليم ، ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه ، محباً للصدق وأهله ، مبغضاً للكذب وذويه ، كبير النفس ، محباً للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها ، ثم أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله ، ومبغضاً للجور والظلم وأهلها ، يعطي النصف (الانصاف) من نفسه وأهله ، ومن غيره ، ويحث عليه ، عدلاً غير صعب القياد ، ولا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعي إلى العدل ، بل صعب القياد إذا دعي إلى الجور ، وإلى القبيح ، ثم أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ، جسوراً ، مقداماً ، غير خائف ولا ضعيف النفس » •

فاذا لم تجتمع هذه الخصال كلها في رجل واحد ، بحث عن رجلين أو ثلاثة رجال أو أكثر ، جامعين معاً للخصال المطلوبة من الرئيس ، وعهد إليهم (كمجلس قيادة) في الحكومة •

والفارابي فوق ذلك كله ، أول من عني بإحصاء العلوم ، يتجلى ذلك في كتابه « إحصاء العلوم » الذي نشره الدكتور عثمان أمين • ويرى « مولك » و « فارمر » أن هذا الكتاب يدل على أن الفارابي هو أول من وضع النواة

لدوائر المعارف في العالم ، وقد أيّد هذا القول ، الاستاذ مصطفى عبد الرزاق فقال : « فليس مجانباً للحق ، قول من يرى أن الفارابي هو أول من وضع دائرة معارف ، ولسنا نعرف من قبل الفارابي ، من قصد الى تدوين جملة المعارف الانسانية في زمنه ، موطأة مجملة ، يسهل تناولها على المتأدين ... » •

وكان هذا الكتاب محل عناية المؤلفين والعلماء في الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثر في نظريات تصنيف العلوم في القرون الوسطى •

والفارابي مخلص للحقيقة ، محباً لها ، ويدعو الى محبتها والاخلاص لها ، فقد جاء في كتابه : « ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » في الفصل الذي يبحث في (معرفة الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه على الفلسفة) ما يلي :

« وأما الحال التي يجب أن يكون عليها الرجل الذي يؤخذ عنه علم الفلسفة — فهي أن يكون في نفسه قد تقدّم ، وأصلح الأخلاق في نفسه الشهوانية ، كيما تكون شهوته للحق فقط ، لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة ، كيما يكون ذا إرادة صحيحة •

ولقد دفعت محبة الفارابي للحق ، واخلاصه للحقيقة ، الى أن يقول بإبطال صناعة التنجيم بحجج عقلية مشبعة بروح التهكم ، ويبيّن الفارابي ، أن من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون ، من أن بعض الكواكب تجلب السعادة ، وأن بعضها يجلب النحس ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق منا إلا الشك والارتياب •

ويذكر الفارابي كذلك السبيل التي يسلكها من أراد الفلسفة ، ويبين أن السبيل هي القصد الى الأعمال ، فالقصد الى الأعمال يكون بالعلم ، وذلك أن تمام العلم بالعمل •

وأما بلوغ الغاية بالعمل ، فيكون أولاً باصلاح الانسان نفسه ، ثم إصلاح غيره ، ممن في منزله أو مدينته •

ومن هنا يتجلى أن الفارابي كان يؤمن بالكفاح وحياة العمل ، ويدعو الى

عدم الانطواء ، والانعكاف ، وأن الانسان يجب أن لا يقف عند العلم والتحصيل النظري فهو يقول :

« إن للفيلسوف في هذا الكون رسالة تتجاوز العلم والتحصيل ، وهو الذي يحصل الفضائل النظرية أولاً ، ثم الفضائل العملية ببصيرة و يقينية » ♦

إن تحقيق رسالة الفيلسوف يخرج به الى حياة العمل والكفاح والاختلاط بالناس ، حتى يتمكن الفيلسوف من القيام بما عليه من تبعات وواجبات هي اصلاح الفرد والجماعة ، فالحياة علم وعمل ، وعقيدة وجهاد ، ولا بد للفيلسوف من أن يمتاز في عمله ، كما يمتاز في علمه ، ولهذا لا عجب إذا رأيناه أهمية كبرى لعلم الأخلاق وعلم السياسة ، وقد تجلّى ذلك في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) الذي تحدثنا عنه آنفاً ♦

وبعد أن استعرضنا صورة (تنبض بالحياة) من صور النشاط العقلي (الفلسفي) عند المسلمين بالحديث عن فيلسوفنا الفذّ ، نأتي على ختام هذا البحث باستكمال نظرة الاسلام الى النشاط العقلي ♦

نظرة الاسلام (الشاملة) الى قاعية العقل ونشاطه :

إذا كان من شأن المنهج الاسلامي ، أن يرشد العقل ، ويقوّم الفكر ، ويسير به في الطريق المستقيم ، فإن الاسلام أتبع ذلك بمبادئ قيّمة ، من شأنها أن تصل بالناس الى طريق الحق والهدى والخير والسلام ♦

اولاً : إن الناس في الفهم والتفكير وإدراك حقائق الأشياء لن يكونوا متماثلين ولا متشابهين ، لأن الناس على درجات مختلفة ، ومراتب متباينة ، فهناك فريق من الناس ، قد لا تهيم له حالاته والظروف المحيطة به ، إلا شذرات من المعرفة ، وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق ، أو حصرتة التربية في دائرة ضيقة من المرئيات ، وهناك من سجنته الخرافات والأساطير ، لهذا طالب الاسلام جميع المستويات الانسانية ، بالنظر والتأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض ، ليصل الانسان الى الايمان بالله بحركة الفكر (ارتقاء من

الواقع الى المثل الأعلى — ومن النظر بالأكوان الى الايمان بالمكوّن) •

ثانياً : لم يكتف الاسلام بتوجيه الناس الى النظر والتفكير والتدبّر ، بل استنهض العقول ووجه الأفهام وأيقظ الحواس ، ونبّه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية ، بمثل قوله تعالى :

● « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • إن في ذلك لآيات لأولي النهي •
إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون •
إنما يتذكر أولوا الألباب • وفي الأرض آيات للموقنين • وفي أنفسكم
أفلا تبصرون • سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
أنه الحق •• » •

● « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي
تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا
به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ،
والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون • » •

وهكذا نرى أن الاسلام (كرسالة علمية — تربوية) حرص على طهارة
النفس ، واعتدال النظر ، واستقامة التفكير ، ليكون مراد الله (حكمته ، رحمته ،
عدالته) واضحاً في الذهن ، مشرقاً في القلب والضمير ، حافزاً للسير في فلك العمل
الصالح الذي تبنى به الحياة السعيدة •

وطريق الفكر الصحيح قد حدده الاسلام (بالقرآن والسنة) فيما يتعلق
بالقضايا الأساسية والاعتقادية في حياة الناس ، أما ما سوى ذلك ، فانه يمكن أن
يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والخبرة ، والنشاط العقلي (الذي يزن كل
معطيات الحس) •

ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الطريق السويّ بقوله تعالى :

● « ولا تَقْفُ (أي تتبع) ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ،

كل أولئك كان عنه مسؤولاً • « الاسراء : ٣٦

وهذه الآية الكريمة (تنهى عن اتباع) ما لم يقم به علم ، يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية (وهي طرق الاستدلال المعهودة) حتى يكون نشاط المسلم العقلي (وهندسة سلوكه) قائماً على أساس علمي تربوي صحيح •

شمس العرب المسلمين تشرق على العالم

« شهادة من الدكتور أنور حاتم لأتمته »

إذا كانت الكاتبة الألمانية « زيغريد هونكه » قد شهدت للعرب (المسلمين) بأنهم ، هم الذين حرروا أوربا وعلموها وهذبوها ، وألفت في ذلك كتابها الجليل (شمس العرب تسطع على الغرب) ، فمن حق أديب عالم مثل الدكتور أنور حاتم (الاستاذ في جامعة فريبورغ في سويسرا) ، أن يؤدي لأتمته العربية مثل هذه الشهادة وأكثر •

الحضارة اليونانية جاءت من الشرق :

ولد الفكر الأوربي في جزيرة اليونان ، والعلماء مجمعون على القول ، ان هذا الفكر قد انطلق من الديانات والبحوث والتأملات التي نشأت في الشرق الأدنى ، واعترف اليونان بذلك منذ عهد (هيرودوت) المؤرخ ، فالحكماء السبعة الذين سبقوا سقراط ، ومهدوا له السبيل ، من أصل شرقي •

وعن كهّان ومفكري (مصر ، وكلدة ، وآشور) وبلاد كنعان ، أخذ (تاليس) — وهو من أصل فينيقي — مبادئ علم الفلك ، ونظراته الوحشية الى الكون (٦٢٣) ق م •

وعلى كهّان مصر وكلدة وآشور ، وفينيقيا ، تتلمذ (فيثاغورس) صاحب النظرية القائلة ، بأن كل شيء يعود الى العدد ، وهو واضع قواعد الرياضيات والفيزياء والموسيقى ، وقد سيطرت اتجاهاته على الغرب أجيالا عديدة ، ونشأ عليها سقراط وأفلاطون •

وهكذا ، أنجب الشرق الأدنى أوروبا قديماً ، وإن ما سمّاه (أرست رينان) معجزة اليونان ، تتلخص بقيام اليونان بتدوين ما ابتدعته عبقریات الشرق الأدنى من الآثار ، بشكل منسّق

ثم انتقلت أوروبا من اليونان إلى روما (التي جاء سكانها وسكان شبه الجزيرة الايطالية — هم أيضاً — من أقطارنا) ، إلا أن الرومان سلکوا في بادئ الأمر سبيلا خاصة بهم ، فاستعاضوا عن الفردية (بتأليه الدولة) وآثروا ذبح شخصية الفرد ، تحقيقاً لمجد الحكم ، وبنوا المبادئ الحقوقية على المظاهر الخارجية والشکليات بدلا من اعتبار الاعمال بالنیات .

واشتهرت أوروبا الأولى (اليونان والرومان) بعبقریات من أبناء بلادنا ، كان لهم أبلغ الأثر في تكوين هذه القارة الجديدة (في ذلك الزمن) وتطوير حضارتها ، ومنهم (أبو لودور — الدمشقي) أعظم المهندسين المعماريين في الامبراطورية الرومانية ، وكان أول من شيّد جسراً على (الدانوب) وله الفضل بتخطيط أجمل ساحة عرفتها روما ، وعمود الامبراطور تراجان المرمري ، الذي قلّده نابوليون في ساحة فاندوم في باريس .

البرابرة يغزون أوروبا ويدمرونها والمسلمون العرب ينقذونها ويعمرونها

لم يتح لهذا الازدهار الفكري أن يعيش طويلا ، إذ جاءت قبائل البربر من أوروبا الوسطى ، وأوروبا الشرقية والشمالية ، واجتاحت هذه القارة الفتية ، وهدمت معالم الحضارة فيها ، وفي تلك المرحلة من التاريخ ، شاءت العناية الإلهية أن ينقذ العرب العالم من الدمار والفساد والاضمحلال ، فظهر الاسلام داعياً الى التوحيد والعدل والاخاء ، والسلم والعلم والمساواة ، أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنکر ، محققاً أسمى ما يصبو إليه الانسان من كرامة وعزة وكمال وسعادة .

وجاء الاسلام الى أوروبا حاملاً شعلة الحق والحرية ، فحطّم فيها الظلم

والأصنام ، وقضى على الخرافات والأوهام ، حيث وجدت ، وبسط لواء الأمن ،
وشيد المسلمون العرب في أوروبا حضارة ، ستفاخر بها الإنسانية ، ما دام الانسان
على الأرض •

وان نصر المسلمين ، والسرعة التي تمّت بها فتوحاتهم ، قد ضمنا للقيم
الانسانية العليا ، البقاء ، وشيّد الاسلام أوروبا من جديد، بعد أن دمرها البرابرة،
وفرض عليها حرمة حقوق الانسان ، وغيّر وجه القارّة بل وجه العالم أجمع ،
ودفع بعجلة الإنسانية ، دفعة جبارة الى الأمام •

● المسلمون العرب كانوا أرقى شعوب أوروبا، وحملوا اليها كل ألوان الحضارة والسعادة:
كان العرب المسلمون هم أرقى عنصر في أوروبا ، وكانت بلادهم الأوربية
(الأندلس) أكثر المناطق حيوية وعلماً وتقدماً وازدهاراً ، وشأناً في الدنيا ،
وكان سائر الأوروبيين ينظرون اليهم نظرة التلميذ الى معلمه ، وكان العرب هم
القدوة للأوروبيين ، وكانت الثقافة الأوربية بأسمى مظاهرها تنمو في ظلال القرآن ،
وكان العرب مثالا لمستوى الحياة الرفيع •

والمعلوم أن (قرطبة) كانت أعظم المدن الأوربية ، مساحة وسكاناً ، ويروي
المؤرخون ، أن قرطبة كانت تضم نصف مليون نسمة ، ومائتي ألف بيت ، وستين
ألف قصر ، وستمائة جامع ، وسبعمائة صرحٌ للسباحة والرياضية ، وسبعين مكتبة
عامة ، منها المكتبة الملكية الكبرى ، الذي كانت تملك نيّفاً وأربعمائة ألف
مخطوط ، وكانت شوارع قرطبة تشع ليلاً بالأنوار ، وكان ذلك (قبل سبعمائة
سنة) من تفكير سائر الغربيين باضاعة مدنها ، وحدّد العرب فنون عمران المدن ،
وإنشاء الحدائق ، وتخطيط الشوارع ، وكان العرب هم الذين نشروا في أوروبا
مبادئ حفظ الصحة ، وعلموا الغرب بناء المستشفيات وإدارتها وتنظيمها ،
ونهبوا بالجراحة ، وكان كبار الغربيين النصارى عندما يحتاجون إلى طبيب أو
جراح ماهر يلجأون الى العرب ، وان أساليب العرب في تدريس الطب غدت قاعدة
للطب الحديث ، وبفضلهم اشتهرت مدارس (بادوفا) و (سالرنو) وبولونيا
— في ايطاليا — و (مونبيلييه) في فرنسا •

● لولا المسلمين ما عرفت أوروبا النظام :

ووضع المسلمون العرب في أوروبا قواعد للإدارة الحديثة ، قائمة على المساواة بين المواطنين ، وتقدير العامل في الدولة على أساس كفاءته وإنتاجه ، مهما كان أصله أو وضعه الاجتماعي ، وعلى ضوء الشريعة السمحاء ، حطّموا الطبقية والعنصرية ، وكانت إدارتهم تجمع بين أبناء العرب الأصليين وبين الصقليين (أي الروسي أو مواطن أوروبا الشرقية) والصقلي والاسباني والبرتغالي والرومي ، على السواء في خدمة الشعب تحت راية الاسلام ، تحقيقاً للعدل الشامل •

وكان العرب منذ ذلك الزمن يعتبرون التداوي هو حق من حقوق الانسان والمواطن ، فقصوا بذلك في بلادهم على الأوبئة التي كانت تفتك فتكاً في أقطار المسيحيين •

وكان العرب منذ ذلك الزمن يعتبرون أن توفير العلم للجميع دون استثناء هو واجب من واجبات الدولة ، وتحصيل العلم هو فرض على المواطن عملاً بأحكام الاسلام ، فكانوا أول شعب في التاريخ قضى على الأمية في أوروبا المسلمة ، كما اعترف لهم بهذا الفضل العظيم المستشرقون النصارى ، وكان العرب هم السابقين في تنظيم (دبلوماسية منفتحة - للعالم أجمع) وتنظيم القضاء والبريد والمواصلات والشرطة وجباية الأموال • وقال المستشرق (جاك ريسلر) في كتابه عن حضارة العرب :

« إن واردات الدولة في امارة قرطبة كانت تفوق وحدها واردات جميع أوروبا اللاتينية المسيحية • والمعلوم أن الدنانير الذهبية والدراهم الفضية العربية كانت خلال قرون ، أثبت العملات الأوروبية وأقواها ، وكانت تطلب وتدّخر في شتى بلاد القارة - من البرتغال إلى البلاد الاسكندنافية » •

ومن البديهي التذكير بما للعرب من أثر بليغ في نهضة الزراعة الأوروبية ، إذ كانوا معلمين ومجدّدين ومبتكرين في انشاء شبكات الريّ ، والمزارع النموذجية ، ورفع مستوى الفلاحين وتربية المواشي وادخال أنواع جديدة من

الفاكهة والخضار الى أوروبا ، ومنها الكرمة (العنب) ، والزيتون والنخيل
والحمضيات والسفرجل والهلينون •

ومن البديهي التذكير بما كان للعرب من أثر بالنهوض في الصناعة الأوربية ،
بما في ذلك استغلال المعادن وصنعها ، وكلّ يعلم مثلاً ، ما بلغته من شهرة (دروع
قرطبة) و (سيوف طليطلة) وصناعة الجلود التي لم يزل المغرب العربي يمتاز بها •
ونقل العرب من بلادهم الشرقية إلى البلاد الاوربية ، تربية دود القز ،
وفنون النسج ، ونبغوا في صناعة الحرير والقطن والمخمل ، والأنسجة الجميلة ،
والتي لم تزل حتى الآن تحمل أسماء المدن العربية الكبرى ، وأدخل العرب الى
أوروبا صناعة الورق ، وصناعة الأسلحة •

ومن البديهي أيضاً التذكير بما للعرب من أثر بليغ على التجارة الأوربية
والملاحة ، إذ غدا البحر المتوسط بعد الفتح الاسلامي ، بحيرة عربية كما قيل ،
وكانت التجارة في حوض هذا البحر وفي العالم بيدهم ، ويبد عملاتهم من أبناء
(البندقية - وجنوة) ، وكانت المرافئ المتوسطية وخطوط المواصلات خاضعة
لإشراف العرب ، من جبل طارق حتى بحر الصين •

● والعرب كانوا رواد الثقافة والأدب في الغرب ، وكانت لغتهم لغة العلم والحضارة :

وكان العرب رواد الأدب وعمدته في أوروبا ، إذ كان إنتاجهم الشعري
والخيالي هو الانتاج الفكري الأول والأسبق في أوروبا ، وكان الكتاب والفلسفة
والمفكرون العرب ، يدرسون في مختلف جامعات أوروبا المسيحية ، وعندهم يؤخذ
الإلهام ، والأفكار وفنون الشعر وموضوعاته ، وكان رجال الفكر العرب أمثال :
ابن سينا ، وابن خلدون ، وابن الهيثم والفارابي والخوارزمي ، والبيروني والرازي
يعتبرون أقطاب الثقافة الأوربية •

والمعلوم أن اللغة العربية كانت لغة العلم والأدب الرفيع والديبلوماسية ،
وكان كل من يريد أن يطلع على أحدث المخترعات وأجمل المصنفات ، يضطر الى
تعلم اللغة العربية •

● حركة الترجمة عن العربية في أوروبا :

ولا بد هنا من التنويه بحركتين لترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية (التي كانت لغة أوروبا المسيحية) قام بها الغرييون والنصارى ، وقد تزعم الواحدة منهما الملك الاسباني العالم (الفونس الحكيم) ١٢٥٢ - ١٢٨٤ ، وكان كريماً جداً على العلماء والأدباء ، وقد أنفق ثروة طائلة في سبيل تعميم التراث العربي الاسلامي ، ونشره في أوروبا . وتولى الحركة الثانية الايطالي (جيراردي كريمون) الذي جاء من وطنه (لومبارديا) إلى الأندلس ، لينهل من العلوم والفنون (من مصدرها الصافي) ، وتعلم العربية ، وشرع ينقل الى لغات الغرب آثار العرب النفيسة الخالدة ، وانضم اليه المترجمون الاسبان : (دومينيك غودسلفي) ومارك الطليطلي ، وجان الاشيلي ، والبريطاني (روبر دو شيستر) والألماني (هرمان دوريشنو) والصقلي (هرمان دلمان) . وبذلك حطمت الثقافة العربية الاسلامية الحدود ، وقضت على التعصب والفرقة ، ووحدت بين جميع القوميات في أوروبا ، فكانت نبراساً لوحدة أوربية فكرية مثلى .

ويعتقد علماء غرييون منصفون ، أن أوروبا وصلت الى ما وصلت اليه من رقيّ فكري ، وتطور صاعد بفضل العرب ، في العصر الاسلامي الزاهر (في القرون الوسطى) .

لقد بدأت سيطرت أوروبا على العالم انطلاقةً من عصر النهضة (القرن السادس عشر) ، ويدفع العدل الى القول أن أوروبا مدينة للمسلمين العرب بالأسس التي قامت عليها نهضتها المذكورة .

ومن هذه الأسس ، مفهوم معتدل للحياة ، يستنكر المغالاة بالتشّيف ، والاسراف بالزهد واحتقار الحسد ، إذ جاء في القرآن الكريم :

● « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك » ●

● « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ... قل إنما حرم

ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ... » *

يقول الاستاذ (كريستوفر داوس) :

« عن العرب أخذت التقاليد العلمية في أوروبا الحديثة ، وقد أسهم العرب في توسيع آفاق الأوربيين توسيعاً لم يسبق له مثيل ، إذ بفضلهم انتقلت الى أوروبا حضارات الصين والهند والفرس ، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق الى أوروبا ، لتكون شاهدة بما للإسلام من (عظمة علمية تربوية) وفضل على الانسان والانسانية » *

وخلق العرب في نفوس الأوربيين ، الوعي السياحي ، والملاحة عبر البحار ، والتأمل في الأفلاك ، وعلموهم استعمال البوصلة وإنشاء المراصد ، ولولا العرب لما كان (كبلر) (وكوبرنيك) ، بل ، لما كان (كولومبس) و(فاسكو دي غاما)^(١) .



(١) مقال للدكتور - أنور حاتم - أستاذ بجامعة فريبورغ في سويسرا ، عن المجلة العربية (الرياضي) العدد الافتتاحي الاول آب ١٩٧٥ ص ١٣٥ وما بعدها .

خاتمة

مقابلة متممة بين الدين والفلسفة والعلم

لقد بدأنا بحثنا الأساسي بعرض تمهيدي (تعريفاً بكتاب الله وسنة رسول الله) كقوة دافعة للحركة الحضارية في الاسلام ، انتهى بوضع الاطار التربوي لشخصية الرسول ﷺ ، مشفوعاً بمنتخبات ، من أقوال المنصفين من الغرب ، في عظمة الرسول الكريم ﷺ .

وتحدثنا عن الآثار الحضارية في شتى العلوم (الطبية، والرياضية، والطبيعية، والاجتماعية، والعقلية) مستعرضين خلالها أبطال الفكر وأعلام الحضارة الاسلامية، أمثال : ابن سينا ، وابن الهيثم ، وابن خلدون ، والرازي والبيروني والخوارزمي والفارابي وغيرهم الذين جمعوا الى النشاط العقلي والبحث العلمي ، الايمان الصادق ، والوعي الاسلامي الصحيح ، فكانوا بحق من مفاخر الحضارة العربية الاسلامية على مرّ الدهور .

وتأكيداً لهذه المعاني ، نختم بحثنا الأساسي (أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية) بمقابلة متممة ، بين الدين والعلم والفلسفة ، ليعلم كل منصف أن الاسلام كان (ولا يزال) دين الحضارة الانسانية علماً وعملاً وأخلاقاً ، ينطوي على مقومات (علمية - تربوية) تؤهله لقيادة الركب الحضاري ، ومسيرة الحياة الانسانية .

فالاسلام (كعنصر علمي) يكشف للانسان قانون الحياة وسنة الوجود^(١).

(١) العلم الحقيقي النافع ، ما نفذ الى شعور الانسان ، وحرّك طاقته للعمل (بما علم) بالجهود التربوية المخلصة ، التي نبني الحياة السعيدة بالعمل الصالح .

والاسلام (كعنصر تربوي)^(١) يوجه الانسان نحو غاية وجوده ، ويعمل على تكوين الانسجام بين واقع الانسان ومثله الأعلى (جهاداً للنفس والهوى) حتى يكون هواه (سلوكه في الحياة) منسجماً مع منهاج الله •

والاسلام (كعنصر قيادة وتوجيه) ينظم فاعليات الانسان (فرداً وجماعة) (في مجالات التشريع والتنفيذ والقضاء) ، ويعمل على انسجامها وتعاونها (انطلاقاً من الثقة والايمان بالله) •

الاسلام — وحي إلهي — موصوف بالغمضة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، يضمن تألف القلوب ، ووحدة الرأي والهدف ، يعمل على تحقيق العدالة ، ويستهدف شمول الرحمة والسعادة •

ان الاسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكاً) قوة دافعة للحركة الحضارية ، ملاك السعادة للانسان والانسانية ، يسير بركب الحياة نحو التطور والازدهار والتكامل •

المقابلة بين الدين والعلم والفلسفة (ما هي الحكمة الشاملة التي تجمع بين الدين والعلم والفلسفة) ؟ :

قد يخال لطلاب العلم ، الذين لم يرتشفوا منه إلا بأطراف الشفاء ، أن اختلافاً وتبايناً واقعان لا محالة ، بين الدين والعلم ، ولا سيما العلم الحديث ، على أن هذا الرأي لا يقرّه العلماء ، الذين ارتووا من مناهل العلم الصافية ، ولم يتناولوه بأطراف الشفاء ، وواقع الأمر أنه لاختلاف (في المؤدّي) بين العلم والدين •

(١) تهدف ربية الاسلام ، الى تنمية الشخصية المعنوية للانسان ، في نطاق الفكر ومجال الروح ، (فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه) لئلا ينجبه نحو غاية وجوده ، بقوة العلم ويقظة الايمان ، فهي تربط العاقل (مسع الرغبات — ومطلق السلوك الانساني) بحب الله ورسوله ، كما تربط العقل والفكر بمناجاة الله ، حتى تكون ارادة المؤمن (سلوكه في الحياه) ، على مقتضى حكمة الله ورحمته وعدالته •
أما ثمرة الربية الاسلامية ، فهي قوة في العلم ، ويقظة في الايمان ، ووضوح لمراد الله (في الدمن) واشراؤه (في القلب والصير) •

بعبارة عن هذه المعاني ، هذا الأثر الانعكاسي المتبادل ، بين الايمان (كثقة بين الانسان وخالقه) والوعي الاجتماعي (كثقة متبادلة بين المؤمن وإخوانه) كما نشهد ذلك بالتفصيل — باذن الله — في مقابلتنا الممعة بين العلم والدين والفلسفة •

● يقول العالم الاجتماعي الكبير « اوغست كونت » :

« إن العلم الحقيقي لا يمكن أن يؤدي الى القول بالإلحاد ، ولا بالمادية البحتة ، لأنه لا ينكر النفس ولا الله ، ولكنه يجهلها » .

ثم إن المنطق العلمي الصحيح ، يأمر أهله بالألاعاد ما يجهلون من الحقائق ، التي ربما تنكشف لهم في المستقبل ، فيسلّموا بها ، وإن لم تتناولها تجاربهم الحسية .

● يقول العلامة « كرتسون » مدرّس الفلسفة في جامعة ليون ، إن العلم في مجموعه ، لا يعطينا إلا معارف مبهمة للغاية ، (وذلك من جهة العلل الخفية ، التي لا تتعلق بها تجاربه) .

● ويقول العلامة « وليم جيمس » مؤسس فلسفة الذرائع (براجماتيزم) ، إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد ، هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية ، محاط بعالم أوسع منه ، من نوع آخر ، لم يدرك خواصه المكونة الى اليوم .

● أما العالم الرياضي « اينشتاين » فيقول : إن الايمان هو أقوى وأنبّل البحوث العلمية .

بعد هذه المقدمة البسيطة (وقبل أن نستهل المقابلة ، بين الدين والعلم والفلسفة) ، جدير بنا أن نفتعرض التعريف الموجز لكل هذه المعاني (الدين – الفلسفة – العلم) .

١ – معنى الدين :

تستعمل كلمة (الدين) في اللغة العربية ، بمعنى الخضوع والانقياد ، نقول دان له ، أي أطاعه وخضع له ، والدين لله – أي الحكم لله ، ونقول (دان به) ودان بالشيء : أي اتخذته ديناً ومذهباً .

ومادة الكلمة ، تدل على الخضوع والانقياد ، وهي تشير الى العلاقة بين طرفين ، يعظم أحدهما الآخر ويخضع له ، وينقاد لأوامره وأحكامه .

ويختلف التعريف الاصطلاحي للدين بين علماء كل دين ، وذلك لأن كل عالم يعرف الدين بطريقة تتناسب مع دينه ، وطبيعة نظراته لذلك الدين ، ومن هنا كان تعريف الدين مختلفاً كل الاختلاف •

أما العلماء المسلمون ، يعرفون الدين بأنه : « وضع إلهي ، سائق لذوي العقول السليمة ، باختيارهم ، الى الصلاح والفلاح في المال » •

وهذا التعريف يشير الى ذلك الوضع الذي يرشد الناس الى الاعتقاد الصحيح ، والسلوك الحسن ، والمعاملة المستقيمة (بحيث يؤدي إلى تنظيم حياة الانسان - من حيث صلته بخالقه - ومن حيث صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه) •
الدين - على العموم - دعوة الى الحياة الكريمة ، للانسان والانسانية •
قال تعالى :

● « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول ، إذا دعاكم لما يحييكم • »
سورة الأنفال : ٢٤

● « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين • » سورة الأنبياء : ١٠٧
الدين دعوة ، الى العلم النافع ، والعمل المثمر ، والخلق الكريم ، وهي المنطلقات الطبيعية ، التي تسير بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل • قال تعالى :
● « اقرأ باسم ربك الذي خلق ^(١) » العلم في الاسلام (موجه بتوجيه الله)
● « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ^(٢) » العمل في الاسلام (مقرون بالايان - بعدالة الله) •

● « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ^(٣) » •
● « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ^(٤) » •
● « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ^(٥) » •

(ثمرة العقيدة الصحيحة)
الخلق في الاسلام

(٢) التوبة : ١٠٦

(٤) الاسراء : ٣٣

(١) سورة العلق : ١

(٣) التوبة : ١١٩

(٥) البقرة : ١٧٢

٢ - معنى الفلسفة :

الفلسفة (في أصلها اليوناني) تقابل الحكمة ^(١) (أو البحث عن الحقيقة)
قال تعالى :

● « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ،
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » ^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها فهو أحق
بها » . رواه ابن ماجه .

والفلسفة - عند الفارابي - إثارة الحكمة .

والفلسفة - عند ابن خلدون - القاعدة التي يهتدي بها العقل الى التمييز
بين الحق والباطل ، ويسمي هذه القاعدة (المنطق) وثمرته شحذ الذهن في ترتيب
الأدلة ، لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين .

والفلسفة (على العموم) علم يهدف الى اكتشاف قوانين العقل المنظمة
(لنشاطه) توصلا الى المعرفة الصحيحة .

٣ - معنى العلم (ويقصد به العلم التجريبي) :

هو ناحية تأملية ، يراها الناظر المدقق ، كأنها نزعة من نزعات الدين ،
(ممهّدة له - وباعثة عليه) ، وذلك حينما يدفع العالم عقله الى البحث الدائب ،
لاستطلاع ما وراء تجاربه (العلمية - التطبيقية) من أسرار ونواميس ، تعلو على
متناول الحسّ المباشر ، ويفعل ذلك بقصد الوصول إلى اليقين العلمي (والألفة
العقلية) التي تربط بين الأسباب ومسبباتها (قانون السببية) .

بعد أن استعرضنا التعريف الموجز ، لكل من الدين والفلسفة والعلم ، وقبل
أن نستهل مقابلتنا بين هذه المعاني ، وإذا اعتبرنا (مبدئياً) ، أن الفلسفة زاوية

(١) الحكمة (في الأصل) معرّف الأشياء بحقائقها (بأسبابها ونوائجها) والحكمة (في الواقع)
الوصول الى الفأة ، إصافة الهدف في القول والعمل ، وحكمة القانون (أسبابه الموجبه) ومن الحكمة
العملية ، (وضع الشخص الملائم - في المكان المناسب) .

(٢) البقرة . ٢٦٩

خاصة من زوايا العلم ، فستقابل بين العلم والدين (في المنطلق) لنعود في نهاية المطاف الى الفلسفة ، فندخلها في الاطار العام للمقابلة استكمالا للمعنى المقصود من ذلك .

● بين الدين والعلم :

ما كان للعلم الصحيح أن يعاند الدين ، أو يتنكر له ، أو يحكم عليه (فيحكم على شيء ليس من مفهوم بحثه) ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته ، التجريبية الحسية .

وما كان للعلم الصحيح أن يخرج عن وظيفته (أو يخرج عن دائرة اختصاصه) وهي مجرد الاستقراء والملاحظة ، للظواهر الطبيعية ، ولا يقول بالنفي والاثبات ، لما يجله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية ، وانما يعتبر الدين (الاسلام) صديقاً للعلم ، بما فيه من نصوص تبث على طلب العلم والتمرس به . قال تعالى :

● « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (١) .

والاسلام - يهيب بالانسان أن يحرّك مداركه وطاقاته ، ليمارس نشاطه العقلي ، في اكتشاف حقائق الكون مستدلاً بالمكون على المكوّن ، قال تعالى :

● « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . » الغاشية: ١٧-٢٠

● « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » البقرة : ١٦٤

والاسلام يضع الأسس المنطقية (كمنطلقات) لفاعلية العقل ، الهادية للإيمان بالله في مثل قنوله تعالى :

(١) سورة المجادلة : ١١ .

- « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم + » سورة الملك : ٢٢
- « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون + » سورة البقرة : ٤٤
- « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون + وخلق الله السموات والأرض بالحق (أي على أساس العدل) ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » (١) .

والنتيجة المنطقية - أنه لا خلاف في الجوهر والموضوع ، في نظر العالم المحقق ، والمتدين المخلص ، بين الوحي والعلم ، فكأن العلم بداية ومنطلق للدين ، والدين نهاية العلم الصحيح ، فهل يجمع بينهما الهدف المشترك ؟

بين غاية الاسلام (٢) وهدف العلم :

يهدف الاسلام والعلم الى سعادة الانسان ، عن طريق كشف أسرار الله ، التي أودعها الكائنات ، ويمثل المعتقد الديني القوة المحركة (الدافعة) بينما يمثل العلم عنصر الإرادة والمنطلق .

(١) سورة الحاثية : ٢٢ .

(٢) الاسلام رسالة (علمية - تربوية) رسالة الرحمة والسعادة للانسان والانسانية ، انها شريعة الله ، ومنهاجه في الحياة ، ارضاه الله لساده المؤمنين ، بمنلون بسلوكهم حكمه الله ورحمته وعداله ، حين يفهمون عن الله مراده ، ويعملون بطاعته .

الاسلام يعرف بالخالق العظيم ، ونوجيه تربوي نحو صراطه المستقيم ، نحو قانونه في الحياة وسننه في الوجود . لقد أراد الله الحسة لنا حرة كريمة ، إخاء وتعاوناً ، وتنافساً شريفاً في سبيل الحاة الأفاضل ، وجعل الفقة والايمان به والاعتصام بهديه سبحانه ، نورا هاديا الى السعادة ، لمن اسمع رضوان الله . غاية الاسلام - تربية الانسان المؤمن (على حب الله - ونفع الآخرين) وتنظيم العلامات الاحساسية : على هدي الحكمة والرحمة والعدالة .

عنايه الاسلام أن تكون كلمة الله هي العليا ، رائده موجهة ، صابطة للسلوك ، ضمن نالف القلوب ، ووحده الرأي والهدف ، وشمول الرحمة والسعادة ، يمثل القوة المحركة للحضارة الاسانية ، ترقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل .

ولقد أعلن الدين غاية الانسان في الحياة (وهي كشف القانون الإلهي العادل — والانسجام مع مقتضاه) والتعاون على صعيد التنافس الشريف لبناء الحياة الأفضل •

وأن هذه الغاية النبيلة (كشف العدالة — والنظام العام الكوني للحياة) منطوية في أصل تكوين الانسان ، وكما قال تعالى :

● « سَبِّحْ اسم ربك الأعلى • الذي خلق فسوّى • والذي قدّر فهدى • »
سورة الأعلى : الآيات : ١ — ٣

● « يا أيها الانسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك • »
سورة الانفطار : ١٠

لقد أمر الله الانسان بالعدل — والعدل مطويّ في أصل فطرته ، وأساس تكوينه • (وتربية الاسلام عودة بالفرد الى صفاء الفطرة — وانطلاق بالمجتمع لبناء الحياة السعيدة) •

● « وعلمّ آدم الأسماء كلها ••••• » سورة البقرة : ٣٠
وهي أسماء أعلام الحقائق الكونية ، بأن جعله مستعداً لمعرفة خصائص الأشياء ، لينتفع بها • فعلى أساس العدالة الإلهية قامت الكائنات جميعاً (من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة) •
غاية الاسلام — تربية الانسان الفاضل ، واقامة الدولة الراشدة ، التي تحرس العقيدة ، وتنمي الوعي الاجتماعي ، وتسير مع الحياة الحضارية في تطورها وازدهارها وتكاملها •

لقد تجلّى لنا بوضوح (الهدف المشترك) بين العلم والدين ، ويمكن أن نصرّح بأن الخلاف بينهما (وهميّ) يكاد ينحصر في طبيعة المنهج والأسلوب •
فأسلوب العلم في بحثه ، حسّي تجريبي ، يؤيده الدين (في الأصل) وينمّيه (في الواقع) ومنهج العلم يدعو الى المعرفة الصحيحة ، وتنتهي مهمته لدى تكوين النظرية العلمية •

أما المنهج الديني فانه دعوة (لا إلى المعرفة الصحيحة فحسب) ولكنه دعوة الى الايمان والثقة بالله (واهب الحياة) والى إعلاء كلمته ، من خلال (فاعلية الفكر — ونشاط النفس) استدلالاً بالأكوان على المكوّن وبتصاريف الحياة ، على واهب الحياة •

الدين يستنفر كل طاقات الانسان لبناء الحياة الفاضلة (علماً وعملاً وأخلاقاً) وهو عنصر قيادة عليا يربط بين أفكار الانسان وعواطفه ، بين علمه وعمله ، وينسق (فاعلياته) وعلاقاته الفردية والاجتماعية ويضمن للحياة سيراً طبيعياً في طريق التطور والازدهار والتكامل •

الوحي الديني ، حقائق موضوعية ، أُلقيت في روع واحد من البشر ، امتاز عن غيره ، (بموهبة خاصة — واصطفاء إلهي) والله أعلم حيث يجعل رسالته ، امتاز الرسول بسمو مداركه ورقّة احساسه ، وباستعداد خاص ، يجعل قلبه (١) (جوهر كيانه الذاتي) (منبع الرغبات — منطلق السلوك الانساني) متصلاً بالملأ الأعلى ، لتلقّي وحي ربّه المنزل ، لارشاد الخلق — بإذن الله — الى حكمة الله ورحمته وعدالته ، عن طريق الحس والعقل المؤيدين بالوحي •

وقد أيّد الله الوحي والرسالة ، بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي ، حتى يذعن الفكر ، ويستسلم العقل البشري لوحي الله ، بلا مناقشة ، وعلى هذا الأساس نقول : إن الوحي موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، فهو ضمان (لوحدة الرأي — وتآلف القلوب) لصيانة الحكمة وحراسة العدالة وشمول الرحمة والمعاداة •

وحين ينمو (النشاط العقلي — والبحث العلمي) في ظلال الوحي الإلهي ، فسنقطف من شجرة التعاون بين العلم والدين أشهى الثمرات ، كما قال تعالى :

● « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنجنيته حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون • » سورة النحل ٩٧

(١) قال الله تعالى : ● « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله .. » البقرة ٩٧

● « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين .. » الشعراء ١٩٣-١٩٤

● « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض... » سورة الأعراف : ٩٦

ولئن كان (الدين) يمثل في الحياة (القلب النابض) فإن العلم الصحيح ، هو عقل الحياة المفكر ، والمهم هو فاعلية الدم بين القلب والدماغ ، المهم هو فاعلية الايمان والانسجام بين ارادة الانسان (سلوكه في الحياة) ومراد الله (شريعة الله) تعظيماً لأمر الله ، وطاعة لمنهاجه القويم ♦

المهم هو وجود التربية المثلى (المربّين الأكفاء ، العلماء الأمناء ورثة الأنبياء) حيث تربط بين واقع الانسان ومثله الأعلى ، ونوجه الانسان نحو غاية وجوده ♦ نعود الى موضوع المقابلة بين الدين والعلم فنقول : ان الدين يأتينا عن طريق الوحي ، وهو (كما أشرنا) حقائق موضوعية ، أُلقيت في روع واحد من البشر (يتمتع بامتيازات خاصة — بالاصطفاء الإلهي) ♦

وكذلك العلم الصحيح ونظرياته ، هي أيضا حقائق موضوعية ، كانت ثمرة نظر واستقراء وحصيلة استنتاج وتجربة ، أُلقيت في روع العلماء ، ممّن أدمنوا التفكير والتأمل ، ثم أدمنوا الاختبار التطبيقي ، وامعان النظر ، في وحدات الكائنات ونواميسها وعلاقتها ، بحثاً عن الصلة الواقعة بين بعضها البعض ، فتمّ لهم — عن طريق البحث في خواص الأشياء ومنافعها ، طلباً لتسخير قواها الكامنة فيها — ما أرادوا فقرّروها كنظريات علمية ، وتمّ لهم من ذلك (قواعد علمية) ، تؤيدها ما تكشفه عقول العلماء ، وأبحاثهم ، ثم يتركونها لخلفائهم وأعقابهم لاتمام بحثها ، والوصول الى النتائج المرجوة ، من خصائصها ومنافعها ♦

فالدين — يكاد يستوي هو والعلم — في مآثاهما المتوحد ، وهو الإلهام الإلهي ، والتعليم ، بالمعلومات الدينية ، أو النظريات العلمية التي يستنتجها العقل ، أو يقع عليها في أجواء الطبيعة ، الحسيّة أو العقلية ، ثم تركزت هذه المعلومات وطبّقت ، فأصبحت فروضاً وفنوناً شتّى ، يجمعها في عمومها اسم العلم ♦
وها نحن نرى أن مبعث الدين والعلم بل (والفلسفة أيضاً) مبعث واحد ،

هو الشخصية المعنوية للانسان ، وما استقر في فطرته من إلهام إلهي ، أو إدراك عقلي ، أو خبرات حسية ، وليس — على التحقيق — في العقيدة (بالوحي) ما يتنافى مع صريح (العلم) ، وخصوصاً في عصر تلاقت فيه التجربة الذرية بالخبرة الرياضية ، مع العلوم النفسية الحديثة ، كل ذلك دلّ على أن وراء الكون المنظور ، عجائب وغرائب (لا تنظر — ولا تحسّ) منها (الاشعاعات الذرية) فيما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر ، ومنها الكائنات الحية غير المنظورة (كالميكروبات — الجراثيم وغيرها) •

ومنها (الروح) أو قل (الحياة) ، التي يعجز علمنا الحاضر عن اكتناه سرّها ، ولا يعلم منها إلا ظاهرها ، قال تعالى :

● « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً • » الاسراء : ٨٥

لقد علّمتنا النظرية الذرية، أن كتلة المادة تبنى بالكهرباء (بالنواة والكهارب)، وقل إن شئت ، بالنور تبنى كتلة المادة ، وبالروح (وهي نور أيضاً — غير منظور) تظهر تصاريف الحياة، ألا يدل كل هذا على أنه يقع وراء المادة والنور (الذريّ — أو الروحي) والتطور الحيوي وجود عقل كليّ أرقى من عقولنا وله مدارك أسمى من مداركنا ، هو الوجود المنظم لهذا الكون (أعني وجود الله سبحانه) جعل هذه الحقائق كلها ، يتصل بعضها ببعض الآخر ، عن طريق منظور مباشر ، أو عن طريق غير منظور ، غير مباشر ، حرّك القلوب بنبضات الحياة ، أودع الحنان في قلوب الأمهات ، وهبنا السمع والبصر ، نوّر السموات والأرض بضياء الشمس ونور القمر ، أجرى الأنهار ، وأنبت لنا الثمار ، أسعدنا برواح الزهور ، وتغريد الطيور ، وهب لنا الحياة وما تزدهر به الحياة • قال تعالى :

● « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين • وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم

يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • « سورة الأنعام : الآيات : ٥٩ - ٦٠ •

● « إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحيّ من الميت ، ومخرج الميت من الحيّ ، ذلكم الله فأتى تؤفكون • فائق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم • وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون • وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون • وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حبّاً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنّات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون • وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون • بديع السموات والأرض ، أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم • ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل • لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير • « سورة الأنعام : الآيات : ٩٤ - ١٠٢

وختاماً لهذه المقابلة الممتعة (بين العلم والدين) سنشهد معاً ، كيف يحدث الاسلام تناغماً (أثراً انعكاسياً متبادلاً) بين الدين والحياة (بين الايمان الصادق - والوعي الاجتماعي الصحيح) حتى يكون أحدهما ، منمياً للآخر ، ويكون المؤمن لأخيه مفتاحاً لرحمة الله ، وعوناً على مرضات الله • قال تعالى :

● « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه - وبالوالدين إحساناً • « الاسراء: ٣٣

● « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله - وكونوا مع الصادقين • « التوبة : ١١٩

● « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول - إذا دعاكم لما يحييكم • «

الأنفال : ٢٤

ففي كل آية ، يمثل الشرط الاول - العقيدة والايان ، كثقة بين الانسان وخالقه • بينما يمثل الشرط الثاني - الوعي الاجتماعي كثقة متبادلة بين المؤمن واخوانه •

فالاسلام - اهتم بتنمية الايمان ، والوعي الاجتماعي ، على نفس المستوى (من الأهمية) ، وفوق ذلك تشهد (تناغماً) (أثراً انعكاسياً متبادلاً) بين هذين المعينين ، بحيث يغذي أحدهما الآخر ، قال تعالى :

- « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله (١) » •
- « ولكن الله آلف بينهم (٢) » •
- « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (٣) » •
- وقال رسول الله ﷺ : الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل (٤) •
- فالإخاء ثمرة الايمان (إنما المؤمنون إخوة - ولكن الله آلف بينهم - فأصبحتم بنعمته إخواناً) •

والايمان ينمو بالوعي الاجتماعي ، كما قال ﷺ :

- (الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) (٥) •
- (وجبت محبة الله للمتحابين في الله) •
- (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام فيما بينكم) •
- ولنذكر بهذه المناسبة عبارة (التحية الاسلامية) (السلام عليكم ورحمة الله) كيف ختم الله بها العبادة (الصلاة) وجعلها في نفس الوقت شعاراً للحب المتبادل بين المؤمنين ، ومنطلقاً لتوطيد العلاقات الاجتماعية الطيبة •

هكذا يحدث الاسلام تناغماً (أثراً انعكاسياً متبادلاً) بين الايمان الصادق

(٣) آل عمران : ١٠٣

(٤) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة •

(١) سورة الحجرات : ١٠

(٢) الأنفال : ٦٣

(٥) رواه الامام مسلم عن أبي هريرة •

والوعي الاجتماعي الصحيح ، حتى يكون أحدهما منمياً للآخر ، ويكون المؤمن
لأخيه مفتاحاً لرحمة الله ، عوناً على مرضات الله •

وحرصاً على جمال هذه المقابلة (بين العلم والدين) نحاول أن نضعها ضمن
إطار من الأزهار (باقة من الآيات الشعرية) في صورة حوار لطيف ، حرّكه
خيال شاعر مؤمن :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
العلم قال (أنا) أحرزت غايته والعقل قال (أنا) الرحمن بي عرفا
فأفصح العقل إفصاحاً وقال له بأيّن الله في فرقائه اتّصفا^(١)
فبان للعقل أن العلم سيّده فقبّل العقل رأس العلم وانصرفا
هذا حوار لطيف قاده أدب لولا المربّي لكان الكلّ منحرفا
أما الشخصية المعنوية ، فهي غير منظورة ، وانما تجسّدت (التربية الدينية)
ناطقة على لسان كل من طرفي الحوار ، بقبول التحكيم إلى شرع الله

- ففي البيت الأول : يصطنع شاعرنا الخلاف بين طرفي الحوار •
- وفي البيت الثاني : تتجلى نزعة الأنانية في كلّ منهما (العلم قال أنا -
والعقل قال أنا) •
- وفي البيت الثالث : أحال (العلم) موضوع الخلاف للتحكيم •
- وفي البيت الرابع : يعلن العقل - راضياً - قبوله بالرأي (العلمي -
التربوي) مقبلاً رأس العلم اعترافاً بالفضل والقيادة •
- وفي البيت الخامس : تظهر الغاية من الحوار ، هو الخضوع المشترك
(لكلمة الله العليا) بفضل الأدب التربوي الذي تحلّى
به كل من طرفي الحوار ، ولولا ذلك لتغلّبت نزعات
الأنانية والانحراف ، التي من ورائها استحكام الخلاف
وضياع المصالح •

(١) أن الله تعالى موصوف (بالقرآن الكريم) (بالعليم - الحكيم) ، ولم يوصف سبحانه (بالعاقل)
وهي حجة العلم في مواجهة العقل ، والتي أدت إلى إنهاء الخلاف المصطنع •

إن عنصر (التربية الدينية) ضروري في رقيّ المجتمعات، يضمن نصرة الحق ، وتآلف القلوب ووحدة الرأي ، وشمول الرحمة والسعادة ، في ظلال الايمان الصادق والوعي الاسلامي الصحيح •
قال تعالى :

● « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (١) » •
المؤمن — بعدالة الله — يحتكم الى شرع الله ومنهاجه في الحياة ، في مواجهة أزماته وحلّ مشاكله ، ولا يستشعر الحرج — من حيث النتيجة — رضي بحكم الله ، ولو حكم الاسلام عليه ، وإلاّ اتهم من جهة ايمانه وثقته بالله ، أليس ذلك بدليل واضح ، يشير الى حرص الاسلام على تكوين الانسجام بين أفكار المؤمن وعواطفه (بين عمل القلب وعمل العقل) ، حتى تكون شخصيته المعنوية متزنة ، في صياغة السلوك السويّ •

● قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به (٢) » •

أما حوارنا اللطيف ، فقد حرّكه خيال شاعر مؤمن ، آمن بأن سرّ العظمة في الاسلام ، يكمن وراء تربيته المثلى التي اقتبسها الصحابة الكرام ، من المربي الأعظم صلى الله عليه وسلم ، صحبة الحب والاجلال والتكريم ، تربية فريدة تؤدّب المؤمن على حب الله — والانقياد لحكمه العادل الرحيم — وتخرجه (راضياً) من حدود أنايته المفرطة واينار مصلحته الشخصية ، إلى رحاب رضوان الله ، والخضوع للقاعدة التربوية العامة في السلوك ، لا خضوع العقل فحسب ، وانما خضوع العقل والقلب معاً ، خضوع الفطرة الصافية ، رضى بحكم الله •
هذا حوار لطيف قاده أدب لولا المربي لكان الكلّ منحرفاً
من هذه المقابلة الممتعة (بين الدين والفلسفة والعلم) تجلت لنا عظمة الاسلام

(١) سورة النساء : الآية : ٦٥

(٢) أخرجه الطبراني ، وقال النووي حديث حسن صحيح •

(في تربيته الفاضلة) حيث مثل الدين (القلب النابض) بينما مثل العلم – والفلسفة صورة من النشاط العلمي – عقل الحياة المفكر، أما الشخصية المعنوية للانسان المذهب (الذي روّضته تربية الاسلام على قبول الحق) فهي هذا (التوازن والانسجام) بين أفكار الانسان وعواطفه (في الأصل) وانسجامه مع منهاج الوحي الإلهي (في الواقع) •

لقد ظهر لنا جمال الاسلام بمقوماته (العلمية – التربوية) التالية :

- كعنصر علمي – كاشف لقانون الحياة وسنة الوجود، يدفع المؤمن نحو غايته، في اكتساب العلم، توصلا للمعرفة الصحيحة، وممارسة العمل الصالح، لبناء الحياة السعيدة •
- كعنصر تربوي – يؤدّب المؤمن على حب الله والانقياد للحق، يهيب به لجهاد النفس والهوى، لتكوين هذا الانسجام بين ارادته (سلوكه في الحياة) ومراد الله (منهاجه القويم) •
- وكعنصر قيادة وتوجيه – يخطط للانسان وللانسانية، مسيرة الحياة الفاضلة، ينظم للانسان فاعلياته (الفردية والاجتماعية) (في مجالات التشريع والتنفيذ والقضاء) ويضمن عملها بانسجام، على صعيد التعاون المشترك، يسير بالحياة، ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكامل •
- ما أشد حاجتنا إلى الوعي الاسلامي الصحيح (فقها لكتاب الله – واتباعاً لسنة رسول الله) إلى المربّين الأكفاء، العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، يقودون المسيرة إلى مجد الاسلام وعزته وكرامته إلى العلم النافع والعمل المثمر والخلق الكريم، يعيشون في المجتمع القوة الدافعة لمسيرة الركب الحضاري، إنها قوة العلم ويقظة الايمان التي جعلت من أمتنا العربية خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله •
- بالعلم الصحيح (المرافق بتربية الوحي والايمان) بنينا حضارتنا الخالدة، التي نستعرض عظمتها بذهول ودهشة، وبالعلم نستطيع أن نواصل السير، ونواكب المسيرة، لنكون بحق جديرين بالاسهام الحضاري البناء •

إن الاسلام (عقيدة ومنهجاً ، عبادة وسلوكاً) يوحى لنا بالتنافس الشريف ،
لبناء الحياة الأفضل ، وان التراث الحضاري الانساني ملك للجميع • قال تعالى :
● « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير • الذي خلق الموت
والحياة ليلوكم أيّكم أحسن عملاً » • سورة الملك - الآية : ١ - ٢

ان ارتباطنا بعقيدتنا ، وتراثنا ، ولغتنا (٢) ، يدفعنا لمواجهة الركب الحضاري
بقوة العلم ويقظة الايمان ، تتخير من الحضارة المعاصرة ، الجوانب العلمية ،
والخبرات الفنية ، لبنني بذلك مجتمعنا ، بناء صحيحاً متكاملًا ، متميزاً في
مقوماته ، مستقلاً في إراداته ، قوياً في اقتصاده ، ترتفع في ربوعه راية الايمان
ومنارة العلم •

أمتنا اليوم - مدعوة لبناء نفسها بناء حديثاً ، في شتى المجالات (الاجتماعية
والاقتصادية وغيرها) والطريق الى ذلك ، هو تعميق الثقة بالنفس (انطلاقاً من
الثقة والايمان بالله) وابرار الكيان الفكري لأمتنا ، والذي يعتمد على الفكر الاسلامي •
وهذا الكيان الفكري (المترافق بأصالته التربوية) يمكن أجيالنا المقبلة أن
ينهلوا من معين الحضارة ما يحتاجونه لبناء مجتمعهم واقتصادهم ، دون أن تحمل
هذه الاستفادة أخطار الذوبان والضياع في متاهات تبعدها عن أرضنا الطيبة ،
وتراثنا الفكري المشرق •

ان الاسلام كان (ولا يزال) قوة دافعة للحركة الحضارية ، سعادة للانسان
والانسانية ، يسير بالحياة (بقوة العلم ويقظة الايمان) ويرقى بها نحو
التطور والازدهار والتكامل •

(١) يقول الدكتور مراد كامل (عضو مجمع اللغة العربية في مصر) : ان لغتنا العربية سميج
لغة عالمية ، يسهل للأجنبي دراستها والتكلم بها ، وقراءة مؤلفات رجالها ، لقد كانت هذه اللغة عالمية
(في القرون الوسطى) وان العالم ليتوق الى دراسة لغة واحدة ، تكون سبيله للتفاهم •

وفد قرر المكتب التنفيذي لهئة اليونسكو « في هيئة الأمم المتحدة » اعتبار اللغة العربية لغة رسمية
في المنظمات الدولية ، جاء هذا القرار بعد خمس سنوات ، سعت فيها الدول العربية ، في سبيل إمتاع
العالم بأهمية اللغة العربية ، وضرورة اعتمادها لغة رسمية في المنظمات والمؤتمرات الدولية ، وسدا
العمل بهذا القرار التاريخي في ١٥ / أكتوبر / تشرين الاول ١٩٦٨ •

(ينظر كتاب فضل الحضارة الاسلامية على العالم للاستاذ زكريا هاشم زكريا ص ٢٩٣) •

مراجع البحث

- القرآن الكريم
- المصحف المفسر
- السيرة النبوية
- رياض الصالحين
- محاضرات في تفسير القرآن
- منبر الدعاة
- مباحث علوم القرآن
- التفسير والمفسرون
- مبادئ الثقافة الاسلامية
- أدب الحديث النبوي
- أصول الحديث
- المدخل الى الثقافة الاسلامية
- من روائع الأدب النبوي
- المدخل الفقهي العام
- المدخل الفقهي العام
- أصول التشريع الاسلامي
- تاريخ الفقه الاسلامي
- تاريخ المذاهب الاسلامية
- مبادئ تاريخ القانون
- محاضرات في الثقافة الاسلامية
- فضل الحضارة الاسلامية على العالم
- أصول التربية الاسلامية
- مجالي الاسلام
- دراسات في الحضارة الاسلامية
- الأستاذ عبد الجليل عيسى
- ابن هشام
- الامام النووي
- سماحة المفتي الدكتور أحمد كفتارو
- فضيلة القاضي محمد بشير الباني
- الدكتور صبي الصالح
- الشيخ محمد حسين الذهبي
- الدكتور محمد فاروق التبهان
- الدكتور بكري الشيخ أمين
- الدكتور محمد عجاج الخطيب
- الدكتور محمد رشاد سالم
- الدكتور كامل سلامة الدقس
- الأسناذ مصطفى الزرقا
- الدكتور محمد سلام مذكور
- علي حسب الله
- الدكتور علي حسن عبد القادر
- للاستاذ المرحوم محمد أبو زهرة
- الدكتور صوفي ، بو طالب
- محمد أحمد جمال
- زكريا هاشم زكريا
- الدكتور سعيد اسماعيل علي
- الأستاذ حيدر بامات
- الدكتور أحمد شلبي

تابع مراجع البحث

- الحضارة العربية الاسلامية الدكتور أحمد شوكت الشطي
- الاصول العامة لوحدة الدين الحق الدكتور وهبة الزحيلي
- نظام الاسلام الدكتور وهبة الزحيلي
- كبرى اليقينيات الكونية الدكتور سعيد رمضان البوطي
- من الفكر والقلب الدكتور سعيد رمضان البوطي
- التشريع والفقه في الاسلام الأستاذ مناع قطان
- تاريخ العلوم عند العرب الدكتور عمر فروح
- تاريخ الفكر العربي الدكتور عمر فروح
- التفسير الاسلامي للتاريخ الدكتور عماد الدين خليل
- دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل
- مختارات اللواء مصطفى طلاس
- الخالدون العرب قدري حافظ طوقان
- شمس العرب تسطع على الغرب المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه
- روائع الادب العربي الدكتور محمد نبیه حجاب
- قصة الايمان الأستاذ نديم الجسر
- دراسات فنية في الادب العربي الدكتور عبد الكريم اليافي
- أسمى الرسائل الأستاذ المرحوم عبد الحميد الخطيب
- الوصايا الخالدة عبد البديع صقر
- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي
- الايمان والحياة الدكتور يوسف قرناوي
- مغازي الرسول الكريم الامام الواقدي
- مصطلح التاريخ أسد رستم
- الاسلام منهاج وسلوك الأستاذ عبد الجواد الدومي
- دعوة الاسلام السيد سابق
- ضحى الاسلام أحمد أمين
- الشريعة الاسلامية والقانون الدولي علي علي منصور

تابع مراجع البحث

- تاريخ العلوم الدكتور عبد الحليم منتصر
- قصة الحضارة ديل ديورانت
- تاريخ العلم جورج سارتون
- الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة كويلر بونج
- تاريخ الحضارات العام ادوار بروي

المجلات العربية والإسلامية

- المجلة العربية الرياض مجلة منار الإسلام أبو ظبي
- مجلة الفيصل الرياض مجلة حضارة الإسلام دمشق
- مجلة الوعي الإسلامي الكويت مجلة منبر الإسلام القاهرة
- مجلة العربي الكويت مجلة البلاغ الكويت



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
	الباب الأول
١١	الثقافة الاسلامية
١٢	الفصل الأول : تعريف الثقافة وخصائصها
	الباب الثاني
١٦	القرآن والسنة
١٧	الفصل الأول : القرآن الكريم
١٨	المبحث الأول : التعريف بالقرآن وتاريخه
١٩	المكي والمدني من آيات القرآن
٢٤	المبحث الثاني . الجوانب التي اشتمل عليها القرآن
٣٠	المبحث الثالث : ترجمة القرآن
٣٣	الفصل الثاني : ظاهرة الوحي
٣٩	الفصل الثالث : السنة ومكائنها في التشريع
٤٠	تاريخ السنة

الموضوع	الصفحة
مصطلح الحديث	٤٥
أثر الاسلام في الأمة العربية	٤٧
الفصل الرابع : الحركة العلمية في صدر الاسلام	٤٩
نشأة المدارس العلمية	٥٣
دور المكتبات في نشر الثقافة	٥٥
الباب الثالث	
التطور التاريخي للتشريع الاسلامي	٦٠
الفصل الأول : الاجتهاد	٦٢
الفصل الثاني : المدارس الفقهية	٦٦
الفصل الثالث : المذاهب الفقهية	٧٠
الفصل الرابع : استقلال الشريعة الاسلامية	٧٨
الفصل الخامس : مدى تأثير الشريعة الاسلامية بالفقه الروماني	٨٢
مناقشة بعض شبهات المستشرقين	٨٣
أوجه الاختلاف بين الشريعة والقانون الروماني	٨٤
الباب الرابع	
عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم	٩٠
فلاسفة الغرب يعترفون بعظمة الرسول الكريم	١٠٣
نبي الإسلام (في حديث تولستوي الأديب الروسي الكبير)	١٠٥

الباب الخامس

١٠٧	أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية	
١١٢	: العلم أسّ الحضارة	الفصل الأول
١١٥	: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية	الفصل الثاني
١١٩	: معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا	الفصل الثالث
١٣٢	: العلوم الطبية عند العرب	الفصل الرابع
١٥١	: العلوم الرياضية والطبيعية عند العرب	الفصل الخامس
١٦٩	: العلوم الاجتماعية عند العرب	الفصل السادس
٢٠٠	: العلوم العقلية عند العرب	الفصل السابع
٢١١	شمس العرب المسلمين تشرق على العالم	
٢١١	البرابرة يغزون أوروبا ويدمرونها والمسلمون العرب ينقذونها ويعمرونها	
٢١٧	: مقابلة ممتعة بين الدين والفلسفة والعلم	خاتمة
٢٣٤		مراجع البحث

